

إِعْجَازُ الْقُرْآنِ

تَأَلِيفُ

القاضي السعيد شيخ السنة ولسان الملة

أبي بكر محمد بن الطيب الباقري

المتوفى سنة ٨٤٠٣

القاهرة

١٣٤٩

المطبعة السلفية - ومكبتها

مَقَدِّمَةُ النَّاشِرِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين • وصلى الله على خير خلق الله أجمعين • سيدنا محمد وآله وصحبه وسحمة هدايته • وسلم تسليماً كثيراً
أما بعد فإن أنبياء الله أقاموا على الناس الحجة بمعجزات كانت وزالت ، واختص الله خاتم أنبيائه صلوات الله عليه بمعجزة خالدة الى يوم الدين ، وهي القرآن الحكيم

ومن خير ما ألفه أئمة الهدى في بيان اعجاز كتاب الله كتاب القاضي أبي بكر البلاقلاني ، وان للقاضي أكثر من مائة كتاب بادت كلها في مياه دجلة بكارثة التتار ، ولعل (اعجاز القرآن) هو الكتاب الوحيد الذي بقي من مؤلفات هذا الامام . وكان قد طبع في القاهرة عام ١٣١٥ ونفدت نسخه من سنين كثيرة ، فأعدنا طبعه الآن معارضاً بنسخة مخطوطة في دار المكتب المصرية . وقد اقترح علينا المستشرق الشهير الاستاذ نلينو أن ندر في كل آية وردت في هذا الكتاب على رقم سورتها ثم على رقم الآية من تلك السورة ففعلنا . وأعاني على تصحيحه في بدايته صديقي الاستاذ السيد محمود محمد شاكر ، ثم قام بمثل هذه المروءة فضيلة الاستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد في بعض كراريس منه . فشكراً لها . وأرجو الله أن يجعل هذا الكتاب نافعا ، وأن يثيبنا على نشره انه أكرم مسئول

صديقنا
عبد الحميد

القاهرة : ربيع الثاني ، ١٣٤٩

أبو بكر محمد بن الطيب الباقلااني

شيخ السنّة ، ولسان الأُمّة : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد
ابن جعفر بن القاسم الباقلااني

نشأ نشأة العبقرية والنبوغ في مدينة البصرة أيام عزّها في القرن الرابع
للهجرة . وكانت البصرة يومئذ لا تزال على باب البادية (في موضع بلدة الزبير
الآن) وكانت عامرة بأعلام البيان ونحول علماء الاسلام : فيها رجال العلوم
العقلية الذين تبوءوا مراتب الحكمة وقلّبوا في الكون أو وجه النظر ، وفيها حفاظ
الشريعة الذين يرجع الناس اليهم في فهم كتاب الله الحكيم وصيانة السنّة من عبث
الوضاعين وفساد الكذّابين ، كما كان في رجالها أهل الاهواء الذين يرون واجبا
عليهم هدم هذا الاسلام والثأر منه للعجوسية والصابئية وسائر الظلمات التي
أشرق عليها نور القرآن فأزال غيابها ، ونكس رهوس أهلها ، وقضى على
أضاليلها وسفاهاتها . وبين أولئك وهؤلاء علماء التاريخ العارفون بوقائع الدهر
وحوادث الزمان . وزينة البصرة ومفخرتها يومئذ أهل العربية الذين انتهت
اليهم الامامة في فنونها وقوانين بيانها والاحاطة بمادتها والبصر في سنن العرب
في كلامها ، لا تأصلهم بالأعراب الخُلص من صدر الاسلام الى أن شيبت
الفصحى بغيرها

في هذا البحر المتلاطم بأمواج المعارف نشأ محمد بن الطيب الباقلااني ، فكان
من خير الناشئين في الاسلام : عقلا وعلماً وفصاحة لسان وسرعة بادرة
وقوة ادراك للحقائق

شيوخه

أخذ محمد بن الطيب العلم عن ابن مجاهد الطائي ، وهو أبو عبد الله محمد بن

ظهور الباقلاني

وأول حادثة كبرى في حياة الباقلاني استدعاؤه الى شيراز لمناظرة المعتزلة في مجلس عضد الدولة فناخسرو . وكانت شوكة المعتزلة شديدة في العراق الى أن كان زمن هذا الملك ، وكان قاضي القضاة في وقته معتزلياً ، فقال له فناخسرو يوماً :
— هذا المجلس عامر بالعلماء ، إلا أنني لا أرى أحداً من أهل السنة والاثبات ينصر مذهبه

فقال له قاضي القضاة : — ان أهل السنة والاثبات عامة رعاى أصحاب تقليد وأخبار وروايات ، يروون الخبر وضده ويعتقدونهما وأحدهما ناسخ للثاني أو متأول ، ولا أعرف منهم أحداً يقوم بهذا الأمر
فقال الملك : — محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر ينصره ، فانظر وا أي موضع يكون مناظر ليكتب فيه ويحضر مجلسنا
فلما عزم في ذلك قال له قاضي القضاة المعتزلي :

— أصلح الله الملك أخبروني أن بالبصرة رجلين - شيخاً وشاباً - أحدهما يُعرف بأبي الحسن الباهلي ، والشاب يُعرف بابن الباقلاني ، وكانت حضرة الملك يومئذ بشيراز ، فكتب الملك الى العامل ليعينهما اليه ، وأطلق مالا ليعفهما من طيب المال . قال القاضي أبو بكر الباقلاني : فلما وصل الكتاب اليينا قال الشيخ (يعني أبا الحسن الباهلي) وبعض أصحابنا :

— هؤلاء القوم فئمة لايجل لنا أن نطأ بساطهم ، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال ان مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم ، ولو كان ذلك لله عز وجل خالصاً لتهضت ، فأنا لا أحضر عند قوم هذه صفتهم

فقال القاضي : — كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن كان في عصرهما من المتكلمين : ان المأمون لانهض مجلسه احق مساق احمد الى طرسوس ثم مات المأمون وردوه الى المعتصم ، فامتنعنه وضربه ، وهؤلاء أسلموه ، ولو مروا اليه وناظروه لكفوه عن هذا الأمر ، فانه كان يزعم أن القوم ليست لهم حجة على

دعائهم . . . وأنت أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ماجرى على أحمد ، ويقولون بخلق القرآن ونفي رؤية الله تعالى ، وها أنا خارج ان لم تخرج قال : فخرجتُ مع الرسول نحو شيراز في البحر حتى وصلنا إليها . ثم ذكر من دخوله على الملك ومناظراته مع المعتزلة وقطعه أيام ما ذكر

وقد بلغ من احترام الملك عضد الدولة فناخسرو هذا العالم الشاب النابغة أن دَفَع إليه ابنه يعلمه مذهب أهل السنة ، وألف له كتاب (التمهيد)

سيرته وعلو همته

قال الحافظ ابن عساكر : كان القاضي أبو بكر رضي الله عنه فارس هذا العلم مباركا على هذه الأمة ، وكان يُلقَّبُ شيخَ السنة ولسان الأمة ، وكان . . فاضلا متورعا ممن لم يُحفظ عليه زلَّة قط ، ولا انتسبت إليه نقيصة ، وكان حصنا من حصون المسلمين

ويكفي لتعلم علو همة هذا الرجل العظيم أن تراقب استعماله لوقته ترى كيف كانت حياته مباركا فيها . فقد كان نوابغ الطلبة يزدهجون على باب منزله في نهر طابق ببغداد ليتلقوا دروس العلم منه نهاره وأكثريه^(١) . وكانت له في جامع المنصور ببغداد حلقة عظيمة يجلس فيها مجلسا عاما يحضره علماء المذاهب ورجال الدولة ودعاة النحل المختلفة فيسمعون من معارفه العجب العجاب . ومثل هذا العمل في منزله وفي جامع المنصور كاف ليكون القائم به محسنا إلى العلم والدين . ولكن القاضي الباقلابي لم يكن يقتنم من حياته بهذا وحده ، بل كان يزيد عليه أنه كان كل ليلة إذا صلى العشاء وقضى ورده وضع الدواء بين يديه وكتب خمسا وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه . ثم ينام فإذا استيقظ وصلى الفجر دفع ما كان كتبه قبل النوم إلى بعض أصحابه وأمره بقراءته عليه ، وفي خلال ذلك يعلي عليه الزيادات فيه

(١) من نوابغ تلاميذه أبو عبد الله الأزدي وأبو طاهر البغدادي التاسك ، وقد رحلا إلى القيروان وانتفع الناس هناك تعلمهما ومواهبهما

و كان القاضي من عباد الله الذين يحلو لهم طول القيام بين يدي الله ، فمن ذلك أنه كان بعد أداء فريضة العشاء يصلي كل ليلة عشرين ترويحة ما تركها في حضر ولا سفر . روى الحافظ ابن عساكر عن أبي حاتم محمود بن الحسن القزويني أن القاضي أبا بكر كان يضر من الورع والديانة والزهد والصيانة أضعاف ما كان يظهره . وقيل له في ذلك فقال : إنما أظهر ما أظهره غيظاً للمخالفين لا إلا يستحقروا علماء الحق

ومما امتاز به القاضي الباقلاني أنه كان في عصره أحسن الناس خاطراً وأجودهم لساناً وأوضحهم بياناً وأصحهم عبارة . وروى ابن عساكر عن أبي محمد الياقوبي أنه كان يقول « لو أوصى رجل بثلاث ماله أن يدفَع إلى أفصح الناس لوجب أن يذهب إلى أبي بكر الأشعري » . وقال أبو القاسم بن برهان النحوي « من سمع مناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلمين ، والفقهاء ، والخطباء والمرسلين ، ولا الاغاني أيضاً ، من طيب كلامه وفصاحته وحسن نظامه وإشارته »

سفارته الى ملك الروم

وفي سنة ٣٧١ أرسله عضد الدولة الى ملك الروم في جواب رسالة وردت منه ، فقام بمهمته أحسن قيام ، وترك وراءه أثراً بليفاً . وكان من مراسم المثلول بين يدي ملك الروم في ذلك الحين أن يقبل الزائر الأرض بين يدي الملك . والظاهر أن ملك الروم علم أن القاضي الباقلاني لن يقوم بهذه المراسم عند مثوله بين يديه ، فاحتمل لاجبار القاضي على أن يكون في هيئة الراكع له عند دخوله عليه ، فأمر بجعل سريره أمام باب منخفض لا يمكن الدخول منه الا بأنحناء . فلما جي بالقاضي ليدخل على الملك من هذا الباب فطن القاضي لما يريد به فأدار ظهره الى داخل القصر وحتى رأسه ودخل من الباب ماشياً الى خلفه حتى اذا صار في داخل مكان الاستقبال تقدم الى الملك منتصب القامة . فعجب الملك من فطنته ووقعت له الهيبة في نفسه وأدخلوه مرة وهو في عاصمة الروم على بعض المطارنة ، فقال القاضي لـكبيرهم

على سبيل التمجية : كيف أنت ، وكيف الاهل والاولاد ؟ فتعجب الرومي وقال له : ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الامة ومتقدم على علماء الامة ، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الاهل والاولاد ؟ فأجابه القاضي أبو بكر : رأيناكم لا تنزهون الله سبحانه عن الاهل والاولاد ، فهل المطارنة عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه ؟

وأراد كبير الروم أن يخزي القاضي فقال له : أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فأجابه : هما اثنتان قيل فيهما ما قيل : زوج نبيينا ومريم أم المسيح . فاما زوج نبيينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحملته على كتفها ، وقد برءها الله مما رميتها به . فاقطع الرومي ولم يجر جوابا

مصنفاته

قال أبو بكر الخوارزمي : كل مصنف ببغداد انما ينقل من كتب الناس الى تصانيفه ، سوى القاضي أبي بكر كان صدره حوى علمه وعلم الناس . وقال علي بن محمد بن الحسن الحربى المالكي : كان القاضي أبو بكر بهم بان يختصر ما يصنّفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه . وما صنّف أحد خلافا إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين غير القاضي فان جميع ما كان يذكر من خلاف الناس فيه صنّفه من حفظه

وقد رأيت آنفاً كيف ان القاضي الباقلاني كان يصنف في كل ليلة خمساً وثلاثين ورقة . ولما توفي القاضي أمر الشيخ أبو الفضل التميمي مناديا أن ينادي بين يدي جنازته « هذا ناصر السنة والدين ، هذا امام المسلمين ، هذا الذي كان يذب عن الشريعة السنة المخالفين ، هذا الذي صنّف سبعين ألف ورقة ردّاً على الملحدين » . هذا مانودي به يوم وفاة هذا الامام العظيم ، ولا شك في أن مؤلفاته كانت موجودة في تركته ، اذ كانت تتداولها أيدي علماء بغداد وأفاضل الامصار . ولكن أين هي الآن هذه المؤلفات ؟ لقد فقدناها وباللاسف وصرنا لا نستطيع

الوصول الى اسمائها . وأخشى أن يكون أثره الوحيد للباقي بين أيدينا هو كتاب
 (اعجاز القرآن) دون غيره من مصنفاته التي تكاد تملأ خزانه
 أما الكتب التي بقي اسمها وفُتد رسمها فمنها كتاب له في (الملل والنحل) ،
 وآخر اسمه (الانتصار) وثالث عنوانه (كشف أسرار الباطنية) وكتاب
 (التمهيد) للذي ألفه لابن الملك عضد الدولة . وذكّر صاحب كشف الظنون كتاباً
 بعنوان (هداية المسترشدين في الكلام) لأبي بكر بن الباقلاني الشافعي ، ولا
 أدري هل كلمة « الشافعي » من زيادات النساخ والطابعين أم هي خطأ من المؤلف
 أم الكتاب لغير هذا الامام

مذهبه

لا شك أنه كان من فقهاء المالكية ، وقد ترجم له ابن فرحون في الديباج
 المذهب وعدّه من الطبقة السابعة من أهل العراق ^(١)
 هذا مذهبه الفقهي . وأما مذهبه الكلامي فانه كان أشعرياً كما علمت ، وله في
 كتب الكلام آراء منسوبة اليه ، من ذلك أنه كان يقول بالواسطة بين الموجود
 والمعدوم ، لانه ذهب الى أن المعلوم ان لم يتحقق أصلاً فهو المعدوم وان تحقق
 بوجه فان لم يكن باعتبار ذاته فهو الحال وعرفوه بأنه صفة لموجود لا موجودة ولا
 معدومة وان كان فهو الموجود في الخارج ^(٢)

ومن مواطن الخلاف بين المعتزلة والاشاعرة مسألة القدرة ونسبتها الى العبد ،
 فالمعتزلة كانوا يشنعون على الامام أبي الحسن بأن قدرة العبد لما لم تكن مؤثرة
 فتسميتها قدرة مجرد اصطلاح . فان القدرة صفة مؤثرة على وفق الارادة . وبأن

(١) ان القاضي ابا بكر الباقلاني ائدة قيامه في بصرة مذهب الشيخ ابي الحسن الاشعري صار يقال
 له الاشعري . فالتبس الامر على الناس في بعض الاحيان حتى اذا عزي امر الى القاضي ابي بكر الاشعري
 (ابي الباقلاني) يظن ان المراد الامام ابو الحسن الاشعري . وعلى هنا يحمل وم . من توهم ان ابا الحسن
 الاشعري كان مالكيّاً فان منشا ذلك ان ابا بكر الباقلاني هو المالكي ، فلما قال من قال الاشعري مالكي - وهو
 يريد ابا بكر الباقلاني - ظن من سمع ذلك ان ابا الحسن الاشعري مالكي وليس كذلك (انظر طبقات
 الشافعية للسبكي ٢ : ٢٥٥)

(٢) انظر اول رسالة البصائر من علم الكلام للشيخ عبد الصمد بن محمود السكردى

الفرق بين القدرة والعلم بتأثير القدرة وعدم تأثير العلم وبأنه لما لم يكن للعبد اختيار فلا يستحق الثواب والعقاب . والاشاعة ومن يذهب مذهبهم يردون على المعتزلة بان القدرة ليست صفة مؤثرة بالفعل ، بل صفة من شأنها التأثير على وفق الارادة ، سواء أثرت بالفعل أو لم تؤثر ، وبه يحصل الفرق بينها وبين العلم ، اذ ليس من شأن العلم التأثير المذكور . والكسب عند الاشعري مقارنة الفعل للقدرة والارادة من غير أن يكون للقدرة تأثير ولا للعبد مدخل سوى كونه محلا للفعل . والقاضي الباقلاني مذهب في الفرق بين القدرة والكسب هو أن الكسب ما يقع به المقدر في محل القدرة ، ولا يصح انفراد القادر به في وجود المقدر ، والخلق بخلافه^(١) ونسب اليه صاحب روضات الجنات^(٢) القول بعدم استعمال المصطلحات الشرعية في خلاف معانيها اللغوية أبدا ولو مجازا ، بزعم أن الخصوصيات المؤثرة من جانب الشارع المقدس شروط صحتها خارجة عن أصول تلك المسميات ، نظير ما يقوله الذاهبون الى وضع الحقائق الشرعية للاعم من الصحيحة منها والفاصلة نظرا الى صحة الاطلاق عليه ، فلا نقل عنده الى احد من تلك المعاني المجمولات . وان قيل ان المشهور اختياره للمذهب الثاني في الحقائق الشرعية ، وهو كونها مجازات لغوية

وفاته

وكانت وفاة هذا الامام آخر يوم السبت لست بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ ودفن يوم الاحد لسبع بقين منه ، وصلى عليه ابنه الحسن . ودفن أولا في داره بنهر طابق ، ثم نقل الى مقبرة باب حرب ودفن فيها بقرب قبر الامام احمد بن حنبل رضي الله عنهما . ومما رثي به :

أَنْظُرَ إِلَى جَبَلٍ تَمْشِي الرِّجَالُ بِهِ وَأَنْظُرَ إِلَى النَّبْرِ مَا يَحْوِي مِنَ الصَّلَافِ
وَأَنْظُرَ إِلَى صَارِمِ الْإِسْلَامِ مِنْ مَقْدَمِهَا وَأَنْظُرَ إِلَى دَرَةِ الْإِسْلَامِ فِي الصَّدَفِ

(١) انظر حاشية الكتنبوي على العقائد العضية ص ٢٥٦

(٢) من الشيعة . انظر ص ٦١٦ (٤ : ١٧٧) منه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم اليه من الايمان ، والمتمم احسانه بما أقام لهم من جلي البرهان * الذي حمد نفسه بما أنزل من القرآن ليكون بشيراً ونذيراً ، وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً * وهادياً الى ما ارتضى لهم من دينه ، وسلطاناً أوضح وجه تبينه * ودليلاً على وحدانيته ، ومرشداً الى معرفة عزته وجبروته * ومفصحا عن صفات جلاله ، وعلو شأنه وعظيم سلطانه * وحجة لرسوله الذي أرسله به وعلمها على صدقه ، وبينه على أنه أمينه على وحيه وصانع بأمره * فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله ، ورسالة تشتمل على نصحيح قول مؤدبها ، يتن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها الى بيّنة تعدوها ، أو حجة تتلوها * وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات ، والتشكك في المشاهدات * ولذلك قل عز ذكره (٧:٦) * ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فَلَسَوْهَ بَأَيْدِيهِمْ لِقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وقال عز وجل (١٥:١٤-١٥) * ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يَعْرُجُونَ ، لقالوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْجُورُونَ * * فله الشكر على جزيل احسانه وعظيم مننه * والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله وسلم

ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواماً ، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً ، وعلى صدق نبيهم ^{صلى الله عليه وسلم} برهانا ، ولمعجزته ثبنا وحجة . لاسباب الجهل ومدود الرواق ، شديد النفاق ، مسبول على الآفاق . والعلم الى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس . وأهله

في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشميم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبيله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود في صنعمته . فقد أدى ذلك الى خوض الملحددين ، في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهله ، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه ، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره . فمن قائل قال انه سحر ، وقائل يقول انه شعر ، وآخر يقول انه أساطير الأولين ، وقالوا لولنا مثل هذا ، الى الوجوه التي حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا فيه وتكلموا به فصرفوه اليه . وذكر لي عن بعض جهالمهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه . وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم الى عظيم ما يقولونه اخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم إلا أن أكثر من كان طعن فيه في أول أمره استبان رشده ، وأبصر قصده ، فتاب وأناب ، وعرف من نفسه الحق بفريرة طبعه وقوة اتقانه ، لا لتصرف لسانه ، بل لهداية ربه وحسن توفيقه . والجهل في هذا الوقت أغلب ، والملحدون فيه عن الرشد أبعد ، وعن الواجب أذهب . وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن ، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام ، أن يبسطوا القول في الابانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه ، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزئ ، ودقيق الكلام في الأعراس ، وكثير من بديع الاعراب وغامض النحو ، فلحاجة الى هذا أمس ، والاشتغال به أوجب . وقد قصر بعضهم في هذه المسألة ، حتى أدى ذلك الى تحول قوم منهم الى مذاهب البراهمة فيها ، ورأوا أن عجز أصحابهم

عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها ولا وجه لها ، حين رأوهم قد
برعوا في لطيف ما أبدعوا ، وانتهوا الى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا . ثم رأوا
ماصفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه ، ولا مستوفى في وجهه ، قد أخل بهتديب
طرقه ، وأهل ترتيب بيانه . وقد يعذر بعضهم في تفریط يقع منه فيه ، وذهاب
عنه ، لان هذا الباب مما يمكن احكامه بعد التقدم في أمور شريفة المحل ، عظيمة
المقدار ، دقيقة المسلك ، لطيفة المأخذ . واذا اتهمنا الى تفصيل القول فيها
استبان ما قلناه من الحاجة الى هذه المقدمات ، حتى يمكن بعدها إحكام القول في
هذا الشأن . وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله
المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى
وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات وتزيل الشكوك
التي تعرض للجهاًل وتنتهي الى ما يخطر لهم ويعرض لافهامهم من الطعن في وجه
المعجزة . فأجبناه الى ذلك متقربين الى الله عز وجل ومتوكئين عليه وعلى حسن
توفيقه ومعونته * ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا ، ونشير اليه ، ولا نبسط
القول امثلا يكون ما ألفناه مكررا ومقولا ، بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب
خاصة ، ونصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه
الكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة ، وتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما
يشبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة
بلسان العرب في أصل الوضع ، ثم ما اختلفت به مذاهب مسعمليه في فنون
ما ينقسم اليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجاري الخطاب
وان كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه المتصاح وتقصده في البلاغة ،
لان هذه أمور يتعمل لها في الاغلب ، ولا يتجاوز فيها . ثم من بعد هذا الكلام
الدائر في محاوراتهم ، والتفاوت فيه أكثر لان التعمل فيه أقل . إلا من غزارة

طبع أو فطانة تصنع وتكلف ، ونشير الى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق
ليعرف عظيم محل القرآن ، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه ، وتجاوزه الحد
الذي يصح أو يجوز ان يوازن بينه وبينها ، أو يشتبه ذلك على متأمل . ولسنا
نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن
معرفة الادب ذاهبا ، وعن وجه اللسان غافلا ، لان ذلك مما لا سبيل اليه إلا ان
يكون الناظر فيها نعرض عليه مما قصدنا اليه من أهل صناعة العربية قد وقف على
جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه ، وعرف جملة من طرق المتكلمين
ونظر في شيء من أصول الدين . وانما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل من
وصفناه فقال (٤١ : ٣) « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون »
وقال (٤٣ : ٣) « إننا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »



فصل

﴿ في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن ﴾

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة اعجاز القرآن ، أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة وان كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة الا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة ، وتقل بعضها تقلا متواتراً يقع به العلم وجوداً ، وبعضها مما تقل تقلا خاصاً الا أنه حكى بشهد من الجمع العظيم أنهم شاهدوه ، فلو كان الامر على خلاف ما حكى لا نكره أولاً نكره بعضهم فخل محل المعنى الأول وان لم يتواتر أصل النقل فيه . وبعضها مما تقل من جهة الآحاد ، وكان وقوعه بين يدي الآحاد . فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمت الثقيلين وبقيت بقاء العصرين ، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها الى يوم القيامة على حد واحد ، وان كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الاتيان بمثله وجه دلالة فيغنى ذلك عن نظير مجدد في عجز أول العصر عن مثله ، وكذلك قد يغنى عجز أهل هذا العصر عن الاتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول . وانما ذكرنا هذا الفصل لما حكى عن بعضهم انه زعم أنه وان كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هذا العصر بماجزين عنه . ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة لأنهم خصوا بالتحدثي دون غيرهم . ونحن نبين خطأ هذا القول في موضعه . فأما الذي يبين ما ذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه سوراً كثيرة وآيات نذكر بعضها وننبه بالمدكور على غيره ، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه . فمن ذلك قوله تعالى (١٤ : ١) « الر كتاب أنزلناه اليك

لتُخرج الناسَ من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد «
 فأخبرانه أنزله ليقم الاهتداء به ولا يكون كذلك الا وهو حجة ، ولا تكون
 حجة ان لم تكن معجزة ، وقال عز وجل (٦ : ٩) « وان أحد من المشركين
استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره
 على سماعه ولا يكون حجة الا وهو معجزة ، وقال عز وجل (١٩٢:٢٦-١٩٤)
 « وانه لتنزيلُ ربِّ العالمين ، نزل به الروحُ الأمين ، على قلبك لتكونَ من
 المنذرين » وهذا بينٌ جداً فيما قلناه من انه جعله سبباً لكونه مندرأ . ثم
 أوضح ذلك بأن قال (١٩٥ : ٢٦) « بلسان عربي مبين » فلولا أن كونه بهذا
 اللسان حجة لم يعقب كلامه الأول به ، وما من سورة افتتحت بذكر الحروف
 المقطعة الا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه . ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك
 على ما بعده ، وكثير من هذه السور اذا تأملته فهو من أوله الى آخره مبني
 على لزوم حجة القرآن والتنبية على وجه معجزته . فمن ذلك سورة
 المؤمن (١٠ : ٤٠ - ٦) قوله عز وجل « حم تنزيلُ الكتاب من الله العزيز
 العليم » ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله تعالى « غافر الذنب ، وقابل
 التوب ، شديد العقاب » الى أن قال « ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا »
 فدل على أن الجدل في تنزيهه كفرٌ وإلحاد . ثم أخبر بما وقع من تكذيب
 الأمم برسلمه بقوله عز وجل « كذبت قبلهم قومُ نوح والأحزابُ من بعدهم »
 الى آخر الآية ، فتوعدهم بأنه آخذهم في الدنيا بذنبهم في تكذيب الانبياء ورد
 براهيمهم فقال تعالى « فأخذتهم فكيف كان عقاب » ثم توعدهم بالنار ، فقال
 تعالى « وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » ثم عظم
 شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار الملائكة لهم وما وعدهم عليه من
 المغفرة فقال تعالى (٧ : ٤٠) « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر
للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » فلو لا انه برهان قاهر لم ينم
الكفار على العدول عنه ولم يحمد المؤمنين على المصير اليه . ثم ذكر تمام الآيات في
دعاء الملائكة للمؤمنين ، ثم عطف على وعيد الكافرين فذكر آيات ثم قال (١٣ : ٤٠)
« هو الذي يريكم آياته » فأمر بالنظر في آياته وبراهينه الى أن قال (١٥ : ٤٠) « رفيع
الدرجات ذو العرش يُلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم
التلاق » فجعل القرآن والوحي به كالروح ، لأنه يؤدي الى حياة الأبد ، ولأنه
لا فائدة للجسد من دون الروح ، فجعل هذا الروح سبباً للانذار وعلماً عليه وطريقاً
اليه ، ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يصح أن يقع به الانذار والاختبار عما يقع عند
مخالفته ولم يكن الخبر عن الواقع في الآخرة عند ردهم دلالة من الوعيد حجة
ولا معلوما صدقه فكان لا يلزمهم قبوله . فلما خلاص من الآيات في ذكر الوعيد
على ترك القبول ضرب لهم المثل بمن خالف الآيات وجحد الدلالات والمعجزات
فقال (٢١ : ٤٠) « أو لم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من
قبلهم » الى آخر الآية ثم بين أن عاقبتهم صارت الى السوءى بأن رُسُلهم كانت
تأتيهم بالبينات وكانوا لا يقبلونها منهم فعلم أن ما قدم ذكره في السورة بينة رسول
الله ﷺ ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام ومجيئتهما بالبينات ومخالفتهما
حكما الى أن قال تعالى (٣٥ : ٤٠) « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم
كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار »
فأخبر أن جداهم في هذه الآيات لا يقع بحجة وانما يقع عن جهل وأن الله يطبع
على قلوبهم ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجحودهم وعنادهم واستكبارهم ، ثم
ذكر كثيراً من الاحتجاج على التوحيد ثم قال تعالى (٦٩ : ٤٠) « ألم تر الى
الذين يجادلون في آيات الله أنى يُصرفون » ثم بين هذه الجملة وأن من آياته

الكتاب قتال (٧٠: ٤٠) «الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلنا فسوف يعلمون» الى أن قال (٤٠: ٧٧) «وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بأذن الله» فدل على أن الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف، والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر ويقع عندها العلم الضروري وأنها إذا جاءت ارتفع التكليف ووجب الاهلاك. الى أن قال تعالى (٤٠: ٨٥) «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» فأعلمنا انه قادر على هذه الآيات، ولكنه إذا أقامها زال التكليف وحقت العقوبة على الجاحدين. وكذلك ذكر في «حم» السجدة على هذا المنهج الذي شرحنا، فقال عز وجل (٤١: ٤-٤) «حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصّات آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً» فلولاه انه جعله برهاناً لم يكن بشيراً ولا نذيراً، ولم يختلف بأن يكون عربياً مفصلاً أو بخلاف ذلك. ثم أخبر عن ججودهم وقلة قبولهم بقوله تعالى «فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون» ولولاه حجة لم يضرهم الاعراض عنه

وليس لقائل أن يقول قد يكون حجة وبحتاج في كونه حجة الى دلالة أخرى كما أن الرسول ﷺ حجة ولكنه يحتاج الى دلالة على صدقه وصحة نبوته. وذلك انه انما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل ولم يذكر حجة غيره. وبين ذلك انه قال عقيب هذا (٤١: ٦) «قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي» فأخبر انه مثلهم لولا الوحي. ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له فقال (٤١: ٨) «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون» ومعناه الذين آمنوا بهذه الوحي والتنزيل وعرفوا هذه الحجة. ثم تصرف في الاحتجاج على الوجدانية والقدرة الى ان قال (٤١: ١٣) «فان أعرضوا قل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المكذبين بآيات الله من قوم عاد

وتهود في الدنيا ثم توعدهم بأمر الآخرة فقال (٤١ : ١٩) « ويوم يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » إلى انتهاء ما ذكره فيه . ثم رجع إلى ذكر القرآن فقال (٤١ : ٢٦) « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ » ثم أتى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول فقال (٤١ : ٣٠) « ان الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا » ثم قال (٤١ : ٣٦) « وَإِنَّمَا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » وهذا ينبه على أن النبي ﷺ يعرف اعجاز القرآن ، وأنه دلالة له على جهة الاستدلال ، لأن الضروريات لا يقع فيها نزغ الشيطان ، ونحن نبين ما يتعلق بهذا الفصل في موضعه . ثم قال (٤١ : ٤٠) « ان الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » إلى أن قال (٤١ : ٤١-٤٢) « ان الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ كِتَابًا عَزِيزًا ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » وهذا وإن كان متأولا على أنه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أقاصيص الأرباب و اخبار المرسلين ، وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أبداً إنما تقع في الثاني فلا يخرج عن أن يكون متأولا على ما يقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة قدح في معجزته أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته ، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه . ثم قال (٤١ : ٤٤) « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيَا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَبِي وَعَرَبِي » فأخبر أنه لو كان أعجبياً لكانوا يحتجون في رده ، أما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم - وكانوا يعتدرون بذهابهم عن معرفة معناه ، وبأنهم لا يبين لهم وجه الاعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم - أو بغير ذلك من الامور ، وأنه إذا تحدثوا إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به ، على ما نبينه في وجه هذا

الفصل، الى أن قل (٤١ : ٥٢) « قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد » والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور، ففكرنا سرد القول فيها، فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك

ثم ما يدل على هذا نوله عز وجل (٢٩ : ٥٠ - ٥١) « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فأخبر أن الكتاب آية من آياته وتكلم من أعلامه، وان ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم، ويدل عليه قوله عز وجل (١ : ٢٥) « تبارك الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً » وقوله (٤٢ : ٢٤) « أم يقولون افتري على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويحج الله الباطل ويحقق الحق بكلماته » فدل على انه جعل قلبه مستودعاً لوحيه، ومستنزلاً لكتابه، وانه لو شاء صرف ذلك الى غيره، وكان له حكم دلالة على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التي وصفناها . فبان بهذا وبنظائره ما قلناه من أن بناء نبوته صلوات الله عليه على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالاته على نفسه وصدقه انه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد ووصف مضاف اليها، لان نظمها ليس معجزاً، وان كان ما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب معجزاً . وليس كذلك القرآن لانه يشاركها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أن نظمه معجز، فيمكن أن يستدل به عليه، وحل في هذا من وجوه محل سماع الكلام من القديم سبحانه وتعالى، لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم انه في الحقيقة كلامه . وكذلك من يسمع القرآن يعلم انه كلام الله

وان اختلف الحال في ذلك من بعض الوجوه لان موسى عليه السلام سمعه من الله عز وجل وأسمعه نفسه متكلمًا ، وليس كذلك الواحد منا . وكذلك قد يختلفان في غير هذا الوجه ، وليس ذلك قصدنا بالكلام في هذا الفصل . والذي نرومه الآن ما يبيناً من اتفاقهما في المعنى الذي وصفنا ، وهو انه عليه السلام يعلم ان ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال



فصل

﴿ في الدلالة على أن القرآن معجز ﴾

قد ثبت بما يتنا في الفصل الاول ان نبوة نبينا ﷺ مبنية على دلالة معجزة القرآن ، فيجب ان نبين وجه الدلالة من ذلك * قد ذكر العلماء ان الاصل في هذا هو ان تعلم ان القرآن الذي هو متلوّ محفوظ مرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي ﷺ ، وانه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثا وعشرين سنة . والطريق الى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به . وذلك انه قام به في المواقف ، وكتب به الى البلاد وتحمله عنه اليها من تابعه ، وأورده على غيره من لم يتابعه ، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشبهه على أحد ، ولا يحيل انه قد خرج من آتى بقرآن يتلوه يأخذه على غيره ويأخذ غيره على الناس ، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها وتعدى الى الملوك المصابقة لهم كملك الروم والعجم والقبط والحبس وغيرهم من ملوك الاطراف . ولما ورد ذلك مضاداً لاديان أهل ذلك العصر كلهم ومخالفاً لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر ، وقف جميع أهل الخلاف على جملة ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالايان على جملة وتفصيله . وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال ، وتنقلت به الرحال ، وتعلمه الكبير والصغير . اذ كان عمدة دينهم ، وعلماء عليه ، والمفروض تلاوته في صلواتهم ، والواجب استعماله في أحكامهم . ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله ، حتى انتهى اليها ما وصفناه من حاله ، فلن يتشكك أحد ولا يجوز ان يتشكك مع وجود هذه الاسباب في انه آتى بهذا القرآن من عند الله ، فهذا أصل . واذا

ثبت هذا الاصل وجودا فانا نقول انه تحداهم الى ان يأتوا بمثله ، وقرعهم على ترك الاتيان به طول السنين التي وصفناها فلم يأتوا بذلك ، والذي يدل على هذا الاصل اننا قد علمنا ان ذلك مذكور في القرآن في المواضع الكثيرة كقوله (٢٤-٢٣:٢) « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » وكقوله (١١-١٣:١٤) « أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سورا مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » فجعل معجزهم عن الاتيان بمثله دليلا على انه منه ودليلا على وحدانيته . وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم انه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوحدانية وزعم ان ذلك مما لا سبيل اليه الا من جهة العقل ، لان القرآن كلام الله عز وجل ولا يصح ان يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولا . فقلنا اذا ثبت بما نبينه اعجازه وان الخلق لا يقدرون عليه ثبت ان الذي أتى به غيرهم ، وانه انما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم . وانه صدق ، واذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقا ، وليس اذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع ان يعرف من الوجهين . وليس الغرض بتحقيق القول في هذا الفصل لانه خارج عن مقصود كلامنا ، ولكننا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه ، ومن ذلك قوله عز وجل (١٧: ٨٨) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقوله (٥٢: ٣٣- ٣٤) « أم يقولون تموله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » فقد ثبت بما بيناه انه تحداهم اليه ولم يأتوا بمثله وفي هذا امران : أحدهما التحدي اليه ، والاخر أنهم لم يأتوا له بمثل . والذي

يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ، فلا يمكن جحود واحد من هذين الامرين . وان قال قائل لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدى وانما قرأ عليهم ماسوى ذلك من القرآن كان ذلك قولاً باطلاً يعلم بطلانه مثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضاعف هذا وهو يبلغ حمل جمل وانه كتم وسيظهره المهدي . أو يدعى أن هذا القرآن ليس هو الذى جاء به النبي ﷺ وانما هو شيء وضعه عمر أو عثمان رضي الله عنهما حيث وضع المصحف . أو يدعى فيه زيادة أو نقصاناً . وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، ووعد الحق . وحكاية قول من قال ذلك يغنى عن الرد عليه لان العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي وفي الاسفار والحضر وضبطوه حفظاً من بين صغير وكبير وعرفوه حتى صار لا يشبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو والذسيان ، ولا التخليط فيه والكتمان ، ولو زادوا ونقصوا أو غيروا اظهر ، وقد علمت ان شعر امرى القيس وغيره - على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن ، ولا ان يحفظ كحفظه ، ولا أن يضبط كضبطه ، ولا ان تمس الحاجة اليه ماساسها الى القرآن - لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت لابل لو غير فيه لفظ لتبرأ منه أصحابه ، وأنكره أربابه . فاذا كان ذلك مما لا يمكن في شعر امرى القيس ونظرائه مع أن الحاجة اليه تقع لحفظ العربية ، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكره في القرآن مع شدة الحاجة اليه في أصل الدين ، ثم في الاحكام والشرائع واشتغال المهتم المختلفة على ضبطه : فمنهم من يضبطه لاحكام قرآنه ومعرفة وجوهها وصحة أدائها ، ومنهم من يحفظه للشرائع والفقهاء ، ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه ، ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة ، ومن الملحد من يحصله لينظر في عجيب شأنه . وكيف يجوز على أهل هذه المهتم المختلفة والآراء المتباينة على كثرة اعدادهم واختلاف بلادهم وتفاوت

أغراضهم ان يجتمعوا على التغير والتبديل والسكتان . ويبين ذلك انك اذا تأملت ما ذكر في اكثر السور مما بينا ، ومن نظائره في رد قومه عليه ورد غيرهم وقولهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا مثل هذا » وقول بعضهم (٣٨ : ٧) « إن هذا الا اختلاق » ^(١) الى الوجوه التي يصرف اليها قولهم في الطعن عليه فمنهم من يستهين بها ويجعل ذلك سبباً لتركه الاتيان بمثله ، ومنهم من يزعم انه مقترى فلذلك لا يأتي بمثله ، ومنهم من يزعم انه دارس وأنه أساطير الاولين . وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحديه لثلاثين التطويل . ولو جاز أن يكون بعضه مكتوماً جاز على كله ولو جاز أن يكون بعضه موضوعاً جاز ذلك في كله فثبت بما بيناه انه تحدى اليه وأنهم لم يأتوا له بمثل . وهذا الفصل قد بينا أن الجميع قد ذكروه وبنوا عليه . فاذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعمه ان تركهم للاتيان بمثله كان لعجزهم عنه . والذي يدل على انهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن انه تحداهم اليه حتى طال التحدي وجهله دلالة على صدقه ونبوته وتضمن احكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعوا وتوصلوا الى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عادتهم في لساتهم ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يفتنهم عن تكلف القتال واكثر المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الاوطان وعن تسليم الاهل والذرية للسي . فلما لم يحصل هناك معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها يبين ذلك ان العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكاييد لا سيما مع استعظامه ما بدعه بالحيء من خلع آلمته وتسفيه رأيه في ديانته وتضليل آباءه والتغريب عليه بما جاء به واظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته والتصرف

(١) اسم الاشارة هنا راجع الى قولهم (٣٨ : ٥) « أجعل الآلهة الها واحدا »

على حكم ارادته والعدول عن الفه وعادته والانخراط في سلك الاتباع بعد أن كان متبوعاً والتشيع بعد أن مشيعاً ، وتحكيم الغير في ماله ، وتسليطه اياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله . وقد علم أن بعض هذه الاحوال مما يدعو الى سلب النفوس دونه . هذا والحية حيتهم والههم الكبيرة همهم وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم ، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا الى الرد عليه والى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر ، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ايس وراءها مطّلع والرتبة التي ليس وراءها منزع ؟ ومعلوم أنهم لو عارضوه بما نكدهم اليه لكان فيه توهين أمره ، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ، واشتيت أسبابه ، وكان من صدق به يرجع على أعقابه ويمود في مذهب أصحابه . فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة وكان امره يتزايد حالاً فحالا ويملو شيئاً فشيئاً وهم على العجز عن القدح في آيته والطعن في دلالته ، علم مما بيننا انهم كانوا لا يقدرون على معارضته ولا على توهين حجته . وقد اخبر الله تعالى عنهم انهم (٤٣ : ٥٨) « قوم خصمون » وقال : (١٩ : ٩٧) « وتنفّر به قوماً لداً » وقل (١٦ : ٤) « خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين » وعلم ايضاً ان ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى الله عز وجل عنهم من قولهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين » وقولهم (٢٨ : ٣٦) « ما هذا الا سحر مقترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين » وقالوا (١٥ : ٦) « يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون » وقالوا (٢١ : ٣) « افنأتون السحر وانتم تبصرون » وقالوا (٣٧ : ٣٦) « ائنا لناركوا آلتهنا لشاعر مجنون » (٤ : ٥) « وقال الذين

كفروا ان هذا الا افك اقتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءواظماً وزورا
وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملئ عليه بكرة واصيلاً» (٢٥ : ٨) وقال
الظالمون ان تتبعون الا رجلاً مسحوراً» وقوله (١٥ : ٩١) الذين جعلوا
القرآن عيظين» الى آيات كثيرة في نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين في
امرهم متعجبين من عجزهم يفزعون الى نحو هذه الامور من تعليل وتمذير ومدافعة
بما وقع التحدي اليه ، وعرف الحث عليه . وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب
وجاهروه وناهبوه وقطعوا الارحام وأخطروا بأنفسهم وطالبوه بالآيات
والايتان^(١) وغير ذلك من المعجزات ، يريدون تعجزه ليظهروا عليه بوجه
من الوجوه . فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم
وذلك يدحض حجته ويفسد دلالته ويبطل أمره - فيعدلون عن ذلك الى سائر
ما صاروا اليه من الامور التي ليس عليها مزيد في المناهضة والمعادة ويتركون
الامر الخفيف ؟ هذا مما يمتنع وقوعه في العادات ولا يجوز اتقانه^(٢) من العقلاء .
والى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام وأكثروا في هذا المعنى وأحكموه .
ويمكن ان يقال أنهم لو كانوا قادرين على معارضته والايتان بمثل ما أتى
به لم يجوز أن يتفق منهم ترك المعارضة وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلاقة
والمعرفة بوجوه الفصاحة ، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته
وانهم يضعفون عن مجاراته . ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي
به ويقرّعهم ويؤنبهم عليه ويدرك أماله فيهم وينجح ما يسعى له بتركم
المعارضة . وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه وتفخيم أمره حتى يتلو قوله تعالى
« (١٧ : ٨٨) قل لئن اجتمعت الانسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

(١) هنا في الاصل بياض يقسم لكاتبين

(٢) كذا في المخطوطة والمطبوعة

لا يأتون مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» وقوله (١٦ : ٢) «يُنزِلُ
 الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا
 أنا فاتقون» وقوله (١٥ : ٨٧) «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن
 العظيم» وقوله (١٥ : ٩) «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» وقوله
 (٤٣ : ٤٣) «وانه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تُسئلون» وقوله (٢ : ٢)
 «هُدًى للمتقين» وقوله (٣٩ : ٢٣) «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا
 مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشُرَ عَنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
 إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» الى غير ذلك من الآيات التي تتضمن تعظيم شأن القرآن .
 فمنها ما يتكرر في السورة في مواضع منها ومنها ما ينفرد فيها ، وذلك مما
 يدعوهم الى المباراة ويحضهم على المعارضة وان لم يكن متجددا اليه . ألا ترى
 انهم قد كان ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا ولهم في ذلك مواقف معروفة وأخبار
 مشهورة وأيام منقولة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة
 ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم ، فان يجوز والحال هذه أن يتغافلوا عن
 معارضته لو كانوا قادرين عليها ، تحداهم اليها أو لم يتحدثهم . ولو كان هذا
 القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر ، وهو انه لو كان مقدورا
 للعباد لكان قد اتفق الى وقت مبينه من هذا القبيل ما كان يمكنهم ان يعارضوه
 به ، وكانوا لا يفتقرون الى تكلف وضعه وتعمل نظمه في الحال ، فلما لم
 احتجاجوا عليه بكلام سابق ، وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفه ، ونظم بديع ، ولا
 عارضوه به فقالوا هذا أفصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله ، علم انه لم يكن
 الى ذلك سبيل وانه لم يوجد له نظير ولو كان وجد له مثل لكان ينقل الينا
 ولعرفناه كما نقل الينا أشعار أهل الجاهلية وكلام الفصحاء والحكام من العرب
 وأدى الينا كلام السكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع

بلاغاتهم وصنوف فصاحتهم

قان قيل : الذي بنى عليه الامر في تثبيت معجزة القرآن انه وقع التحدي الى الاتيان بمنله وانهم عجزوا عنه بعد التحدي اليه ، فاذا نظر الناظر وعرف وجه النقل المتواتر في هذا الباب وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه ، وما ذكرتم يوجب ندقوت تأثير التحدي ، وان ما أتى به قد عرف المعجز عنه بكل حال

قيل : انما احتيج الى التحدي لاقامة الحجة واظهار وجه البرهان ، لان المعجزة اذا ظهرت فانما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه ، ولا تظهر على مدع لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله ، فاذا كان يظهر وجه الاعجاز فيها للكافة بالتحدي وجب فيها التحدي ، لأنه نزول بذلك الشبهة عن الكل وينكشف للجميع أن المعجز واقع عن المعارضة ، وإلا فان مقتضى ما قدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب ويتقن مصارف الكلام - وكان كاملاً في فصاحته جامعاً للمعرفة بوجوه الصناعة - لو أنه احتج عليه بالقرآن وقيل له ان الدلالة على النبوة والآية على الرسالة ما أتوه عليك منه لكان ذلك بلاغاً في إيجاب الحجة ، وتاماً في الزامه فرض المصير اليه . ومما يؤكد هذا أن النبي ﷺ قد دعا الآحاد الى الاسلام محتجاً عليهم بالقرآن - لانا نعلم انه لم يلزمهم تصديقه تقليداً ، ونعلم أن السابقين الأولين الى الاسلام لم يقلدوه وانما دخلوا على بصيرة - ولم نعلمه قال لهم ارجعوا الى جميع الفصحاء فان عجزوا عن الاتيان بمنله فقد ثبتت حجتى ، بل لما رأهم يعلمون اعجازهم أزمهم حكمه فقبلوه وتابوا الحق وبادروا اليه مستسلمين ولم يشكوا في صدقه ولم يرتابوا في وجه دلالته . فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ كان الى القبول منه أسبق ، ومن اشتبه عليه وجه الاعجاز واشتبه عليه بعض شروط

المعجزات وأدلة النبوات كان ابطلاً الى القبول حتى تكاملت أسبابه واجتمعت له بصيرته وترادفت عليه مواده . وهذا فصل يجب أن يتمم القول فيه بعد فليس هذا بموضع له

ويبين ما قلناه أن هذه الآية علم يلزم السكك قبوله والالتقياد له ، وقد علمنا تفاوت الناس في ادراكه ومعرفة وجه دلالة ، لان الاعجمي لا يعلم انه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه ، وهو يحتاج في معرفة ذلك الى أمور لا يحتاج اليها من كان من أهل صنعة الفصاحة ، فاذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه . وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة ، فربما حل في ذلك محل الأعجمي في أن لا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه ، وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل وحدها غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة ، فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بمعجز البارِع في هذه العلوم كلها عنه

فأما من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها اظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف اعجازه ، وان لم نقل ذلك أدنى هذا القول الى أن يقال ان النبي ﷺ لم يعرف اعجاز القرآن حين أوحى اليه حتى سبر الحال بمعجز أهل اللسان عنه ، وهذا خطأ من القول . فصح من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحى اليه القرآن عرف كونه معجزاً ، وبأن^(١) قيل له انه دلالة وعلم على نبوتك أنه كذلك ، من قبل ان يقرأه على غيره أو يتحدى

(١) كذا في المطبوعة ، وفي المخطوطة « كونه معجز أو بأن » وقبل كلمة « بأن » يابس يتسع لكلمة واحدة

إليه سوا. ولذلك قلنا ان المنتهى في الفصاحة والعلم بالاساليب التي يقع فيها التفاسيح متى سمع القرآن عرف انه معجز ، لانه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه ، ويعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه فيعلم ان عجز غيره كعجزه هو ، و ان كان يحتاج بعد هذا الى استدلال آخر على انه علم على نبوة ودلالة على رسالة بأن يقال له ان هذه آية لنبيه وانما ظهرت عليه وادعائها معجزة له وبرهاناً على صدقه

فان قيل فان من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه فكذلك البليغ ، وان علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره

قيل : هو مع مستقر العادة . وان عجز عن قول الشعر وعلم انه مفهم فانه يعلم ان الناس لا يتفكرون من وجود الشعراء فيهم . ومتى علم البليغ المنتهى في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره لانه كمو لانه (١) يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء ، اذ ليس في العادة مثل للقرآن يجوز او يعلم قدرة أحد من البلاء عليه ، فاذا لم يكن لذلك مثل في العادة - وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام وأنواع الخطاب ووجد القرآن مبايناً لها - علم خروجه عن العادة وجرى مجرى ما يعلم ان (٢) اخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات فهو لا يجوزه من نفسه وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره الا على وجه نقض العادة ، بل يرى وقوعه موقع المعجزة . وهذا وان كان يفارق فلق البحر واخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه ، وهو انه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه ، فكونه ناقضاً للعادة من غير تأمل

(١) كذا بالنسخين ، والاوفق أن تكون « ولا »

(٢) أفضل الصواب ما يعلم من أن

شديد ولا نظير بعيدة . فإن النظر في معرفة اعجاز القرآن يحتاج الى تأمل ويفتقر الى مراعاة مقدمات والكشف عن أمور نحن ذاكروها بعد هذا الموضوع . فكل واحد منها يؤول الى مثل حكم صاحبه في الجمع الذي قدمناه . ومما يبين [ذلك] ما قلناه من ان البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة يعرف اعجاز القرآن وتكون معرفته حجة عليه اذا تحدى اليه وعجز عن مثله وان لم ينتظر وقوع التحدي في غيره . وأما الذي يصنع ذلك الغير وهو ما روى في الحديث أن جبير بن مطعم ورد على النبي ﷺ في معنى^(١) حليف له أراد أن يفاديه فدخل والنبي ﷺ يقرأ سورة (٥٢ : ١ - ٢) « والطور وكتاب مسطور » في صلاة الفجر قال فلما انتهى الى قوله (٥٢ : ٧ - ٨) « ان عذاب ربك لواقع ما له من دافع » قال خشيت أن يدركني العذاب . فأسلم^(٢) وفي حديث آخر أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة طه فأسلم . وقد روى أن قوله عز وجل في أول حم السجدة الى قوله (٤١ : ٤) « فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة وأبي سفيان بن حرب وأبي جهل . وذكر أنهم يمشوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة الى النبي ﷺ ليكلمه وكان حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام وأرادوا أن يأتبهم بما عنده فقرأ النبي ﷺ سورة حم السجدة من أولها حتى انتهى الى قوله (٤١ : ١٣) « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فوثب مخافة العذاب ، فاستحكهه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد .

(١) المعنى : الأسير

(٢) في البخاري في آخر باب قصة غزوة بدر عن محمد بن جبير عن أبيه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المنزب بالطور وذلك أول ما قرأه في قبا . وذكر غيره في كتاب التفسير سورة الطور

فقال له عثمان بن مظعون : لتعلموا أنه من عند الله ، اذ لم يهتد لجوابه
وأبين من ذلك قول الله عز وجل (٩ : ٦) « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » فجعل سماعه حجة
عليه بنفسه فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه

فان قيل : لو كان على ما قلتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا
في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في اسلامهم عند سماعه

قيل : لا يجب ذلك ، لأن صوارفهم كانت كثيرة ، منها أنهم كانوا
يشكون : منهم من يشك في اثبات الصانع ، وفيهم من يشك في التوحيد ،
وفيهم من يشك في النبوة . ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء الى رسول
الله ﷺ ليسلم عام الفتح قال له النبي عليه السلام : أما آن لك أن تشهد أن
لا إله إلا الله ؟ قال : بلى . فشهد . قال : أما آن لك أن تشهد أني رسول الله ؟ قال
أما هذه في النفس منها شيء . فكانت وجوه شكوكهم مختلفة وطرق شبههم
متباينة : فمنهم من قلت شبهه وتأمل الحجة حق تأملها ولم يستكبر فأسلم ، ومنهم
من كثرت شبهه وأعرض عن تأمل الحجة حق تأملها أو لم يكن في البلاغة على
حدود النهاية فتناول عليه الزمان الى أن نظر واستبصر وراعى واعتبر ،
واحتاج الى أن يتأمل عجز غيره عن الاتيان بمثله فلذلك وقف أمره . ولو
كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة لتوافوا
الى القبول جملة واحدة

فان قيل : فكيف يعرف البليغ الذي وصفتموه اعجاز القرآن ؟ وما الوجه
الذي يتطرق به اليه والمنهاج الذي يسلكه حتى يقف به على جلية الأمر فيه ؟
قيل : هذا سبيله أن يفرد له فصل

فان قيل : فلم زعمتم أن البلاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على

صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وانما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف أو يمنعه من الاتيان بمثله ضرباً من المنع أو تقصردواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ، ويحصل ما قصده من ايجاب الحجية ، لان من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة

فالجواب أنه لو صح ذلك صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار ، وصح لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة . ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن . على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مها حظ من رتبة البلاغة فيه ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه أبلغ في الاعجوبة اذا صرفوا عن الاتيان بمثله ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه ، فكان يستغنى عن انزاله على النظم البديع واخرجه في المعرض الفصيح العجيب . على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدثوا اليه ولم تلزمهم حجته ، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفه ظاهر البطلان وفيه معنى آخر : وهو أن أهل الصنعة في هذا الشأن اذا سمعوا كلاماً مطعماً

لم يخف عليهم ولم يشبهه لديهم ، ومن كان متناهما في فصاحته لم يجز أن يطعم في مثل هذا القرآن بحال . فان قال صاحب السؤال انه قد يطعم في ذلك ، قيل له أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمي قد يضارع القرآن وقد يزيد

عليه في الفصاحة ولا يتحاشاه ، ويحسب أن ما ألف في الجزء والظفرة ^(١) هو أبداع وأغرب من القرآن لفظاً ومعنى ، ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدر في نفسه ويحسبه ظان من أمره ، والمرجوع في هذا الى جملة الفصحاء دون الآحاد . ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ وتميزه في ذلك عن سائر أجناس الخطاب ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بين الغلط ، وان هذا التقدير من جنس من حكى الله تعالى قوله في محكم كتابه (٧٤ : ١٨ - ٢٥) « إنه فكروقدّر ، فقنيل كيف قدر ، ثم قنيل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبّس وبّسر ، ثم أدبرّ واستكبر ، فقال إن هذا إلاّ سحرّ يؤثّر ، إن هذا إلاّ قول البشر » فهم يعبرون عن دعواهم - انهم يمكنهم أن يقولوا مثله - بأن ذلك من قول البشر ، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل الى الحد الذي يتجاوز امكان معارضته

وما يبطل ما ذكره من القول بالصرّفة انه لو كانت المعارضة ممكنة - وانما منع منها الصرّفة - لم يكن الكلام معجزاً ، وانما يكون المنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه . وليس هذا بأعجب مما ذهب اليه فريق منهم أن الكل قادرون على الاتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيبه لو تعلموه لوصلوا اليه به . ولا بأعجب من قول فريق منهم : انه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب ، وانه يصح من كل واحد منهما الاعجاز على حد واحد

فان قيل : فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالتوراة والانجيل والصحف ؟ قيل : ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف ، وان كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الاخبار بالغيوب . وانما لم

(١) في اللسطين « والظفرة » بالمجمة

يكن معجزاً لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ، ولأننا قد علمنا أنه لم يقع التحدي اليه كما وقع التحدي الى القرآن . ولمعنى آخر ، وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي الى حد الاعجاز ، ولكنه يتقارب . وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفارغ ما يتضمن التقديم العجيب . ويمكن بيان ذلك بأننا لانجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة [العربية] ، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية ، وكذلك التصرف في الاستعارات والاشارات ووجوه الاستعمالات البديعة التي يجي تفصيلها بعد هذا

ويشهد لذلك من القرآن أن الله تعالى وصفه بأنه « بلسانٍ عربيٍّ مبين » وكرر ذلك في مواضع كثيرة ، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجمياً ، فلو كان يمكن في لسان العجم ايراد مثل فصاحته ، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة . وانه وان كان يمكن أن يكون من فائدة قوله انه عربي مبين أنه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه الى الرجوع الى غيرهم ، ولا يحتاجون في تفسيره الى من سواهم ، فلا يمتنع أن يفيد ما قلنا أيضاً كما أفاد بظاهره ما قدمناه . ويبين ذلك أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة ، وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية ، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية . ومعنى آخر ، وهو اننا لم نجد أهل التوراة والانجيل ادعوا الاعجاز لكتابهم ، ولا ادعى لهم المسلمون ، فعلم أن الاعجاز مما يختص به القرآن . ويبين هذا أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية . وان كان قد يتفق منها حنف أو أصناف ضيقة ، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية .

و كذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية . فان قيل : فان المجوس تزعم أن كتاب زرادشت و كتاب ماني معجزان . قيل : الذي يتضمنه كتاب ماني من طريق النيرانجات و ضروب من الشعوذة ليس يقع فيها اعجاز . و يزعمون أن في الكتاب الحكيم ، وهي حكم منقولة متداولة على الألسن لا تختص بها أمة دون أمة ، وان كان بعضهم أكثر اهتماما بها و تحصيلا لها و جمعا لأبوابها . وقد ادعى قوم أن ابن المتفيع عارض القرآن ، و إنما فزعوا الى الدرّة اليتمية . و هما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى ؛ و الآخر في شيء من الديانات ، و قد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل . و كتابه الذي بيناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجهر في الحكمة فأبي صنع له في ذلك ، و أي فضيلة حازها فيما جاء به ؟ و بعد فليس يوجد له كتاب يدعي مدع أنه عارض فيه القرآن ، بل يزعمون أنه اشتغل بفلك مدة ثم مزق ما جمع ، و استحيا لنفسه من اظهاره . فان كان كذلك فقد أصاب و أبصر النصد ، و لا يمتنع أن يشبه عليه الحال في الابتداء ثم يلوح له رشده و يتبين له أمره و ينكشف له عجزه . ولو كان بقي على اشتباه الحل عليه لم يخف علينا موضع غفلته و لم يشبهه لدينا وجه شبهته ، و متى أمكن أن تدعى الفرس في شيء من كتبهم أنه معجز في حسن تأليفه و عجيب نظمه ؟



فصل

﴿ في جملة وجوه اعجاز القرآن ﴾

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الاعجاز :
 أحدها يتضمن الاخبار عن الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل
 لهم اليه . فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على
 الأديان بقوله عز وجل (٩ : ٣٣) « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق
 ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ففعل ذلك . وكان أبو بكر
 الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من اظهار دينه
 لينتقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل
 كذلك في أيامه حتى وقف أصحاب جيوشه عليه ، فكان سعد بن أبي وقاص
 رحمه الله وغيره من امراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لاصحابه ويحرضهم
 به ويوثق لهم ، وكانوا يلقون الظفر في مِوَجِّهاتهم ، حتى فتح الى آخر أيام عمر
 رضي الله عنه الى بلخ وبلاد الهند ، وفتح في أيامه مرو والشاهجان ومر و الروذ
 ومنعهم من العبور بجيحون ، وكذلك فتح في أيامه فارس الى اصطخر وكرمان
 ومكران وسجستان وجميع ما كان من مملكة كسرى وكل ما كان يملكه
 ملوك الفرس بين البحرين من الفرات الى جيحون ، وأزال ملك ملوك الفرس
 فلم يعد الى اليوم ولن يعود أبداً ان شاء الله تعالى ^(١) ثم الى حدود إزمينية والى
 باب الابواب . وفتح أيضاً ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر وأزال
 ملك قيصر عنها وذلك من الفرات الى بحر مصر وهو ملك قيصر . وغزت
 انطليول في أيامه الى عمورية ، فأخذ الضواحي كلها ولم يبق دونها الا ما حجز

(١) أي ان يمود من سلطان الاسلام الى سلطان الجوسية

دونه بحر أو حال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة . وقال الله عز وجل (٣ : ١٢) « قل للذين كفروا سَتُعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ الى جَهَنَّمَ وبئس المهاد » فصدق فيه ؛ وقال في أهل بدر (٧ : ٨) « وإذ يهدى لكم الله الطائفتين أنها لكم » ووفى لهم بما وعد . وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الاخبار عن الغيوب يكثر جداً وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على السكل

والوجه الثاني أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ انه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ (١) ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبأهم وسيرهم ، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الامور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه ، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام وابتداء خلقه وما صار اليه أمره من الخروج من الجنة ، ثم جملاً من أمر ولده وأحواله وتوابعه ، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى اليه أمره ، وكذلك أمر ابراهيم عليه السلام ، الى ذكر سائر الانبياء المذكورين في القرآن والمالوك والفرعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء صلوات الله عليهم . ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه الا عن تعلم ، واذ كان معروفاً أنه لم يكن مُلابساً لأهل الآثار وحمله الاخبار ولا متردداً الى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه ، علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحي ولذلك قال عز وجل (٢٩ : ٤٨) « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه

(١) فهم بعض من لا يحسن الفهم من هذا التعبير أنه كان صلى الله عليه وسلم يقرأ غير أنه لا يحسن القراءة . وفهم من قول الطبري في عمرة المدينة عند كتابة الكتاب ج ٣ ص ٨٠ « وليس يحسن يكتب » أنه كان يكتب ولكن لا يحسن ، وهذا الفهم خطأ نشأ من عدم فهم أساليب العربية وآداب الكتابة .

بهمينك إذ آراتاب الممطلون » وقال (٦ : ١٠٥) « وكذلك نُصِرَف الآيات
 وليقولوا دَرَسْت » وقد بينا أن من كان يختلف الى تعلم علم ويشتغل بملاسة
 أهل صنعة لم يخف على الناس أمره ولم يختلف عندهم مذهبه ، وقد كان يعرف
 فيهم من يحسن هذا العلم وان كان نادراً ، وكذلك كان يعرف من يختلف اليه
 للتعليم ، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومتعلمها ، فلو كانت منهم لم
 يخف أمره

والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متمم في البلاغة الى الحد
 الذي يُعَلِّم عجز الخلق عنه ؛ والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن
 نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها
 فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للاعجاز وجوه :

منها ما يرجع الى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوه
 واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للألوف من
 ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام
 المعتاد ، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى
 أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى
 ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم
 الى ما يرسل ارسالا فنطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني المعترضة على وجه
 بديع وترتيب لطيف وان لم يكن معتدلا في وزنه ، وذلك شبيهة بجملة الكلام
 الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه
 ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب المسجع
 ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لان من الناس من زعم أنه
 كلام مسجع ، ومنهم من يدعي ان فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم يذكرون

بعد هذا الموضع . فمنا اذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم
 وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة وأنه معجز ، وهذه خصوصية (١)
 ترجع الى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه (٢)

ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصريف
 البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة
 والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر . وانما تنسب الى حكيمهم
 كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد
 هذا من الاختلال ، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ، ويقع فيها ما نبديه
 من التمثل والتشكف والتجوز والتعسف . وقد حصل القرآن على كثرة
 وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل (٣٩ : ٢٣)
 « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون
 ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » (٤ : ٨٢) « ولو كان من عند
 غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . فأخبر أن كلام الآدمي ان امتد وقع
 فيه التفاوت وبان عليه الاختلال ، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي
 بدأنا بذكره ، فتأمله تعرف الفضل

وفي ذلك معنى ثالث (٣) ، وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت
 ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص
 ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعذار وانذار ووعد ووعيد وتبشير
 ونحويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة ، وغير ذلك

(١) يفتح الحاء وضما قالوا والفتح أنصح كقولهم لمن بين الأصوصية بفتح اللام

(٢) أي من وجوه الاعجاز

(٣) هذا هو الوجه الثالث من وجوه الاعجاز

من الوجوه التي يشتمل عليها . ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب
المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور

فن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون
المدح ، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التابين ، ومنهم من يجود في التابين
دون التقريظ ، ومنهم من يغرب في وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف
الحرب أو وصف الروض أو وصف الحجر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه
الشعر ويتداوله الكلام ، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس اذا ركب ، والنابغة
اذا رهب ، وبزهير اذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر
أجناس الكلام . ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على
حسب الاحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى ، فاذا جاء
الى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره ، ولذلك ضرب
المثل بالذين سميتهم لانه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ، ولا شك في
تبريزهم في مذهب النظم . فاذا كان الاختلال بينا في شعرهم لا اختلاف ما يتصرفون
فيه استغنيا^(١) عن ذكر من هو دونهم ، وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا
في الخطب والرسائل ونحوها . ثم نجد في الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه
نظم القصيد أصلا ، ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مها تكلفه أو
عمله ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص
نقصانا عجيبا ، ومنهم من يوجد بضد ذلك

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قد منا
ذكرها على حد واحد ، في حسن النظم وبديع التأليف والرصف ، لاتفاوت
فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد

(١) كان في الاصل « واستغنيا »

تأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فأينما الاعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف . وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة . فأينما غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ، فعلنا بذلك انه مما لا يقدر عليه البشر لان الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تبين الوجوه واختلاف الاسباب التي يتضمن

ومعنى رابع وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيننا في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ، ألا ترى ان كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه ، حتى ان أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسب الى المدح ، وأطبغوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء وانما اتفق له - في مواضع معدودة - خروج برضى وتنقل يستحسن . وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء الى شيء والتحول من باب الى باب . ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على أن القرآن - على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف كالمؤلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الافراد الى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ، ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف

ومعنى خامس وهو أن نظم القرآن وقع موقفاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الانس والجن ، فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كمجزنا ويقصرون دونه كقصورنا ، وقد قال الله عز وجل ١٧ : ٨٨ « قل لمن اجتمعت الانس والجن

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .
 فان قيل : هذه دعوى منكم وذلك أنه لا سبيل لنا الى أن نعلم عجز الجن عن
 مثله ، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الاتيان بمثله وان كنا عاجزين ، كما
 أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة وأسباب غامضة دقيقة لا تقدر نحن عليها ،
 ولا سبيل لنا للطفها اليها ، واذا كان كذلك لم يكن الى علم ما ادعيتم سبيل .
 قيل : قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل . وقد يمكن أن يقال ان هذا
 الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن وما يروون لهم من
 الشعر ويحكون عنهم من الكلام ، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول
 عنهم ، والقدر الذي نقلوه قد تأملناه فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة
 الانس ولعله يقصر عنها ، ولا يمتنع أن يسمع الناس كلامهم ويقع بينهم وبينهم
 محاورات في عهد الانبياء صلوات الله عليهم ، وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه
 وجود ما ينقض العادات . على أن القوم الى الآن يعتقدون مخاطبة الغيлян
 ولهم أشعار محفوظة مروية في دواوينهم . قل تأبط شرا (١) :

وأدهم قد جئت جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيلعلا (٢)

(١) أنتد ابن بري البيت الاول لحاجز السروي الامس غير أن المحفوظ أنها لتأبط شرا
 ثابت بن جابر من بني قهم وهو جاهلي :

قول سليبي	لجاراتها	أرى ثابتا قد غدا مرلا
لها الويل ما وجدت ثابتا	ألف اليدير ولا زملا	
ولا رعش الساق عند الجرا	إذا بادر الحمة الهبصلا	
يفوت الجياد بتقريبه	ويكسو هواديه القسطلا	

(٢) وأدهم يريد الليل . نص اصحاب كتاب اللغة على معنى اجتابت القبع من لبسه ودخل فيه
 ولم يذكروا لفظ جبت القبعين أو العلام أي لبسته ودحات فيه وهو هنا بهذا المعنى والخيلعلا
 قبيل لأكبي له

الى أن حدا الصبحُ أتناهه ومزقَ جلبابه الأيسلا (١)
 على شيمٍ نارٍ تنورُها فبت لها مديرا مقبلا (٢)
 فأصبحت والغول لى جارة وطالبتها بضعا ، فالتوت
 فمن سال أين نوت جارتى بوجه تهول واستغولا (٣)
 وكنتُ اذا ما هممت اعتره فان لها باللوى منزلا
 وقال آخر
 عشوا نارى فقلت ممنون أنتم فقالوا الجنُّ قلت عموا ظلما
 فتمت الى الطعام فقال منهم زعيم يحسد الانس الطعاما
 ويذكرون لامريء القيس قصيدة مع عمرو الجنى وأشعارا لها كرهننا
 ذكرها لطولها . وقال عبيد بن أيوب (٤) .
 فله درُ الغول أي رفيقة لصاحب قفر خائف يتقفر (٥)

(١) حدا : ساق . وأتناه جمع نبي على وزن حمل من قولك مضى نبي من الليل أي ساعة وقت . وليل أليل شديد الظلمة

(٢) الشيم النظر الى النار وتنورت النار من بعيد تبهرتها
 (٣) البضع جمع بضعة كشمرة وشمرة وهي انفضة من اللحم . وتهول صار هولة من الهول يلزع منه . وتفوت الغول واستغولت تلونت وتنجبت . وبرى عجز هذا البيت « فكان من الرأى أن تقبلا » وبرى ببدنه :

عظاية أرض لها حائنا ن من ورق الطلع لم تنزلا
 فمن كان يسأل عن جارتى ... الخ

(٤) عبيد بن أيوب بن ضرار وكنيته أبو المطراد أحد بني المنبر بن عمرو بن نمير . وكان لصا فأنسكا يقطع الطريق هو والاحير السعدي سعد بن زيد مناة بن نمير ما بين البصرة والحجاز وكثيرا ما يذكر النول في شعره انظر الحيوان للعاجظ ج ٥ ص ٤٢ وج ٦ ص ٤٨ و ٥٠ و ٥١ . وفي ص ٧٣ منه ثلاثة أبيات على الدين لم ينسها وهي له
 (٥) كانت في الاصل « متقفر » على الاقواء . والرواية في الحاشية البهرية وفي الحيوان للعاجظ « يتقفر » والنصيدة كلها مرفوعة الروي

أرنت بلحن بعدلحن وأوقدت
وقال ذو الرمة بعد قوله :

قد أعسف النازح المجهول معسفه
للجن بالليل في حافتها زجل
دوية ودجى ليل كأنهما
وقل أيضاً :

وكم عرست بعد الدرى من معرس
به من كلام الجن أصوات سامر^(٤)
وقال .

ورمل عريف الجن في عقباته
هزيز كتضراب الغنين بالطبل^(٥)

وإذا كان القوم بمتقدون كلام الجن ومخاطباتهم ويجكون عنهم ، وذلك
القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب ، صبح ما وصف عندهم من عجزهم
عنه كعجز الأُس . وبين ذلك من القرآن أن الله تعالى حكى عن الجن
ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال (٤٦ : ٢٩) « واذ صرفنا إليك نفراً من الجن

(١) المسف ركوبك الامر بلا تدبر ولا روية . والنازح المجهول يريد فلاة . في ظل
أخضر : يريد الليل . وأخضر أسود . وبروح في ظل أخضر دليل أخضر ألبس ظلامه .
والهام أنى اليوم واليوم خاص بالذكر على الاكثر ودعاء اليوم هامة معروف في شعر العرب ،
فن ذلك قوله بزبد بن مفرغ الحميري

وشريت برداً ليغني
من بعد برد كنت هامة
هتافة تدعو صدى
بين المشقر واليهامة

واستشهد صاحب الاسان بهذا البيت في ترجمة (خضر) على قولهم أنا منه في أمر أخضر
أي جديد غض . وبأن مما شرحنا به البيت أنه لا يصح هذا الاستشهاد
(٢) زجل جلبة . تناوح تضطرب وتمتز . والميشوم نصب دقائق طوال كالاسل تتخذ منه
الحصر المصيفة الرقيقة

(٣) الدوبة المنازة . والدجى جمع دجبة على وزن جلة وهي الظلمة

(٤) كانت في الاصل « بعد الذوى من معرس لها » وصحفتها من نسخة الديوان
بخطوطه بدار الكتب المصرية . والسامر التوم يسمرون

(٥) هزيز الجن صوتها . والمعقة جبل صعب يمترض الطريق فيأخذ فيه . وهزيز يدوي دوي

يستمعون القرآنَ فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما نُفِىَ وَتَوَا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ»
الى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه . فاذا ثبت أنه وصف كلامهم ، ووافق ما يعتقدونه
من نقل خطابهم ، صح أن يوصف الشيء المألوف بأنه ينحط عن درجة القرآن
في الفصاحة

وهذان الجوابان أسدّ عندى من جواب بعض المتكلمين عنه بأن عجز
الانس عن القرآن يثبت له حكم الاعجاز فلا يعتبر غيره . ألا ترى أنه لو
عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه فقال لنا قائل فدأوا على أن الملائكة
تعجز عن الاتيان بمثله لم يكن لنا في الجواب غير هذه الطريقة التي قد بيناها .
وأما ضعفنا هذا الجواب لان الذي حكى وذكر عجز الجن والانس عن الاتيان
بمثله ، فيجب أن نعلم عجز الجن عنه كما علمنا عجز الانس عنه ، ولو كان وصف
عجز الملائكة عنه لوجب أن نعرف ذلك أيضاً بطريقه

فان قيل : أنتم قد انتهيتم الى ذكر الاعجاز في التفاصيل وهذا الفصل إنما
يدل على الاعجاز في الجملة . قيل : هذا كما أنه يدل على الجملة فانه يدل على
التفصيل أيضاً ، فصح أن يلحق هذا القبيل كما كان يصح أن يلحق بباب الجمل
ومعنى سادس وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب ، من البسط والاقتصار ،
والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والنحو والتحقيق ، ونحو ذلك
من الوجوه التي توجد في كلامهم ، موجود في القرآن . وكل ذلك مما يتجاوز
حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والابداع والبلاغة . وقد ضمنا بيان
ذلك بعد لان الوجه هنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل

ومعنى سابع وهو أن المعاني التي تتضمن في أصل وضع الشريعة والاحكام
والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين تلى تلك الالفاظ البديعة
وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، ويمنع ذلك

أنه قد علم أن تخيير الالفاظ للمعاني المتداولة المألوفة ، والاسباب الدائرة بين الناس ، أسهل وأقرب من تخيير الالفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان اللفظ وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر والامر المتقرر المتصور ، ثم انضاف الى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه ، بأن التفاضل في البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الالفاظ وفق المعنى والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم

ومعنى تامن وهو أن الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته ، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر ، فناخذة الاسماع وتشوف اليه النفوس ، ويرى وجه رونقه باديا غامراً سائر ما يقرب به ، كالدررة التي ترى في سلك من خرز ، وكالياقوتة في واسطة العقد . وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جيمه ، وواسطه عقده ، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصسه برونقه وجماله ، واعتراضه في جنسه ومائه ، وهذا الفصل أيضاً مما يحتاج فيه الى تفصيل وشرح ونص ليتحقق ما ادعينا منه ، ولولا هذه الوجوه التي بينها لم يتجبر فيه أهل الفصاحة ، وكانوا يفرعون الى العمل للمقابلة ، والتصنع للمعارضة ، وكانوا ينظرون في أمرهم ، ويراجعون أنفسهم ، أو كان يراجع بعضهم بعضاً في معارضته ويتوقفون لها . فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ، علم ان أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الامور لعلمهم بعجزهم عنه ، وقصور فصاحتهم دونه . ولا يمتنع ان يلبس - على من لم يكن بارعا فيهم ولا متقدماً في الفصاحة منهم - هذا الحال حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل ، وحتى يعرف حال عجز غيره . الا

أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم ساموا ولم يشتغلوا بذلك ، تحققا بظهور العجز وتبيناله . وأما قوله تعالى حكاية عنهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم ، وقد يمكن أن يكون هذا الكلام أما خرج منهم ، وهو يدل على عجزهم . ولذلك أوردته الله مورد تقيعهم ، لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد الى الانجاز ، والضمان الى الوفاء ، فلما لم يستعملوا ذلك - مع استمرار التحدّي وتطول زمان الفسحة في اقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه - علم عجزهم ، اذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط . ومعلوم من حالهم وحميتهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات والموام والحيات وفي وصف الازمة والأنساع والامور التي لا يؤبه لها ولا يحتاج اليها ، ويتنافسون في ذلك أشد التنافس ، ويتبجحون به أشد التبجح ، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته في هذه المعاني الفسيحة ، والعبارات الفصيحة ، مع تضمن المعارضة تكذيبه ، والذب عن أديانهم القديمة ، واخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم ، وتضليله اياهم ، والتخلص من مازعته ، ثم من محاربتة ومقارعتة ، ثم لا يفعلون شيئا من ذلك ، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل ، ويعلمونها بالباطيل

ومعنى تاسع وهو أن الحروف التي بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا ، وعدد السور التي افتتح فيها بذلك الحروف ثمان وعشرون سورة ، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا ، ليدل بالمدكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم . والذي تنقسم اليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوها أقسام نحن ذاكرها

فمن ذلك أنهم قسموها الى حروف مهموسة وأخرى مجهورة . فالمهموسة منها عشرة . وهي : (الحاء) و (الهاء) و (الخاء) و (الكاف) و (الشين) و (الناء) و (الفاء) و (التاء) و (الصاد) و (السين) ، وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة . وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور ، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لازيادة ولا نقصان . و (المجهور) معناه أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ، و (المهموس) كل حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس . وذلك مما يحتاج الى معرفته لتبنتي عليه أصول العربية

وكذلك مما يقسمون اليه الحروف يقولون انها على ضربين : أحدها حروف الخلق وهي ستة أحرف (العين) و (الخاء) و (الهمزة) و (الهاء) و (الحاء) و (الغين) والنصف من هذه الحروف مذكور في جملة الحروف التي تشمل عليها الحروف المبينة في أوائل السور ، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الخلق

وكذلك تنقسم هذه الحروف الى قسمين آخرين : أحدهما حروف غير شديدة ، والى الحروف الشديدة وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه ، وهي (الهمزة) و (القاف) و (الكاف) و (الجيم) و (الظاء) و (الذال) و (الزايم) و (الباء) . وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضاً هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بنى عليها تلك السور . ومن ذلك الحروف المطبقة ، وهي أربعة أحرف وما سواها مفتوحة ، فالمطبقة (الطاء) و (الظاء) و (الصاد) و (الضاد) وقد علمنا أن نصف هذه في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور

وإذا كان القوم - الذين قسموا في الحروف هذه الاقسام لاغراض لهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ - رأوا (١) مباني اللسان على هذه الجهة ، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التنصيف الذي وصفنا ، دل على أن وقوعها الموضع الذي يقع التواضع عليه - بعد العهد الطويل - لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجل ، لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب ، وإن كان إنما نبهوا (٢) على ما نبى عليه اللسان في أصله ولم يكن لهم في التقسيم شيء ، وإنما التأنير لمن وضع أصل اللسان . فذلك أيضاً من الباطن الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان ، فإن كان أصل اللغة توقيفاً فالامر في ذلك أبين ، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً ، لأنه لا يصح أن تجتمع همهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى . وكل ذلك يوجب اثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الاعجاز من وجه ، وقد يمكن ان تعاد فاتحة كل سورة لفائدة نخسها في النظم اذا كانت حروفاً كنجو (آم) ، لان الالف المبدوء بها هي أقصاها مطالعاً ، واللام متوسطة ، والميم متطرفة لانها تأخذ في الشفة ، فبهذا على غيرها من الحروف ، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم بما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين . ويشبه ان يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الالف لان الالف قد تلغى وقد تقع المهمزة وهي موقعا واحداً

ومعنى عاشر وهو أنه سهل سبيله فهو خارج عن الوحشي المستكره ، والغريب المستفكر ، وعن الصنعة المتكلمة ، وجعله قريباً الى الافهام يبادر معناه لفظه الى

(١) في الاصل (ورأوا) غير ان سياق الكلام يقتضي حذف الواو فيكون « واذا كان القوم ... رأوا مباني اللسان على هذه الجهة ... دل ذلك على أن »
 (٢) في المخطوطة « شبهوا »

القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس . وهو مع ذلك ممتنع المطلب
عسير المتناول ، غير مطمع مع قربه في نفسه ولا موهم مع ذنوه في موقعه أن يقدر
عليه أو يظفر به . فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبتدل
والقول المسفسف ، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمتع
أو يوضع فيه الاعجاز . ولكن لو وضع في وحشي مستكره ، أو غمر بوجوه
الصنعة وأطبق بأبواب التعسف والتكلف ، لكان لقائل أن يقول فيه ويمتد
ويغيب ويقرع . ولكنه أوضح مناره وقرب منهاجه وسهل سبيله وجعله في
ذلك متشابها متماثلا ، وبين مع ذلك اعجازهم فيه . وقد علمت أن كلام فصحاءهم
وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف في غريب مستنكر ، أو وحشي مستكره ،
ومعان مستبعدة . ثم عدوهم الى كلام مبتدل وضع لا يوجد دونه في الرتبة ، ثم
تحولهم الى كلام معتدل بين الامرين متصرف بين المنزلتين . فمن شاء ان
ينتحق هذا نظر في قصيدة امريء القيس

• قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل •

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف اليه هذه القصيدة
ونظائر ها ومنزلتها من البلاغة ، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها على وجه
يؤخذ باليد ، ويتناول من كتب ، ويتصور في النفس كتصور الاشكال ، لبيان
ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن

واعلم ان من قال من أصحابنا ان الاحكام معللة بلبل موافقة مقتضى العقل ؛
جعل هذا وجها من وجوه الاعجاز ، وجعل هذه الطريقة دلالة فيه كنجو ما
يعلمون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها ، ولهم في كثير من تلك العليل طرق
غريبة ووجوه تستحسن . وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك ،
ولكن الأصل الذي يبنون عليه ، عندنا غير مستقيم . وفي ذلك كلام يأتي في

كتابنا في الاصول

وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من المعاني الزيادة والافراد ، فانا جمعنا بين أمور وذكرنا المزية المتعلقة بها وكل واحد من تلك الامور مما قد يمكن اعتماده في اظهار الاعجاز فيه

فان قيل : فهل تزعمون أنه معجز لانه حكاية لكلام القديم سبحانه ، أو لانه عبارة عنه ، أو لانه قديم في نفسه ؟ قيل : لسنا نقول بأن الحروف قديمة ، فكيف يصح التركيب على الفاسد ؟ ولا نقول أيضاً ان وجه الاعجاز في نظم القرآن انه حكاية عن الكلام القديم ، لانه لو كان كذلك لكانت التوراة والانجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل معجزات في النظم والتأليف ، وقد بينا ان اعجازها في غير ذلك ، وكذلك كان يجب ان تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومنفردها ، وقد ثبت خلاف ذلك



فصل

﴿ في شرح ما بينا من وجوه اعجاز القرآن ﴾

فأما الفصل الذي بدأنا بذكره ^(١) من الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة في ذلك كله ، فهو كقوله تعالى (٤٨ : ١٦) « قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ فِي مَا رَكِبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاغْرَمْ فِيهِمُ ابْنُوا عِيَالَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ وَاسْتَفْتِهِمْ » وكقوله (٣٠ : ١ - ٤) « أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ » وراهن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك وصدق الله وعده . وكقوله في قصة أهل بدر (٥٤ : ٤٥) « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » وكقوله (٤٨ : ٢٧) « لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُومَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » وكقوله (٨ : ٧) « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » في قصة أهل بدر وكقوله (٢٤ : ٥٥) « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَيُؤَيِّدَنَّاهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمِنَّا » وصدق الله تعالى وعده في كل ذلك . وقال في قصة المتخلفين عنه في غزوته (٩ : ٨٣) « لَنْ نَخْرُجَوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تَقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » فحق ذلك كله وصدق ولم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد . وكقوله (٩ : ٣٣) « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » وكقوله (٣ : ٦٠) « قَاتِلُوا كُفْرًا تَتَّقُوا اللَّهَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » وصدق الله تعالى وعده في كل ذلك . وقال في قصة الكافرين (٣ : ٦٠) « قَاتِلُوا كُفْرًا تَتَّقُوا اللَّهَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » وصدق الله تعالى وعده في كل ذلك . وقال في قصة الكافرين (٣ : ٦٠) « قَاتِلُوا كُفْرًا تَتَّقُوا اللَّهَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » وصدق الله تعالى وعده في كل ذلك .

أجابوا اليها اضطربت عليهم الأودية نارا على ما ذكر في الخبر . وكقوله (٢ : ٩٤ - ٩٥) « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » ولو تمنوه لوقع بهم . فهذا وما أشبهه فصل

وأما الوجه الثاني الذي ذكرناه ^(١) من اخباره عن قصص الاولين وسير المتقدمين ، فمن العجيب الممتع على من لم يقف على الاخبار ولم يشتغل بدرس الآثار . وقد حكى في القرآن تلك الامور حكاية من شهدها وحضرها ، ولذلك قال الله تعالى (٢٩ : ٤٨) « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون » وقال (٢٨ : ٤٤) « وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين » وقال (٢٨ : ٤٦) « وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتندر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك » فبين وجه دلالته من اخباره بهذه الامور الغائبة السالفة . وقال (١١ : ٤٩) « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » الآية

فأما الكلام في الوجه الثالث وهو الذي بيناه ^(٢) من الاعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف ، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوها منها : انا قلنا انه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ، ومباين لاساليب خطابهم . ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى ، لان قوما من كفار قريش ادعوا انه شعر ، ومن الملحمة من يزعم أن فيه شعرا ، ومن أهل الملة من يقول انه كلام مسجع الا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ، ومنهم من يدعي انه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن اصناف ما يتعارفونه من الخطاب

فصل

﴿ في نفي الشعر من القرآن ﴾

قد علمنا أن الله تعالى نفي الشعر من القرآن ومن النبي ﷺ فقال
 (٣٦ : ٦٩) « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين »
 وقال في ذم الشعراء (٢٢٤ : ٢٢٥ - ٢٢٦) « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر انهم
 في كل واد يهيمون » الى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات فقال (٦٩ : ٤١)
 « وما هو بقول شاعر » وهذا يدل على ان ما حكاه عن الكفار من قولهم
 انه شاعر ، وان هذا شعر ، لا بد من أن يكون محمولا على انهم نسبوه في
 القرآن الى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الاعاريض
 المحصورة المألوفة ، أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكماهم
 وأهل الفطنة منهم في وصفهم اياهم بالشعر ، لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق
 لهم في المنطق ، وان كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة ،
 أو يكون محمولا على انه أطلق عن بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر ،
 وهذا أبعد الاحتمالات فان حمل على الوجهين الاولين كان ما أطلقوه صحيحا ،
 وذلك ان الشاعر يظن لما لا يظن له غيره ، واذا قدر على صنعة الشعر كان
 على مادونه - في رأيهم وعندهم - أقدر ، فنسبوه الى ذلك لهذا السبب . فان
 زعم زاعم أنه قد وجد في القرآن شعرا كثيراً فمن ذلك ما يزعمون انه بيت
 تام أو أبيات تامة ومنه ما يزعمون انه مصراع كقول القائل .
 قد قلت لما حاولوا سلوتي (هيات هيات لما توعدون) (٢٣ : ٣٦)
 وما يزعمون انه بيت قوله (٣٤ : ١٣) . « وجفان كالجواب وقبور

راسيات « قالوا هو من الرمل من البحر الذي قيل فيه :
 ساكنُ الریح نطو فُ المزنِ مُنحَلُّ العزالي (١)
 وكقوله (٣٥ : ١٨) « من تزكى فأما يتزى لنفسه » كقول الشاعر من
 بحر الخفيف :

كل يوم بشمسه وغدئ مثل أمسه
 وكقوله عز وجل (٦٥ : ٢-٣) « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه
 من حيث لا يحتسب » قالوا هو من المنقارب. وكقوله (٧٦ : ١٤) « ودانية
 عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذيلا » ويشبعون حركة الميم فيزعمون انه من
 الرجز. وذكر عن أبي نواس انه ضمن ذلك شعرا وهو قوله :

وفية في مجلس وجوهم ريحانهم قد عدموا التنقيلا
 دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذيلا
 وقوله عز وجل (٩ : ١٤) « ويخزهم وينصرهم كما عليهم ويشف صدور قوم
 مؤمنين » زعموا انه من الوافر كقول الشاعر (٢) :

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جاتها عصى (٣)
 وكقوله عز وجل (١٠٧ : ١-٢) « أرايت الذي يكذب بالدين فذلك
 الذي يدع اليتيم » ضمنه أبو نواس في شعره ففصل وقال « فذاك الذي »
 وشعره .

وقرأ معلنا ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد السقيا

- (١) بصف سحابة . تطوف : تطور ، تطر حتى الصباح . والعزالي : جمع عزلاء وهو
 مصب الماء من الراوية والقربة في اسفها
 (٢) امرؤ النيس الكندي
 (٣) غزار : غزيرة البانها . وجلة الابل مسانها جمع جليل مثل صبي وصبية . ورواية صدر
 البيت المشهورة « ألا ان لم تكن ابل فزرى »

أرأيت الذي يكذب بالذي من فذلك الذي يدعُ اليقينا
وهذا من الخفيف كتقول الشاعر :

وفؤادي كعهده بسليعي بهوى لم يحل ولم يتغير
وكما ضمنه في شعره من قوله (٤٣ : ١٣) :

سبحان (من) سخر هذا لنا (حقاً) وما كنا له مقرنين

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر وكما يقولونه في قوله عز وجل (١٠٠ : ١-٢)
« والعاديات ضبِحاً فالموريات قدحا » ونحو ذلك في القرآن كثير كقوله (٥١ :
١-٣) « والذاريات دُزواً فالخاملات وقرأاً فالجاريات بسراً » وهو عندهم
شعر من بحر البسيط

والجواب عن هذه الدعوى التي ادعواها من وجود : أولها ، ان الفصحاء
منهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعراً ولم يروه خارجاً عن
أساليب كلامهم لبادروا الى معارضته ، لان الشعر مسخر لهم مسهل عليهم لهم
فيه ما قد علمت من التصرف العجيب والاعتدال اللطيف ، فلما لم نرهم اشتغلوا
بذلك ولا عولوا عليه علم انهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة
والمرمى مدون في هذا الشأن (١) ، وان استدراك من يجي ، الآن على فصحاء
قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغاتهم وخطباتهم ، وزعمه انه قد
ظفر بشعر في القرآن ذهب أولئك النفر عنه وخفى عليهم مع شدة حاجتهم
الى الطعن في القرآن والغرض منه والتوصل الى تكذيبه بكل ما قدروا عليه ،
لان (٢) يجوز أن يخفى على أولئك وان يجبلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل
حقيق . اذا كان كذلك علم أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال شديد (٣)

(١) أرمم الرجل جهد وانقصر

(٢) في الاصل (فان) وبها لا يصعب المعنى ولا الكلام ، وندم خبر « وان استدراك »

(٣) « شديد في الاصل »

وهو انهم قالوا : ان البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا ، والى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الاسلام . وقالوا أيضاً : ان ما كان على وزن بيتين الا انه يختلف رويهما وقافيتهما فليس شعر . ثم منهم من قال : ان الرجز ليس بشعر أصلا لاسيما اذا كان مشطورا أو منهوكا ، وكذلك ما كان يقارنه في قلة الاجزاء . وعلى هذا يسقط السؤال . ثم يقولون : ان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذي يعتمد وبسلك ، ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء دون ما يستوي فيه العامى والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر ، لانه لو صح ان يسمى [شاعراً] كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتنزه بوزن الشعر ، أو تنتظم انتظام بعض الأعراب ، كان الناس كلهم شعراء . لان كل متكلم لا ينفك من ان يعرض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يتنزه بوزن الشعر وينتظم انتظامه . ألا ترى ان العامى قد يقول لصاحبه « أغلق الباب وانثني بالطعام » ويقول الرجل لأصحابه « اكرموا من لقيتم من تميم » ومتى تتبع الانسان هذا عرف انه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه . وهذا القدر الذي يصح فيه التوارد ليس بعدة أهل الصناعة سرفعة اذ لم تعلم فيه حقيقة الأخذ ، كقول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبى عليّ مطيهم يقولون لاتهلك أسى ونجم
وكقول طرفة :

وقوفاً بها صحبى عليّ مطيهم يقولون لاتهلك أسى ونجم

ومثل هذا كثير . فاذا صح مثل ذلك في بعض البيت ولم يمتنع التوارد فيه فكذلك لا يمتنع وقوعه في الكلام المنشور اتفاقاً غير مقصود اليه ، فاذا اتفق لم يكن ذلك شعرا ، وكذلك يمتنع التوارد على بيتين وكذلك يمتنع في الكلام

المنثور وقوع البيتين ونحوهما . فثبت بهذا ان ما وقع هذا الموقع لم يعد شعراً^١ وإنما يعدُّ شعراً ما اذا قصده صاحبه تأتئ له ولم يمتنع عليه ، فاذا كان هو مع قصده لا يتأتئ له وإنما يعرض في كلامه عن غير قصد اليه لم يصح ان يقال انه شعر ولا ان صاحبه شاعر ، ولا يصح ان يقال ان هذا يوجب ان مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب ان يكون شعراً ، لانه لو قصده لكان يتأتئ منه . وإنما لم يصح ذلك لان ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعراً من أحد وما كان شعراً من أحد من الناس كان شعراً من كل أحد . ألا ترى أن السوقي قد يقول « اسقني الماء يا غلام سرّيعا » وقد يتفق ذلك من الساهي ومن لا يقصد النظم . فأما الشعر اذا بلغ الحد الذي بيننا فلا يصح ان يقع الا من قاصد اليه . وأما الرجز فانه يعرض في كلام العوام كثيراً فاذا كان بيتاً واحداً فليس ذلك بشعر . وقد قيل : ان أقل ما يكون منه شعراً أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها ولم يتفق ذلك في القرآن بحال ، فأما دون أربعة أبيات منه أو ما يجري مجراه في قلة الكلمات فليس بشعر وما اتفق في ذلك من القرآن مختلف الروي ، ويقولون . انه متى اختلف الروي خرج من ان يكون شعراً . وهذه الطرق التي سلكوها في الجواب معتمدة أو أكثرها ، ولو كان ذلك شعراً لكانت النفوس تتشوف الى معارضته لان طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد وأهله يتقاربون فيه أو يضرّبون فيه بسهم

فان قيل : في القرآن كلام موزون كوزن الشعر وان كان غير مقفى بل هو مزاج متساوي الضروب ، وذلك آخر أقسام كلام العرب . قيل : من سبيل الموزون من الكلام ان تتساوى أجزاءه في الطول والقصر والسواكن والحركات ، فان خرج عن ذلك لم يكن موزوناً كقوله :

رب أخ كنتُ به مغتبطاً أشدُّ كفى بعراً صحبته

تمسكا مني بالود ولا أحسبه يزهد في ذي أمل
 تمسكا مني بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا
 يحول عنه أبدا فخاب فيه أملي

وقد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح ، وربما كان عندهم مستنكرا بل أكثره على ذلك . وكذلك ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولا وهو الذي شرطنا فيه التعادل والتساوي في الأجزاء غير الاختلاف الواقع في التقفية . وبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بينا وتم فائدته بالخروج منه ، وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه

فصل

﴿ في نفي السجع من القرآن ﴾

ذهب أصحابنا كلهم الى نفي السجع من القرآن ، وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موضع من كتبه . وذهب كثير ممن يخالفهم الى اثبات السجع في القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة . وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هرون عليهما السلام ولما كان السجع قيل في موضع هرون وموسى ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل موسى وهرون . قالوا وهذا يفارق أمر الشعر لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصوداً إليه ، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي يسمى شعراً وذلك القدر

ما يتفق وجوده من المفحّم كما يتفق وجوده من الشاعر . وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير لا يصح أن يتفق كله غير مقصود اليه ، وبينون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع ، قال أهل اللغة : هو موالاته الكلام على وزن واحد . قال ابن دريد ، سجعت الحمامة معناها رددت صوتها . وأنشد :

طربت فأبكتك الحمامُ السواجع تَميلُ بها ضحواً غصون نوائم^(١)
(النوائم ، الموائل : من قولهم جائع نائع أي متمايل ضعفا) ، وهذا الذي

يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز . ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز . وكيف والسجع مما كان يألفه السكّان من العرب ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن السكّانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر . وقد روي أن النبي ﷺ قال للذين جاؤه وكلموه في شأن الجنين : كيف ندي من لا شرب ولا أكل^(٢) ، ولا صاح فاستهلّ ، أليس دمه قد يطل ؟ فقال « أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ » وفي بعضها « أسجعا كسجع السكّان » ؟ فرأى ذلك مذموما لم يصح أن يكون في دلالاته . والذي يقدرونه انه سجع فهو وهم لانه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا ، لان ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى

(١) ضحواً : ضحى . ونوائم : جم نائم ، قال ابن دريد : ناع يلبع وينوع : تمايل . وبروي « غصون يوانم »
(٢) كانت في الأصل « من لا أكل ولا شرب »

المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت افادة السجع كإفادة غيره ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى . فان قيل : فقد يتفق في القرآن ما يكون من القبيلين جميعا فيجب أن تسموا أحدهما سجعا . قيل : الكلام في تفصيل هذا خارج عن غرض كتابنا وإلا كنا نأتي على فصل فصل من أول القرآن الى آخره ونبين في الموضع الذي يدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى ، ولسكنه خارج عن غرض كتابنا ، وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضوعين . ثم ان سلم لهم مسأله موضعا أو مواضع معدودة ، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب الى الفواصل لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام ، وزعم أن الوجه في ذلك انه من باب الفواصل ، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود اليه ، وأن ذلك اذا اعترض في الخطاب لم يعد سجعا على ما قد بينا من القليل من الشعر كإلييت الواحد والمصرع والبيتين من الرجز ونحو ذلك يعرض فيه فلا يقال انه شعر ، لانه لا يقع مقصودا اليه وإنما يقع مغمورا في الخطاب ، فكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه . ويقال لهم : لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموما مردولا ، لان السجع اذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت طريقه ، كان قبيحا من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أو وقع الخلل في كلامه ونسب الى الخروج عن الفصاحة ، كما أن الشاعر اذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مردولا ، وربما أخرجه عن كونه شعرا . وقد علمنا ان بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه ، وتبرد الفاصلة على ذلك الوزن الاول بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود

فان قيل : متى خرج السجع المعتدل الى نحو ما ذكرتموه خرج من أن يكون سجعاً ، وليس على المتكلم أن يلتزم أن يكون كلامه كله سجعاً ، بل يأتي به طوراً ثم يعدل عنه الى غيره ، ثم قد يرجع اليه

قيل : متى وقع أحد مصراعي البيت مخالفاً للآخر كان تخليطاً وخبطاً ، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعي الكلام المسجع وتفاوت كان خبطاً ، وعلم ان فصاحة القرآن غير مذمومة في الاصل فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب . ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه ، وكانت الطباع تدعو الى المعارضة ، لان السجع غير ممتنع عليهم بل هو عادتهم ، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة وهو غير خارج عنها ولا يميز منها ؟ وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع وليس بسجع عندهم ، وذلك نحو قول البحترى :

تَشَكَّى الوَجْى ، وَاللَّيْلُ مَلْتَبَسُ الدَّجَا غَيْرِيَّةُ الْاِنْسَابِ مَرَّتْ نَقِيْعَهَا (١)
وقوله (البحترى)

قريب المَدَى ، حتى يكون الى الندى ، عدوُّ البُنَى ، حتى يكون معالي (٢)
ورأيت بعضهم يرتكب هذا فيزعم أنه سجع مداخل ، ونظيره من القرآن

(١) من قصيدة له بمدح المتوكل ويذكر صلح تغلب وهي من خير قصائده . وهذا البيت في ناقته . الوجى من قولهم وجيت الناقة وحى وجبت في خفها . والابل الفريرية مذبوبة الى الفرير وهو فعل له كان لنعمان بن المنذر . المرات الارض لا كلاً بها وان مطرت . والنقيع البئر الكثيرة الماء ، وهو من المياه البارد العذب

(٢) من قصيدته في مدح محمد بن مهران علي بن سر . وهي جلية . المدى الناية . وقوله قريب لمدى أى قريب العاية والانتهاه فيما يسوءك كالغضب حتى يصير الى الندى فهناك سيب لا غاية لجوده . وهو عدو كل بناء لا يكون بناء للمعالي . وكان من حق الاهراب على البحترى أن يقول « حتى يكون معالياً » وامله اراد « حتى يكون بناء معاله » فأجراه والبلية بكسر الباء أو ضمها وسكون التون هو ما بنيته ، وهو البنى بالكسر أو الضم أيضا مقصوراً

قوله تعالى (١٦ : ٢٧) « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ » ويقول ابن شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ » وقوله (١٧ : ١٦) « أَمْرًا نَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا » وقوله (٩ : ٢٤) « أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ » وقوله (٣ : ٤٨ ، ٤٩) « وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ » وقوله (٤ : ١٩) « إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي » ولو كان ذلك عندهم سجعا لم يتحبروا فيه ذلك التحبر حتى سماه بعضهم سحرا ، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به ويصرفونه اليه ويتوهمونه فيه ، وهم في الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه ، وليس القوم بعاجزين عن تلك الاساليب المعتادة عندهم المألوفة لديهم . والذي تكلمنا به في هذا الفصل كلام على جملة دون التفصيل ، ونحن نذكر بعد هذا في التفصيل ما يكشف عن مبيضة ذلك وجوه السجع

ومن جنس السجع المعتاد عندهم قول أبي طالب لسيف بن ذي يزن « أَنْبَتَكَ مَنبِتًا طَابَتْ أَرْوَمَتُهُ ، وَعَزَّتْ جُرْنُومَتُهُ ، وَثَبَّتْ أَصْلُهُ وَبَسَقَ فِرْعُهُ ، وَنَبَتَ زَرْعُهُ فِي أَكْرَمِ مَوْطِنٍ ، وَأَطِيبِ مَعْدِنٍ » وما يجري هذا المجرى من الكلام

والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة مخالفته للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم : ولا معنى لقولهم ان ذلك مشتق من ترديد الحماسة صوتها على نسق واحد وروي غير مختلف ، لان ما جرى هذا المجرى لا يبدي على الاشتقاق وحدة ؛ ولو بُنيَ عليه لكان الشعر سجعا ، لأن رويته يتفق ولا يختلف . وتردد القوافي على طريقة واحدة . وأما الامور التي يستريح اليها الكلام فانها تختلف : فربما كان ذلك يسمى ^(١) قافية وذلك انما يكون في الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان [يسمى ^(٢)] مقاطع السجع وربما

(١) في النسخة المخطوطة : مسمى (٢) الزيادة في اللطووعة وليست في المخطوطة

سمى ذلك فواصل . وفواصل القرآن - مما هو مختص بها - لا شركة بينهما وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب

وأما ما ذكره من تقديم موسى على هارون عليهما السلام في موضع وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع ولتساوي مقاطع الكلام ، فليس بصحيح ، لان الفائدة عندنا غير ما ذكره . وهي ان اعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا ، من الامر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين فيه البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ، ونهوا بذلك على عجزهم عن الاتيان بمثله مبتدأً به ومكرراً . ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقد صدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي تلك المعاني وتحويها ، وجملوها بازاء ما جاء به ، وتوصلوا بذلك الى تكذيبه والى مساواته فيما جاء به . كيف وقد قال لهم (٥٢ : ٣٤) « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » فعلى هذا يكون المقصد - بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها - اظهار الاعجاز على الطريقتين جميعاً دون التسجيع الذي توهموه فان قال قائل : القرآن مختلط من أوزان كلام العرب ففيه من جنس خطبهم ، ورسائلهم ، وسجعهم ، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفى ، ولكنه أبدع فيه ضرباً من الابداع ابراعته وفصاحته

قيل . قد علمنا ان كلامهم ينقسم الى نظم ، ونثر ، وكلام مقفى غير موزون ، ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع ، ونظم مقفى موزون له روي . ومن هذه الاقسام ما هو سجيبة الاغلب من الناس فتناوواه أقرب ، وسلوكه لا يتعذر . ومنه ما هو اصعب تناولا كالموزون عند بعضهم أو الشعر عند الآخرين . وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين : إما بعمل وتكلف وتعلم وتصنع ، أو باتفاق من الطبع وقذف من

النفس على اللسان للحاجة اليه . ولو كان ذلك مما يجوز اتفاهه من الطبايع ، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم ويتعرض على ألسنتهم وتجيئ به خواطرهم ، ولا ينصرف عنه السكك^(١) مع شدة الدواعي اليه . ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه ولتعلموه ، فالمهله لهم فسيحة والأمد واسم وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم ؟ فقد قيل . انه اتفق في الأصل غير مقصود اليه على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام ، ثم لما استحسناه واستطابوه ورأوا انه تألفه الاسماع وتقبله النفوس ، تدبّعوه من بعدُ وتعلموه . وحكى لي بعضهم عن أبي عمر^(٢) غلامٍ ثعلب عن ثعلب أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

وبسمون ذلك الوضع (الهنبر^(٣)) واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطعه أو جذبه ، ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله . وأما ما وقع السبق اليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أو لا وقد يحتمل - على قول من قال بأن اللغة اصطلاح - انهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم . وقد يمكن ان يقال مثله على المذهب الآخر ، وانهم وقفوا على ما يتصرف اليه القول من وجوه التفاسيح ، أو توافقوا هم بينهم على

(١) كانت بالاصلين « عند السكك »

(٢) كانت بالاصلين « أبي عمرو » بالواو وصوابه أبو عمر الزاهد (بحذف الواو) محمد

ابن عبد الواحد غلام ثعلب الانوبي اللثة الحافظ له كتب

(٣) لم أعتد بعد على هذه القصة عن أبي عمر الزاهد ولا عن غيره واست أعرف هذه

الكلمة (للثبر) وليست مثبتة في كتب اللغة لا بهذا المعنى ولا بغيره . وقوله ان اشتقاقها من

المتر يدل بوضوح الشيء على أنها على وزن (فـعـل) بمعنى مفعول أي ممتور أي منقطع

ذلك ؛ ويمكن أن يقال ان التواضع وقع على أصل الباب وكذلك التوقيف ، ولم يقع على فنون تصرف الخطاب ، وان الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى ، وفتنوا الحسنه فتتبعوه من بعد وبنوا عليه وطلبوه ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب بوزنها ، ونهش النفوس اليها ؛ وجمع^(١) دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها ، واختيار طرق من تنزيلها ، وعرفهم محاسن الكلام ، ودلهم على كل طريقة عجيبة ، ثم أعلمهم عجزهم عن الاتيان بالقرآن ، والقدر الذي يتناهى اليه قدرهم ، هو ما لم يخرج عن لغتهم ، ولم يشذ من جميع كلامهم بل قد عرض في خطابهم ، ووجدوا ان هذا انما تعذر عليهم مع التحدي والتفريع الشديد والحاجة الماسة اليه مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه ، دل^(٢) على انه اختص به ليكون دلالة على النبوة ومعجزة على الرسالة ، ولولا ذلك لكان القوم إذا اهدوا في الابتداء الى وضع هذه الوجوه التي يتصرف اليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه ، فلأن يقدرها بعد التنبيه على وجهه والتحدي اليه أولى ان يبادروا اليه لو كان لهم اليه سبيل . فلو كان الأمر على ما ذكره السائل لوجب أن لا يتحيروا في أمرهم ، ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم ، ولسكانوا يسرعون الى الجواب ويبادرون الى المعارضة ؛ ومعلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد الى الامور البعيدة عن الوهم ، والاسباب التي لا يحتاج اليها ، فيكثر فيها من شعر ورجز ؛ ونجد من يعينه على نقله عنه على ما قدمنا ذكره من وصف الابل ونتاجها وكثير من أمرها لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا . ثم كانوا يتفاخرون باللسان

(١) يريد جمع افة تعالى

(٢) هذا كلام مضطرب وفي المخطوطة أكثر اضطرابا لأن أول الجملة هناك « بل قد عرض في كلامهم ووجد » بالبناء للجهول « وأن هذا .. » فهذا كما ترى لا يؤدي معنى وأحسب الصواب « ولما وجدوا ان هذا انما تعذر ... دل على .. »

والذلاقة والفصاحة والدرابة ويتنافرون فيه ، وتجري بينهم فيه الأسباب المنقولة في الآثار على ما لا يخفى على أهله . فاستدلنا بتحريم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم ، ووقوعه موقعاً يخرق العادات ، وهذه سبيل المعجزات

فبان بما قلنا أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الاسجاع ، لا يخرجها عن حدها ولا يدخلها في باب السجع . وقد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء فكان بعض مصاريعه كلمتين وبعضها تبلغ كلمات ، ولا يرون في ذلك فصاحة بل يرونه عجزاً . فلو رأوا ان ما تلى عليهم من القرآن سجعاً لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل ، فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن ونتجاوز حده في البراعة والحسن . ولا معنى لقول من قدر أنه ترك السجع تارة الى غيره ثم رجع اليه ، لان ما تخلل بين الامرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدره من التسجيع ، لانه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته ولا بد لمن جوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب^(١)

(١) الذي ذهب اليه النظام هو ما حكاه ابن الحياط المنزلي في كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندي المنعم » ص ٢٧ قال (أي ابن الراوندي) « وكان يزعم (أي ابراهيم النظام) ان نظم القرآن وتأليفه ليسا بحجة للذي صلى الله عليه وسلم وان الخلق يقدرون على مثله (ثم قاله) هذا مع قول الله عز وجل « قل لئن اجتمعت الانس والجن « الآية اهـ - عليك الله الخبير - ان القرآن حجة للذي صلى الله عليه وسلم على نبوته عند ابراهيم من غير وجه فأحدها ما فيه من الاخبار بالنيوب (وذكر آيات مضت في كتابنا هذا « اعجاز القرآن ») ، الى أن قال : ومثل اخباره بما في نفوس قوم وبما يقولونه وهذا وما أشبهه في القرآن كثير . فالقرآن عند ابراهيم حجة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الوجوه وما أشبهها وإياها حتى الله تعالى بقوله « قل لئن اجتمعت الانس والجن « الآية . اه باختصار أي أن القرآن معجز بمناء وحسب

اليه النظم^(١)، وعباد بن سلمان^(٢)، وهشام الفوْطِيّ^(٣) ويذهب مذهبهم في انه ليس في نظم القرآن وتأليفه اعجاز، وانه يمكن معارضته، وانما صرفوا عنه ضربا من الصرف. ويتضمن كلامه تسليم الخبط في طريقة النظم، وانه منتظم من فرق شتى ومن أنواع مختلفة ينقسم اليها خطابهم ولا يخرج عنها، ويستعين بيديهم نظمه وعجيب تأليفه الذي وقع التحدي اليه. وكيف يُعجزهم الخروجُ عن السجع والرجوعُ اليه وقد علمنا عاداتهم في خطبهم وكلامهم انهم كانوا لا يلزمون أبدا طريقة السجع والوزن، بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة، فاذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمي الكلامين



(١) النظم هو أبو اسحاق ابراهيم بن سيار ذكره الذهبي فيمن مات بين سنة ٢٢١ الى سنة ٢٣١ هـ. من تلميقات الانتصار ص ١٨٢
 (٢) ذكر صاحب الانتصار في ص ٩٠، ٩١ وجلاسه عباد بن سليمان وترجم له ابن المرتضى بهذا الاسم وقال كان من أصحاب هشام الفوْطِيّ طاش هذا الرجل في القرن الثالث من تلميقات الانتصار ص ٢٠٣

(٣) بالاصل المخطوط (القرطي) والمطبوع (القرطي) والصواب ما أثبتناه. والفوْطِيّ بضم الفاء ففتح الواو نسبة الى الفوْط وهي نوع من الثياب واحده فوطة (السماني). وهو هشام بن عمرو الشيباني ذكره ابن المرتضى ولده مات في الربع الاول من القرن الثالث هـ. تلميقات الانتصار ص ١٩٢ - ١٩٣ وذكر هشاما هذا ابن حزم في كلامه في المال والنحل ج ٤ ص ١٩٦، ٢٠٢

فصل

﴿ في ذكر البديع من الكلام ﴾

ان سأل سائل فقال : هل يمكن ان يعرف اعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع ؟

قيل : ذكر أهل الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظا نحن نذكرها ، ثم نبين ما سألوا عنه ليكون الكلام واردا على أمر مبين مقرر وباب مصور . ذكروا ان من البديع في القرآن قوله عز ذكره (١٧ : ٢٤) « وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » وقوله (٤٣ : ٤) « وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ » وقوله (١٩ : ٤) « وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا » وقوله (٣٦ : ٣٧) « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلِمُونَ » وقوله (٢٢ : ٥٥) « أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ » وقوله (٢٤ : ٣٥) « نُورٌ عَلَى نُورٍ » . وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكيمة كقوله (٢ : ١٧٩) « وَالرَّحْمَةُ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » وفي الألفاظ الفصيحة كقوله (١٢ : ٨٠) « فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » وفي الألفاظ الالهية كقوله (٢٧ : ٩١) « وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ » وقوله (١٦ : ٥٣) « وَمَا يَكُفُّ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّكَ إِلَّا اللَّهُ » وقوله (٤٠ : ١٦) « لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » ويذكرون من البديع من قول النبي ﷺ « خَيْرُ النَّاسِ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا ^(١) » وقوله « رَبَّنَا تَقَبَّلْ تَوْبَتِي وَاعْسَلْ حَوْبَتِي ^(٢) » وقوله « غَلَبَ عَلَيْكُمْ دَاؤُ الْأُمِّ قَبْلَ سَكَمِ الْحَسَدِ »

(١) الهيمة : صوت الصارخ الفزع

(٢) الحوبة : الخطيئة والذنب

والبغضاء وهي الحالقة حالقة الدّين لاحالقة الشعَر ، وكقوله « الناسُ كابل مائةٍ لانبجُدُ فيها راحلةً » وكقوله « وهلْ يكبُّ الناسُ على مناخرهم في نار جهنّم إلاّ حَصائِدُ اسِنَّتِهِمْ ^(١) » وكقوله « انّ ممّا يُبَدِّت الرِّيع ما يقتُ حَبَطًا أو يُلَمِّ ^(٢) »

وكقول أبي بكر الصّدِّيق رضي الله عنه في كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه ^(٣) وقوله لخالد بن الوليد « احْرِصْ على الموت توهبُ لك الحياة » وقوله « فِرٌّ من الشَّرَفِ يتبَعُكَ الشرف »

وكقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه في كتابه الى ابن عباس وهو عامله على البصرة « ارْغَبْ رَاغِبَهُمْ واحلِّمْ عَقْدَةَ الخوفِ عنهم » وقوله حين سئل عن قول النبي ﷺ « انما قال ذلك والدّينُ في قلِّ فأما وقد اتَّسعَ نِطاقُ الاسلامِ فكل امرئٍ وما اختار » وسأل عليّ رضي الله عنه بعض كبراء فارس عن أحمد ملوكهم عندهم فقال « لاردشير فضيلة السَّبَقِ غير

(١) قال ابن الاثير بعد ذكر الحديث « أي ما يقتطعوه من الكلام الذي لا خير فيه واحدها حصيدة تشبها بما يحمص من الزرع وتشبها لسان وما يقتطع من القول بحمد المنجل الذي يحمص به »

(٢) قال الازهري وابن الاثير ان هذا الخبر لا يكاد يفهم اذا فرق أو بتر فرأينا اثباته هنا . روى البخاري في صحيحه (المطبوعة اليونانية ج ٨ ص ٩١) عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان اكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض . قيل وما بركات الارض ؟ قال زهرة الدنيا . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالنسر ؟ فصمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظننا انه ينزل عليه . ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : أين السائل ؟ قال : أنا . قال أبو سعيد لند حمدناه حين طام ذلك . قال : لا يأتي الخير الا بالخير ان هذا المال خضرة حلوة وان كل ما أبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم الآكلة الخضرة أكلت حتى اذا امتدت خضرتها ما استقبلت الشمس فلبثت وتلطت وبالت ثم طادت فأكلت ، وان هذا للمال حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع . اه من كتاب الرقاق من البخاري

(٣) انظر بعد « خطبة أبي بكر وعمره الى صر رضي الله عنه »

ان أحمدهم أنو شروان « قال « فأى أخلاقه كان أغلب عليه ؟ » قال « الحليم
والأناة » فقال علي رضي الله عنه « هما توأمان يُنتَجِهُمَا عُلُوُّ الهمة » وقال
« قيمة كل امرئ ما يُحْسِن » وقال « العلم قُفْلٌ ومفتاحه المسئلة »
وكتب خالد بن الوليد الى مرزبة فارس « أما بعد فالحمد لله الذي فَضَّ
خَدَمَتِكُمْ وفَرَّقَ كَلِمَتِكُمْ « والخدمة الحلقة المستديرة ولذلك قيل للخلائيل خِدام
وقال الحجاج « دلوني على رجل سَمِين الأمانة »
ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وهب الراسبي ^(١) على الخوارج أرادوه
على السلام فقال « لاخيرَ في الرأي الفطير ^(٢) » وقال « دَعُوا الرَّأْيَ
يُغِيبُ ^(٣) »

وقال اعرابي في شكر نعمة « ذاك عنوان نعمة الله عز وجل » ووصف
اعرابي قوماً فقال « إِذَا اصْطَفَوْا سَفَرَتْ بَيْنَهُم السَّهَامُ وَإِذَا تَصَافَعُوا بِالسِّيُوفِ
قَعَدَ الْجَاحِمُ ^(٤) » وسئل اعرابي عن رجل فقال « صَفِرَتْ عِيَابُ الْوُدِّ بَيْنِي
وبينه بعد امتلائها ، واكْفَهَرَتْ وَجوهٌ كانت بِمَائِهَا ^(٥) » وقال آخر « من ركب

(١) من بني راسب بن مالك له ادراك وشهد فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص زمن
مصر وكان مع علي في حروبه حتى وقع التحكيم وأنكرته الخوارج وأسروا عليهم عبد الله بن
وهب وكان عجبا في العبادة حتى لقب لكثرة عبادته وسجوده « ذا النفثات » وقتل يوم
النهروان . اهـ ، باختصار من الاصابة
(٢) الفطير ما أعجل عن ادراكه واضجه

(٣) ينب بفتح الباء المشددة لا الفم وللنبي دعوا الرأي يمكث يوما أو يومين حتى ينضج
(٤) سفرت السهام صارت كالسفراف وهي الرسل بين القوم اصلح أو غيره ، أي انهم حين
يبرزون للحرب يسفراؤهم السهام . وحين يرى الموت سيوفهم يقعد ليستريح ، فسوفهم
موت آخر

(٥) صفرت : خلت . والعياب جمع عيبة وهي ما تجمل فيه الثياب ، يريد بالعياب الصدور .
واكفهر وجهه انقبض وكبح حتى ما يرى به أثر بشر أو فرح ، وأراد بقوله « بمائها » أي
ماء البشر

ظَهَرَ الباطل نَزَلَ دارَ النَّدَامَةِ « وقيل لرؤية : كيف خَلَفْتَ ما وراكَ ؟ فقال
« الترابُ يابس ، والمالُ عابس »^(١)

ومن البديع في الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لتستدل بها على
ما بعدها ، فن ذلك قول امرئ القيس :

وقد أَغْتَدِي والطيرُ في وُكُنَاتِهَا بِمَنْجَرٍ دِ قَيْدِ الأَوابِدِ هَيْكَلِ^(٢)

قوله « قيد الاوابد » عندهم من البديع ومن الاستعارة ويروونه من الالفاظ
الشريفة ، وعنى بذلك انه اذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيماً لها ،
وكانت بحالة المقيّد من جهة سرعة احضاره . وافتدى به الناس واتبعه الشعراء
فقال : « قيدُ النواظر » و « قيدُ اللاحاظ » و « قيد الكلام » و « قيد الحديث »
و « قيد الرهان » وقال الأسود بن يعفر

بِمَقْلَصٍ هَتَمِيٍّ جَهِيْزٍ شَدِه قَيْدِ الأَوابِدِ وَالرَّهَانِ جِوَادِ^(٣)
وقال أبو تمام :

لِها مَنظَرٌ قَيْدُ الأَوابِدِ لَمْ يَزَلْ بِرُوحٍ وَيَقْدُو فِي خَفَّارَتِهِ الحُبُّ
وقال آخر :

الحَاظِلُهُ قَيْدُ عَيونِ الوُرَى فليس طَرْفٌ يَتَعَدَّاهُ
وقال آخر

قَيْدُ الحُسْنِ عَلَيْهِ الحَدَقَا

(١) الجملة الاولى أراد بها القهط ، وأراد بالثانية فله المال وانه لا يؤاتي فهو عبوس
الوجه قاطبه

(٢) وكُنَاتِهَا أو كَارِهَا . منجرد تصوير الشعر وذلك فيه عتق . قيد الاوابد بقيد الاوابد
وهي اخر الوحشية والوحش بلعاقه اياها على سرعتها . الهيكل العظيم الخلق

(٣) في الاصل المخطوط والمطبوع « عتر جهيز » بالراء نهاية في كليهما وهو خطأ .
فرس متخلص طويل القوائم منقسم البطن . عند فتح اوله وثانيه أو كسره شديد تام الخلق
سريع الوثبة مد لجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . قال أبو عبيدة جهيز شده
سريع العدو

وذكر الأصمعي وأبو عبيدة وحماد وقبلهم أبو عمرو أنه ^(١) أحسن في هذه اللفظة وأنه أتبع فيها فلم يلحق ، وذكره في باب الاستعارة البليغة ، وسماها بعض أهل الصنعة بامم آخر ، وجعلوها من باب الازداف ، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف . قالوا ومثله قوله ^(٢) :

نُؤوم الضحى لم تنطق عن تفضلٍ

وانما أراد ترفهها بقوله « نُؤوم الضحى » ومن هذا الباب قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وانما أراد أن يصف طول جيدها ، فأتى برده . ومن ذلك قول

أمرئ القيس :

وليل كوج البحر أرخى سدوله

وذلك من الاستعارة المليحة . ويجملون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من

القرآن (١٩ : ٤) « واشتعل الرأس شيبا » (١٧ : ٢٤) « واخفض لها

جناح الذل من الرحمة » . ومما يعدونه من البدع التشبيه الحسن كقول

أمرئ القيس .

كأن عيون الوحش حول خباثنا وأرحلنا الجزع الذي لم يشمب ^(٣)

وقوله :

كأن قلوب الطير رطباً وباساً لدى وكرها العتاب والحشف البالى

واستبدعوا تشبيهه شيتين بشيتين على حسن تقسيم ويزعمون ان أحسن

ما وجد في هذا للحدثين قول بشار :

(١) يريد اسم القيس

(٢) هو اسم القيس ايضاً

(٣) الجزع الحرز الباني وهو الذي فيه ياض وسواد

كان مُنَارُ النَّعْرِ فوق رُووسنا وأسيفنا ليلٌ تهاوى كواكبهُ
وقد سبق امرؤ القيس الى صحة التقسيم في التشبيه ، ولم يتمكن بشار إلا من
تشبيه احدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل . وكذلك عدوا
من البديع قول امرئ القيس في أذني الفرس
وسامعتان يُعرَف العِتْقُ فيها كسامعتي مذعورةٍ وسطَ زَرْبِ
وابنعه طرفة فقل فيه :

وسامعتان يُعرَف العِتْقُ فيها كسامعتي شاةٍ بحوملٍ مُفَرَدٍ
ومثله قول امرئ القيس في وصف الفرس .
وعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَتَيْنِ وَتَحْمِيرِ الى سَنَدٍ مِثْلِ الصَّفِيحِ الْمُنْصَبِ (١)
وقال طرفة في وصف عيني نائته

وعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَتَيْنِ اسْتَكْنَتَا بِكَمْفِي حِجَابِي صَخْرَةً قَلْتِ مَوْرِدٍ (٢)
ومن البديع في التشبيه قول امرئ القيس
له أَيُّغَلَّا ظِيْرٍ وَسَاقًا نَعَامَةٍ وَاِرْحَاهِ مِرْحَانٍ تَقْرِيْبُ تَقْمَلِ
وذلك في تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء أحسن فيها (٣)

ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى (٥٥ : ٢٤) « وله الجوار
المنشآت في البحر كالأعلام » وقوله تعالى (٣٧ : ٤٩) « كأنهن يبض
مكنون » وموضع نذكرها بعد هذا

ومن البديع في الاستمارة قول امرئ القيس :

وَلَيْلٍ كَوَجِ الْبَحْرِ أَرَخِي سُدُوَاهِ عَلَى أَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقَلْتِ لَهُ مَا تَهْلِي بِصُلْبِهِ وَأُرْدَفِ أَعْجَازًا وِنَاءِ بِكُلِّكِلِ

(١) الماوية المرأة . ويريد بالسند الحد

(٢) استكن اختبأ والحجاج منبت شعر الحاجب والقلت وقبة العين وأصله قرة في الجبل تمسك للام

(٣) هي تشبيه كضحية بكشحي الظبي اياه الى عبالتهما ، وساقيه بساقي النعامه ، وعدوه بدو النشب ،

وانه يرفع يديه معا وينزلها معا كما يفعل ولد الثعلب ، يريد انه سريع الخطا صليب القوائم

وهذه كما استعارات أبي بها في ذكر طول الليل . ومن ذلك قول النابغة :
 وصدر أراحَ الليلُ عازبَ همّةٍ تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبٍ
 فاستعاره من اراحة الراعي ابله الى مواضعها التي تأوي اليها بالليل . وأخذ
 منه ابن الدمينة فقال :

أقضي نهارى بالحديث والمنى ويجمعني والهم والليل جامع^(١)
 ومن ذلك قول زهير :

صحا القلبُ عن ليلى وأقصرَ بطله وعُرِّي أفراس الصبا ورواحله
 ومن ذلك قول امرئ القيس :
 سموتُ اليها بعد ما نام أهلها سموتُ حباب الماء حالاً على حالٍ
 وأخذه أبو تمام فقال :

سموتُ عباب الماء جاشت غواربه

وانما أراد امرؤ القيس اخفاء شخصه . ومن ذلك قوله :

كأنى وأصحابي على قرن أغفرا

يريد أنهم غير مطمئنين

ومن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله بن سعيد قال : أخبرني أبي قال
 أخبرنا عسل بن ذكوان ، أخبرنا أبو عثمان المازني قال : سمعت الأصمعي
 يقول : أجمع أصحابنا أنه لم يقل أحسن ولا أجمع من قول النابغة :
 فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن الممتأى عنك واسم
 قال الحسن بن عبد الله : وأخبرنا محمد بن يحيى ، أخبرنا عون بن محمد
 السكندي ، أخبرنا قعنب بن محرز قال : سمعت الأصمعي يقول : سمعت

(١) كنا في الاصلين والذي برويه القائل في اماليه :

أقضي نهارى بالحديث والمنى ويجمعني بالليل والهم جامع

من قصيدة لقيس بن ذريح . وقبله :

نهارى نهار الناس حتى اذا دجا لي الليل هزني اليك المضاجع

أبا عمرو يقول : كان زهير يمدح السَّوْقَ ، ولو ضرب على أسفل قدميه مِثْمَا
دَقَلَ (١) على أن يقول كقول النابغة :

فانك كالليل الذي هو مُدْرِكِي وان خلت أن المنتأى عنك واسع
لما قل ، يريد أن سلطانه كالليل يصل الى كل مكان . واتبعه الفرزدق فقال :
ولو حَمَلْتَنِي الرِّيحَ ثم طَلَبْتَنِي لَسَكَنْتُ كَشَيْءٍ أَدْرَكْتَنِي مِقَادِرُهُ
فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ما سبق اليه النابغة ثم أخذه الأخطل فقال :

وان أميرَ المؤمنين وفعله اسكالدهر لا عار بما فعل الدهر
وقد روي نحو هذا عن النبي ﷺ « نصرت بالرعب وجعل رزقي تحت ظل
رحمي وليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل » وأخذه علي بن [جبلة] (٢) فقال :

وما لأمريء حاولته عنك مهربٌ ولو كان في جوف السماء المطالع
يلى هارب لا يمتسدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح طالع
ومثله قول سلم الخاسر

فأنت كالدهر مبعوثاً حباله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكتُ عنان الرِّيحِ أصرفه في كل ناحية ما فاتك الطلب
فأخذه البحترى فقال :

ولو أنهم ركبوا السكواكب لم يكن ينجيهم عن خوف بأسك مهرب
ومن بديع الاستعارة قول زهير :
فلما وردن الماء زُرُقًا جهامه وضمن عصي الحاضر المتخيم
وقول الأعشى :

(١) هنا بالاصل الحظي زيادة كلمة [صى] هكذا بلا اعجام ولعلها صني . والصني : الصباح ، اي

يسمع لهذا الضرب صوت الصباح .

(٢) بالاصل ياض يتسع لكلمة واحدة ، وقد اكملناه من معاهد التخصيص ، وروايه المعاهد :

وما لأمريء حاولته منك مهرب ولو رفعت في السماء المطالع

وبعد البيت الثاني كرواية المؤلف ثم قل : « واكثر الادباء يرجحه على بيت النابغة » .

وان عتاق العيس سوف يزورك
ومنه أخذ نُصَيْبُ فقال :

فعاوجوا فاثبوا بالذي أنت أهله
ومن ذلك قول تأبط شرا :

فخالط سهل الأرض لم يكده الصفا به كدحةً والموت خزبانٌ ينظر

ومن الاستعارة في القرآن كثير كقوله (٤٣ : ٤٤) « وانه لذكر لك

ولقومك » يريد ما يكون الذر عنه شرفا . وقوله (١ : ١٣٨) : « صبغة الله

ومن أحسن من الله صبغة » قيل دين الله أراد وقوله (١ : ١٦) : « اشتروا

الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم »

ومن البديع عندم الغلو^(١) : كقول النمر بن تولب

أبى الحواث والايام من نمر
اسناد سيف قدبم أثره بادي

تظل تحفر عنه ان ضربت به
بعد الدراعين والقيدين والهادي^(٢)

و كقول النابغة :

تقدت السلوقي المضاعف نسجه
ويوقدن بالصقاح نار الحباب

و كقول عنتره :

فازور من وقع القنا بلبانه
وشكا الى بهرة وتمححم

و كقول أبي تمام :

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه
لخرّ يلثم منه موطىء القدم

و كقول البحتري :

(١) الغلو: ادع. بلوغ وصف في الشدة او الضعف حدا يستحيل ان يصدقه العقل او يدعن له
العرف . ولا يقبل منه عند الادباء الا ما اقترن به شئ يقر به من الصحة او تضمن حسن مجبول او ما

خرج مخرج الخلاة . وتفصيل هذه الاشياء في مظانها من كتب البلاغة

(٢) الرواية في غير هذا الكتاب :

ابى الحواث والايام من نمر
أسناد سيف كرم اثره بادي

تظل تحفر عنه الارض مندفا
بعد الدراعين والقيدين والهادي

ولوان مشتاقا تكاف فوق ما في وسعه ، أشهى اليك المنبر
ومن هذا الجنس في القرآن (٥٠ : ٣٠) : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت
وقول هل من مزيد » وقوله (٢٥ : ١٢) : « اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها
تغيظا وزفيرا » وقوله (٦٧ : ١) : « تكاد تميز من الغيظ »

ومما يمدونه من البديع المماثلة وهو ضرب من الاستعارة وذلك أن يقصد
الإشارة الى معنى فيضع ألفاظا تدل عليه وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذي
قصد الإشارة إليه ^(١) نظيره من المنشور أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن
محمد يتلكأ عن بيعته فكتب اليه « أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى
فاعتمد على أيهما شئت » وكنحو ما كتب به الحجاج الى المهلب « فان أنت
فعلت ذلك والاشرعت اليك الرمح » فأجابته المهلب « فان أشرع الامير
الريح قلبت اليه ظهر الحجن » وكقول زهير :

ومن يعص أطراف الزجاج فانه يطيع العوالي ركبت كل لهدم
وكقول امرئ القيس :

وما ذرّفت عيناك الا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل
وكقول سمر بن معدى كرب :

فلو أن قومي أنطقني رماهم نطقتُ ، ولكن الرماح أجرت
وكقول القائل :

بني عمنا لاتذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا
وكقول الآخر :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

(١) كذلك فرمها أبو هلال العسكري وهو غير المعنى الذي اصطلح عليه المتأخرون حيث فرمها
بان تتأهل الفاظ الكلام او بعضها في الوزن دون التفتية ، كقول امرئ القيس :
كأن المدام وصوب الغمام وريح الحزامي وشر القطر
وكقول اس حديس :

على قرب عدالي وفقد احبتي وامواه اجفاني ونيران اضلمي

ومن هذا الباب في القرآن كقوله (١ : ١٧٥) : « فما أصبرهم على النار »
وكتوله (٤ : ٧٤) : « وثيابك فطهر » قال الاصمعي : أراد البدن قال : وتقول
العرب « فدي لك ثوبي » يريد نفسه ، وأنشد :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدي لك من أخي ثقة ازاري
ويرون من البديع أيضا ما يسمونه المطابقة ، وأكثرهم على أن معناها أن
يذكر الشيء وضده كالليل والنهار ، والسواد والبياض ، واليه ذهب الخليل بن
أحمد والاصمعي ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز وذو ابن المعتز من نظائره من
المنثور ما قاله بعضهم : « أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق
الضمان » ونظيره من القرآن (١ : ١٧٩) : « والكم في القصاص حياة » وقوله
(٣٠ : ١٩) : « يُخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » وقوله (٢٢ :
٦١) : « يوج الليل في النهار ويوج النهار في الليل »^(١) ومثله كثير جدا ، وكقول
النبي ﷺ للانصار « انكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » وقال
آخرون : بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة ، واليه ذهب قدامة بن
جعفر الكاتب ، فمن ذلك قول الافوه الاودي .

وأقطع الهوجل مستانسا بهوجل مستانس عنتريس
عنى بالهوجل الاول الارض والثانى الناقة . ومثله قول زياد الاعجم :
وُنبتهم يستنظرون بكاهل ولوم فيهم كاهل وسنام
ومثله قول أبي دواد :

عهدت لها منزلا دائرا وآلا على الماء يحملن آلا
فلاآل الاول أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقي ، والآل الثاني المراب ؛
وليس عنده قول من قال : المطابقة انما تكون بأجتماع الشيء وضده بشيء ،
ومن المعنى الاول قول الشاعر :

(١) وفي (٣٠ : ١٣) و (٥٧ : ٦) و (٣١ : ٢٩)

- أهين هم نفسى لا كرمها بهم وان تُسكروا النفس التي لا تهينها
ومثله قول امرئ القيس :
- وتردى على صم صلاب مَلِطْسٍ شديداً عقد ليناتِ مَتَانِ
وكقول النابغة :
- ولا يحسبون الخير لاشربعه ولا يحسبون الشر ضربة لازب
وكقول زهير وقد جم فيه طباقين :
- بعزسة مأمور مطيعٍ وأمرٍ مطاع ، فلا يُلقى لحزمهم مثل
وكقول الفرزدق :
- والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانيبه نهار
ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير .
- وباسطٍ خير فيكمُ يمينه وقابض شر عنكمُ بشماليا
وكقول رجل من بلعنبر .
- يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة أهل السوء احسانا
وروى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه مثل بقول القائل :
- فلا الجود يُفنى المال والجُدُّ مقبل ولا البخل يُبقى المال والجدُّ مدبر
وكقول الآخر .
- فسرى كاعلاني وتلك سجيتي وظلعة ليلى مثل ضوء نهاريا
وكقول قيس بن الخطيم :
- إذا أنت لم تنفع فضر ، فأعما يُرجى الفقى كما يضر وينفعا
وكقول السموأل :
- وما ضرنا انا قليل وجارنا عزيز وجار الا كثيرين ذليل
فهذا باب يروونه من البديع

وباب آخر وهو التحنيس ومعنى ذلك أن تأتي بكلمتين متجانستين : فمعه
 ما تكون الكلمة تجانس الاخرى في تأليف حرفها وللمية ذهب لخليل ، ومنهم
 من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق ، كقوله عز وجل
 (٣٠ : ٤٢) « فاقم وجهك للدين القيم » وكقوله (٢٧ : ٤٤) « وأسأت مع
 سليمان » وكقوله (١٢ : ٨٤) « يا أسفا على يوسف » وكقوله (٦ : ٨٢) :
 « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن » وكقوله (٦ : ٢٦)
 « وهم ينهون عنه وينأون عنه » وكقول النبي ﷺ « أسلم سلمها الله وغفار
 غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله » وكقوله « الظلم ظلمات يوم القيامة »
 وقوله « لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله » وكتب بعض الكتاب « العذر
 مع المتعذر واجب فأريك فيه » وقال معاوية لابن عباس مالكم يا بني هاشم
 تصابون في أبصاركم ؟ فقال : كما تصابون في بصائرهم . وقال عمر بن الخطاب رضي
 الله عنه « هاجروا ولا تمجروا » ومن ذلك قول قيس بن عاصم :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة كسته نجيعا من دم الجوف أشكلا

وقل آخر أمل عليها بالبلى الملوان

وقال الآخر:

وذاكم أن ذل الجار حالفكم وأن أنفكم لا تعرف إلا نفا

وكتب الى بعض مشايخنا قال : أنشدنا الاخفش عن المبرد عن التورزي:

وقالوا حمامات فحتم لقاءها وطلح فزيرت والمطى طلوح

عقاب بأعقاب من النأى بعدما جرت نية تنسى المحب طروح

وقال صحابي هدهد فوق بانه هدى وبيان بالنجاح يلوح

وقالوا دم دامت موثيق عهده ودام لنا حسن الصفاء صريح

وقال آخر :

أقبلن من مصر يبار ين البرى

وقال القطامي .

ولما ردها في الشول شالت بذئال يكون لها لفاعا
وقد يكون النجنيس بزيادة حرف أو ما يقارب ذلك^(١) ، كقول البحترى
هل لما فات من تلاف تلاف أم لشاك من الصبابة شاف^(٢)
وقل ابن مقبل .

يمشبن هيل النقا مالت جوانبه ينهال حيناً وينهاه الثرى حيناً
وقال زهير :

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا لا ينسكلون اذا ما استلحموا وحوا
ومن ذلك قول أبي تمام :

بمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب
وأبو نواس يقصد في مصر عى مقدمات شعره هذا الباب كقوله :
ألا دارها بالماء حتى تليتها فلن تكرم الصهباء حتى تهينها
وكذلك قوله :

ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجواً هن منه عوار
وكقول ابن المعتز :

سأنتى على عهد المطيرة والقصير وأدعوها بالسا كمين وبالقطر
وكقوله :

هى الدار الا أنها منهم قفر واني بها ناور وانهم سقر
وكقوله :

اللاماني حديث يقـر ويسوء الدهر من قـر يسـر

(١) يريد بما يقاربه ان يكون حرف مكان حرف كما سيذكر من الامثلة

(٢) عمل الاستشهاد في بيت البحترى الشطر الثاني ، فاما الاول فداخل في معنى النجنيس الاول

وكقول المتنبي .

وقد أراني الشابُ الرُّوحَ في بدني وقد أراني المشيبُ الروحَ في بدلي
وقد قيل ان من هذا القبيل قوله عز وجل (٢١ : ٣٧) « خلق الانسان
من عجل ساريم آياتي فلا تستعجلون » وقوله (١٤ : ٣٩ - ١٥) (قل الله أعبد
مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه »
ويعدون من البيدع المقابلة وهي أن يوفق بين ١٠٠ مان وانظارها والمضاد
بضده وذلك مثل قول النابغة الجعدي :

فتمَّ فيه مايسر صديقه علي ان فيه مايسوه الأعدايا
وقال تأبط شرا :

أهز به في ندرة الحى عطفه كاهز عطفي بالهجان الاوارك
وكقول الآخر :

واذا حديث ساءني لم أكتئب واذا حديث سرني لم أمرر
وكقول الآخر :

وذى اخوة قطعت أقران بينهم كما تركوني واحيدا لا أخاليا
ونظيره من القرآن (١٦ : ٥٣ - ٥٤) . « ثم اذا مضى الضر فاليه
تجارون . ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون »
ويعدون من البيدع الموازنة ^(١) وذلك كقول بعضهم : اصبر على حر اللقا
ومضض النزال وشدة المصارع ^(٢) وكقول امرئ القيس :

سليم الشظاء على الشوى شنج "نسا

(١) للموازنة : تسارى الفاصلتين في الوزن دون التقفية نمو : (و تمارق مصفوفة ، و زرابي منونه)
وكقول امرئ القيس :

اماد فساد ، وقاد فزاد وساد فجاد ، وعاد فافضل

وهي تشبه بالمائة التي سلف ذكرها ، والفرق بينهما دقيق

(٢) في النسخة الخطية « المصاع »

ونظيره من القرآن (٨٥ : ١ - ٣) « والسماوات البروج . واليوم الموعود
وشاهد ومشهود »

ويعدون من البديع المساواة وهي أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا يزيد
عليه ولا ينقص عنه وذلك يعدّ من البلاغة وذلك كقول زهير :
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها نخفي على الناس تعلم
و كقول جرير :

فلو شاء قومي كان حلبي فيهم^١ وكان على جهال أعدائهم جهلي^(١)
و كقول الآخر :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل وانحنا أصبت حلبياً أو أصابك جاهل
و كقول الهذلي :

فلا نجيز عن من سنة أنت سرتها وأول راض سيرة من يسيرها
و كقول الآخر :

فإن هم طاعوك فطاعوهم وان نظير ذلك في القرآن كثير

ومما يعدونه من البديع الإشارة وهو اشتغال اللفظ القليل على المعاني
الكثيرة . وقال بعضهم في وصف البلاغة لمحّة دالة^(٢) . ومن ذلك قول طرفة :

فظل لنا يوم لذيذ بعمّة فقل في مقيل نحسه متقيّب
و كقول زيد الخليل :

فخبية من يخيب على غنى وباهلة بن أعصر والرباب

ونظيره من القرآن (١٣ : ٣١) « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو
قطعت به الأرض أو كلم به الموني » ومواضع كثيرة

ويعدون من البديع المبالغة والغلو^(٣) والمبالغة تأكيد معاني القول وذلك

(١) في النسخة الخطية ، وكان على اعداد جهالم جهلي ، ولعله سهو من الناسخ

(٢) نسبة ابن رشيقي لخلف الآخر

(٣) قد تقدم له ذكر الغلو ، وشرحنا معناه عندئذ

كقول الشاعر :

ونكرم جارنا ما كان فينا وتنبه الكرامة حيث مالا
ومن ذلك قول الآخر .

وهم تركوك أسلح من حباري رأيت صقراً وأشرداً من نعام
فقوله رأيت صقراً مبالغة . ومن الغلو قول أبي نواس :

توهمتها في كأسها فكأنما توهمت شيئاً ليس يدركه العقل
فما يرتقي التكييف فيها إلى مدى يحد به إلا ومن قبله قبل
وقول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
وكقول النابغة :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وأنا لئرجو فوق ذلك مظهرا
وكقول الخنساء :

وما بلغت كف امري . متناول بها المجد إلا حينما نلت أطول
وما بلغ المهدون في القول مدحة وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل
وقول الآخر

له هم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها على البرصار البرأندی من البحر
ويرون من البديع الايغال^(١) في الشعر خاصة فلا يطلب مثله في القرآن
إلا في الفواصل كقول امريء القيس .

كأن عيون الوحش حول خباتنا وأرحلنا الجزع الذي لم ينقب
وقد أوغل بالقافية في الوصف وأكد التشبيه لها والمعنى قد يستقل دونها

(١) الايغال : ان يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ الى مقطعه ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى اخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا

ومن البدیع عندہم التوشیح وهو أن یشید أول البیت بقافینته وأول الكلام بآخره كقول البحتری :

فليس الذي حلقته بحلحل وليس الذي حرمته بحرام
ومثله في القرآن (٥ : ٣٩) « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه »

ومن ذلك رد عجز الكلام على صدره كقول الله عز وجل (١٧ : ٢١)
« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »
وكقوله (٢٠ : ٦١) : « لا تقفروا على الله كذباً فيسحقكم بهذاب وقد خاب من اقترى » : ومن هذا الباب قول القائل .

وان لم يكن إلا تعلق ساعة قليلا فاني نافع لي قليلا
وكقول جرير :

سقى الرمل جون مستهل غمامه وما ذاك إلا حب من حل بالرمل
وكقول الآخر :

بود الفتى طول السلامة والغنى فكيف يرى طول السلامة يفعل
وكقول أبي صخر الهذلي :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وكقول الآخر :

أصدت بأيدي العيس عن قصد أرضها وقلبي اليها بالمودة قاصد
وكقول عمرو بن معدى كرب :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

ومن البدیع صحة التقسيم^(١) ومن ذلك قول نصيب :

(١) التقسيم الصحيح ان تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع انواعه ولا يخرج منها جنس من اجناسه . فمن ذلك قول الله تعالى (هو الذي يربكم البرق خوفاً وطمعاً) وهذا احسن تقسيم لان الناس ضد رؤية البرق بين خائف وطماع

فقال فريق القوم لا وفريقهم نعم وفريق قال ويحك ما يدري
وليس في أقسام الجواب أكثر من هذا . وكقول الآخر :

فكأنما فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم
وقول المقدم الكندي :

وان يأكلوا لحمي وفرت لحومهم^(١) وان يهدوا مجدي بنيت لهم مجددا
وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان هم هووا غيبي هويت لهم رشدا
وان زجروا طيرا بنحس تمر بني زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
وكقول عروة بن حزام :

بن لو أراه غائبا لفديته ومن لو رآني غائبا لفدائي

ونحوه قول الله عز وجل (١ : ٢٥٧) « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من
الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور
الى الظلمات »

ونحوه صحة التفسير ، كقول الفاضل :

ولى فرس بالحلم بالحلم ملجهم ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
ومن البديع التكميل والتتميم^(٢) كقول نافع بن خليفة :
رجال اذا لم يقبلوا الحق منهم ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع
وانما تم جودة المعنى بقوله ويعطوه وذلك كقول الله عز وجل (٣١ : ٣٤)
« ان الله عنده علم الساعة » الى آخر الآية . ثم قال : « ان الله عليم خبير »
ومن البديع الترصيع^(٣) وذلك من ألوان منها قول امرئ القيس :

(١) الرواية : فان اطلوا لحمي وفرت لحومهم

(٢) هو ان توفى المعنى حظه من الجودة وتعطيه نصيبه من الصحة ، ثم لا تبادر معنى يكون فيه
تمامه الا نوره او انظما يكون فيه توكيده الا تذكر .

(٣) الترصيع : ان يكون حشو البيت مسجوعا ، وهو انواع وضروب

محش محش مقبل مدبر معا كتميس ظباء الحلب في العدوان (١)
ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس

يامنة امتنها السكر ما ينقضي مني لها الشكر
و كقوله وقد ذكرناه قبل هذا :

ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجوا من منه عوار
ومن ذلك الترصيع مع التجنيس كقول ابن المعتز :

ألم تجزع على الربع المحيل وأطلال وأنار محول

وظيره من القرآن كقوله : (٧ : ٢٠١ - ٢٠٢) « ان الذين اتقوا اذا

مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يدعونهم في النفي

ثم لا يقصرون » وقوله (٦٨ : ٢ - ٣) : « ما أنت بنعمة ربك بهجنون وان

لك لا أجراً غير ممنون » و كقوله (١٠٠ : ٧ - ٨) « وانه على ذلك لشبيده وانه

لحب الخير لشديد » و كقوله (٥٢ : ١ - ٢) : « والطور . وكتاب مسطور »

وقوله (٧٩ : ٣ - ٤) : « والسابحات سبحاً . فالسابقات سبقاً » وقد أوع

الشعراء بنحو هذا فأكثر وفيه ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف

الكلام ومنهم من بنى كلامه عليه كقول ابن الرومي :

أبدانهم وما لبد ن من الحرير معاً حرير

أردانهم وما مسس ن من العبير معاً عبير

و كقوله :

فلزاهب أن لا يربب أمانه ولراغب أن لا يريث نجاحه

ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى المضارعة وذلك كقول الخنساء :

حامي الحقيبة محمود الخليفة مه دي الطريقة نفاع وضرار

(١) هذه رواية البيت في اصول الكتاب ، وفي شعر امرئ القيس مكر مفرد الخ ، والحلب : بقلة
تأكلها الوحش فتضم عليها بطونها وقال القتيبي هو نبات تعاده الظباء يخرج منه ما يشبه اللبن اذا قطع وانما

سمي الحلب لتحمه ، والعدوان : المسرع

جواب قاصية جزاز ناصية عقاد أولوية للخيل جرار
 ومن البديع باب التكافؤ، وذلك قريب من المطابقة، كقول المنصور .
 « لا تخرجوا من عز الطاعة الى ذل المعصية » وقول عمر بن ذر : « انا لم نجد لك
 اذ عصيت الله فينا خيراً من أن نطيع الله فيك » ومنه قول بشار :
 اذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها مُعمرًا نم م
 ومن البديع باب التعطف ؛ كقول امرئ القيس :
 عود على عود على عود خلق

وقد تقدم مثله

ومن البديع السلب والایجاب، كقول القائل :
 ونكر ان شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول
 ومن البديع السكناية والتعريض، كقول القائل :
 وأحر كالديباج أما مماؤه فرياً وأما أرضه فمحول
 ومن هذا الباب لحن القول

ومن ذلك العكس والتبديل، كقول الحسن : « ان من خوفك لتأمن
 خير من أمتك لتخاف » و كقوله : « اللهم أغنى بالفقر اليك ولا تفقرني
 بالاستغناء عنك » و كقوله : « هم دنياك بأخرتك تربحها جميعاً، ولا تبع
 آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً » و كقول القائل

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا
 وقد يدخل في هذا الباب قوله تعالى (٢٢ : ٦١) : « يولج الليل في
 النهار ويولج النهار في الليل » . ومن البديع الانتفات، فن ذلك ما كتب الى
 الحسن بن عبد الله العسكري، أخبرنا محمد بن عبد الله الصولي، حدثني يحيى
 ابن علي المنجم عن أبيه عن اسحاق بن ابراهيم قال : قال لى الأصمعي : أتعرف
 التفاتات جرير ؟ قلت : لا، فما هي ؟ قال :

أتدسى اذ قودعنا سليمي بفرع بشامة ؤسقى البشام

ومثل ذلك لجرير :

مقى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

ومعنى الالتفات أنهُ اعترض في الكلام قوله « سقيت الغيث » ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً وكان الكلام منتظماً وكان يقول « مقى كان الخيام بذي طلوح أيتها الخيام » فقى خرج عن الكلام الاول ثم رجع اليه على وجه يالطف كان ذلك التفاتاً . ومثله قول النابغة الجعدي :

ألا زعت بنو سعد بأني - ألا كذبوا - كبير السن فاني

ومثله قول كثير :

لو أن الباذين ، وأنت منهم ، رأوك تعلموا منك المطالا

ومثله قول أبي تمام :

وأنجدم من بعد اتهام داركم فيادع أنجدني على سا كني نجد

وكقول جرير :

طرب الحمام بذي الأراك فشاقتي لا زلت في غل وأبك ناضر

التفت الى الحمام فدعا لها ، ومثله قول حسان :

ان التي ناولتني فرددتها قُتلت قُتلت فهاتها لم تقتل

ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

وأجمل اذا ما كنت لا بد ما نعا وقد بنع الشيء الفتي وهو مجمل

وكقول ابن ميادة :

فلا صرته يبدو وفي اللبس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكاره

ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله تعالى عن ابراهيم الخليل من قوله

(٢٩ : ١٦ - ٢٤) : « اعبدوا الله واتقوه ذاكم خير لكم ان كنتم تعلمون .

انما تعبدون من دون الله أوثاناً ونخلقون أفكاً - الى قوله - فما كان جواب قومه »

وقوله عز وجل (١٤ : ٢٠-٢١) : « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ورزوا لله جميعا » ومثله قوله (١٠ : ٢٢) : « حتى اذا كنتم في الفلك وجرين ٣٢ يريح طيبة » الى آخر الآية . ومثله قوله (٧ : ١٧٥ - ١٧٦) : « وائل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسخ منها - الى قوله - فثأله كمثل السكاب ان نحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ومثله قوله (٥ : ٣٨ - ٣٩) : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه »

ومنهم من لا يعد الاعتراض والرجوع من هذا الباب ، ومنهم من يفرد عنه كقول زهير :

قف بالديار التي لم يعنها القدم نعم وغيرها الأرواح والديم^(١)
و كقول الاعرابي .

أبس قليلا نظرة ان نظرتها اليك ، وكلا ليس منك قليل
و كقول ابن هرمة :

ليت حظي كاحظة العين منها وكثير منها القليل المهنا
ومن الرجوع قول القائل .

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على ان قرب الدار خير من البعد^(٢)
وقال الاعشى .

صرمت ولم أصرمكم وكصارم أخ قد طوى كشحا وآب ليذهبا
و كقول بشار :

لى حيلة فيمن يئم وليس في السكداب حيله
من كان بخلاق ما بقو ل خيلتي فيه قليله

(١) كذا في النسخة : « نعم ، وغيرها الخ ، وهو اجود وعليه يتم الاستشهاد ويكمل (٢) في الحطية : « ولم يشف » بالون الموحدة ، والذي في ديوان ابن الدبنة بطابق ما ائتاه باليه المتأنة والعمل مبني للمجهول

وقال آخر .

وما بي انتصار ان غدا الدهر ظلمي عليّ بلى ان كان من عندك النصر
وباب آخر من اللبديع يسمى التذييل ، وهو ضرب من التأكيد وهو ضد
ما قدمنا ذكره من الاشارة ، كقول أبي دواد :

اذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب
وأخذه الحطيئة فقال :

فدعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه اذا لم أنزل
ر كقول جرير .

لقد كنت فيها يا فرزدق تابماً وریش الذنابي تابع للقوام
ومثله قوله عز وجل (٢٨ : ٤ - ٨) : « ان فرعون علا في الأرض وجعل
أهلها شيعاً » . الى قوله : « انه كان من المفسدين ويريد أن نمن على الذين
استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين - الى قوله - كانوا خاطئين »
وباب من اللبديع يسمى الاستطراد فمن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد
الله قال أنشدني أبو بكر بن دريد قال أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة الحسان بن
ثابت رضي الله تعالى عنه :

ان كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الاحبية لم يقاتل دونهم ورمى برأس طيرةً ولجام (١)
و كقول السموأل :

وانا لقوم لانرى القتل سبباً اذا ما رأته عامر وسلول
و كقول الآخر :

خليتي من كعب أعينا أذاك على دهره ان الكريم معين
ولا تبخلا بمخل ابن قوعة انه مخافة أن يرجي نواه حزين

(١) كذا بالاصلين : « لم يقاتل » الخ . والذي في ديوان حسان : « ترك الاحبية أن يقاتل دونهم »

و كقول الآخر :

فأذُرُّ قرن الشمس حتى كأننا من العبي نحكى أحمد بن هشام
و كقول زهير :

ان البخيل ملوم حيث كان وا' كُنَّ الحوادِ على علاقته هرم
وفيما كتب الى الحسن بن عبد الله قال : أخبرني محمد بن يحيى ، حدثني
محمد بن علي الأنباري ، قال : سمعت البحترى يقول : أنشدني أبو تمام لنفسه :

وسابح هطل التعداء هتان على الجراء أمين غير خوآن
أظمى الفصوص ولم تظلماً قوائمه فجل عينك في ريان ظمآن

ولو تراه مشيحاً والحصى فلق بين السنايك من مثني ووحدان
أيقنت - ان لم تثبت - أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عمان

وقال لي : ما هذا من الشعر ؟ قلت : لأدرى . قال : هذا المستطرد ، أو
قال : الاستطراد ، قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : برى أنه يصف الفرس ويريد
هجا ، عمان ، فقال : وقل البحترى :

ما ان يماف قذى ولو أوردته يوما خلأتي حمدويه الاحول
قال : فقيل للبحترى : انك أخذت هذا من أبي تمام ، فقال ما يعاب علي

ان آخذ منه وأتبعه فيما يقول . ومن هذا الباب قول أبي تمام :

صب الفراق علينا صب من كتبنا عليه اسحق يوم الزوع منقما
ومنه قول السري الرفاء :

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة برمى بسهم الحين من يرمى به

ليت الزمان أصاب حب قلوبهم بقنا ابن عبد الله أو بجراه

ونظيره من القرآن (١٦ : ٤٨ - ٤٩) : « أولم يروا الى ما خلق الله من

شيء يتغيؤ ظلالة عن اليمين والشمال سجداً لله وهم داخرون والله يسجد ما في
السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » كأنه كان

المراد أن يجري بالقول الاول الى الاخبار عن ان كل شيء يسجد لله عز وجل
وان كان ابتداء الكلام في أمر خاص

ومن البديع عندهم التكرار كقول الشاعر:

هلا سألت جموع كنه دة يوم ولوا أين أين
وكقول الآخر :

وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أولى لها

ونظيره من القرآن (٩٤ : ٥ - ٦) « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » والتكرار في قوله (١٠٩ : ١) « قل يا أيها الكافرون » وهذا فيه معنى زائد على التكرار لانه يفيد الاخبار عن الغيب . ومن البديع عندهم ضرب من الاستثناء^(١) كقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
وكقول النابغة الجعدي :

قى كمت أخلاقه غير أنه جواد فلا يبقي من المال بقيا
قى تم فيه مايسر صديقه على ان فيه ما يسوء الاعاديا
وكقول الآخر :

حليم اذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب
وكقول أبي تمام :

تنصل ربها من غير جرم اليك سوى النصيحة والوداد
ووجوه البديع كثيرة جدا فقتصرنا على ذكر بعضها ونهينا بذلك على
مالم نذكر كراهة التطويل ، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع
وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة اعجاز القرآن من هذه الابواب التي
قلناها وان ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا ، لان

(١) يسمونه تأكيد المدح بما يشبه الذم

هذه الوجوه إذا وقع التنبية عليها أمكن التوصل اليها بالتدرب والتعود والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الانسان طريقه صح منه العمل له وأمكنه نظمه ، والوجوه التي نقول ان اعجاز القرآن يمكن أن يُعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال ، وبين ما قلنا ان كثيرا من المحدثين قد تصنع لآبواب الصنعة حتى حشى جميع شعره منها واجتهد ان لا يفوته بيت الا وهو يمازه من الصنعة ، كما صنع أبو تمام في لاميته :

متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل وصدرك منها مده الدهر آهل
تطل طول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار الموائل
دوارس لم يحف الربيع ربوعها ولا مرة في اغفالها وهو غافل
فقد سحبت فيها السحاب ذيوها وقد أختلت بالنور تلك الخائل
تعمين من زاد العفاة اذا اتحى على الحى صرف الازمة المتاحل
لهم سلف سمر العوالى وسامر وفيهم جمال لا يفيض وجمال
لبالى أضلت العزاء وخذلت بعقلك آرام الخدور العقائل
من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت لها وشحا حالت عليه الخلاخل
مهى الوحش الا ان هاتا أو انس قنا الخط الا ان تلك ذوابل
هوى كان خلسا ن من أطيب الهوى ^(١) هوى حلت في أفيائه وهو خامل

ومن الادبا. من عاب عليه هذه الابيات ونحوها على ما قد تكلف فيها من البديع ، وتعمل من الصنعة ، فقال قد أذهب ماء هذا الشعر وروقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه ، وقد تعصب عليه أحمد بن عبيد الله ابن عمار وأصرف حتى تجاوز الى الغض من محاسنه ، ولما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبديع في التبييح وهو يريد أن يبديع في الحسن كقوله في قصيدة أولها :

(١) ان هنا هي التي بمعنى « نعم »

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد
فقال فيها :

لعمري لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد
وكقوله

لو لم تدارك مُسنّ المجد مذ زمن بالجود والباس كان المجد قد خرفا
فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت كقوله :

تسعون ألفا كآساد الشرى فضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب
وكقوله :

لو لم يمّت بين أطراف الرماح إذا لمات ، اذ لم يمّت ، من شدة الحزن
وكقوله :

خشنت عليه أخت بني خشين

وكقوله :

ألا لا يمدّ الدهر كفاً بي . الى مجتدى اصر فتقطع من الزند
وقال في وصف المطايا :

لو كان كلفها عبيد حاجة يوماً لزنتي شدقماً وجديلا
وكقوله :

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عوداً ركوبا
فهذا وما أشبهه ، انما يحدث من غلوه في محبة الصنعة حتى يعميه عن وجه
الصواب ، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة
وقبرها حتى استنقل نظمه واستوخم رصمه و كان التكليف بارداً والتصرف
جامداً ، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح ، كما يتفق البارد القبيح
فأما البحروري فانه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام ويقل التصنع له
فاذا وقع في كلامه كان في الاكثر حسناً رشيقاً وظرياً جميلاً وتصنعه للمطابق
كثير حسن وتممه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة

فذلك يخرج سليماً من العيب والاكبر وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسن وقعود العبارات عن الغاية القصوى فشيء لا بد منه وأمر لا محيص عنه كيف وقد وقف على من هو أجل منه وأعظم قدراً في هذه الصنعة وأكبر في الطبقة كإريء القيس وزهير والنابغة والى يومه ونحن نبين تميز كلامهم^(١) وانحطاط درجة قولهم ونزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن في باب مفرد يتصور به ذوالصنعة ما يجب تصوره ويتحقق وجه الإعجاز فيه بمشيئة الله وعونه

ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدمناه من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه ، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرج العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له ، كقول الشعر ، ووصف الخطب ، وصناعة الرسالة ، والخلق في البلاغة . وله طريق يسلك ، ووجه يقصد ، وسلم يرتقى فيه إليه ، ومثال قد يقع طالبه عليه . فرب إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً ، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعاً أو صنعة متصلة ، لا يسقط من كلامه حرف ، وقد يباده به ما قد تعودده ، وأنت ترى أديبا زماننا يضيفون المحاسن في جزء وكذلك يؤلفون أنواع البارع ثم ينظرون فيه إذا أرادوا انشاء قصيدة أو رسالة أو خطبة فيحشون به كلامهم ، ومن كان قد تدرب وتقدم في حفظ ذلك اشغل عن هذا التصنيف ولم يحتاج إلى تكاف هذا التأليف ، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسماً من باع كلامه ووشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله . وهذا طريق لا يتعذر وباب لا يمتنع وكل يأخذ فيه مأخذاً ويقف فيه موقفاً على قدر ما معه من المعرفة وبحسب ما عمدته من الطبع

فأما شأؤ نظم القرآن فليس له مثال يمتدى إليه ، ولا امام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً ، كما يتفق للشاعر البيت النادر ، والكلمة الشاردة ،

(١) كذا في النسخة الخطية ، وفي المطبوعة : « كلامه » وهو خطأ

والمعنى الغد الغريب ، والشيء الغليل العجيب ، وكما يلحق بكلامه بالوحشيات^(١) ويضاف من قوله الى الأابد ، لان ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع فاما يتفق للشاعر في لمع من شعره ، والكاتب في قليل من رسائله ، وللخطيب في يسير من خطبه ، ولو كان كل شعره نادراً ، ومثلاً سائراً ، ومعنى بديعاً ، ولغزاً رشيقاً وكل كلامه مملوئاً من رونقه ومائه ، ومملأً^(٢) بهجته وحسن روايته ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين ، والمتردّد بين الطرفين ، ولا البارد المستقل ، والغث المستنكر لم يبين الاعجاز في الكلام ، ولم يبين التفاوت العجيب بين النظام والنظام .

وهذه جملة تحتاج الى تفصيل ، ومبهم قد يحتاج في بعضه الى تفسير ، وسند كذا ذلك بمشيئة الله وعونه . ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه اليهم ، ان ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة وانه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحتهم . واذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضوع كان جديراً . وانما لم نطلق القول اطلاقاً لاننا لا نجعل الاعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصة ووقفاً عليها ومضافاً إليها ، وان صح ان تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة آخذة بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع

﴿ فصل في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن ﴾

قد بينا انه لا يتهم لمن كان لسانه غير العربية من العجم والنرك وغيرهم ان يعرفوا اعجاز القرآن الا أن يعلّموا ان العرب قد عجزوا عن ذلك فاذا عرفوا هذا بأن علّموا أنهم قد سجدوا على أن يأتيوا بمثله وقروا على ترك الايمان بمثله ولم يأتيوا به تدينوا أنهم عاجزون عنه ، واذا عجز أهل ذلك اللسان فهم عنه أعجز .

(١) انظر في هذه الجملة قلق واضطراب

(٢) في الخطبة ملاء يضم الميم الاولى وفتح الثانية

وكذلك نقول : ان من كان من أهل اللسان العربي الا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى الى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف اعجاز القرآن إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء

فأما من كان قد تنهى في معرفة اللسان العربي ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذي ينتهي اليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه اعجاز القرآن كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الحميد والردى والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب ، وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم فيعرف الصبر في من النقد ما يخفى على غيره ، ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته وورده ما يخفى على غيره ، وان كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر وربما اختلفوا فيه ، لان من أهل الصناعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين ، ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه وتروع بهجته ورواؤه ويسلس مأخذه ، ويسلم وجهه وينفذه ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى ، كما يختار قوم ما يغمض معناه ويعرب لفظه ويختار ما سهل على اللسان وسبق الى البيان ، وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيراً فقال كان لا يمدح الرجل الا بما فيه ، وقال ابيد بن الحسحاس حين أنشده

كفى الشيب والاسلام للمرء ناهياً :

أما انه لو قلت مثل هذا لاجزتك عليه ، وروى ان جريرا سئل عن أحسن الشعر فقال : قوله :

ان الشقي الذي في النار منزله والفوز فوز الذي ينجو من النار
كانه فضله لصدق معناه . ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والافراط فيه

حتى ربما قالوا : أحسن الشعر أ كذبه ، كقول النابغة :
 يقدُّ السلوقي لمضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار الجبابح
 وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في اللغو والافتصاد وفي المتانة
 والسلاسة ، ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أ كثر صنعة وألطف تعملا
 وان يتخير الالفاظ الرشيقة للمعاني البديمة والقواري الواقعة كذهب البحترى
 وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب :

في نظام من البلاغة ما شكَّ امرؤ انه نظام فريد
 وبديع كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد
 حزن مسموع الكلام اختيارا ونجيبين ظلمة التعقيد
 وركبين اللفظ القريب فادركن به غاية المراد البعيد
 ويرون ان من تعدى هذا كان سالكا مسلكا عاميا ولم يروه شاعرا ولا
 صيبيا ، وفيما كتب الحسن بن عبد الله أبو أحمد العسكري قال : اخبرني محمد
 ابن يحيى ، قال : اخبرني عبد الله بن الحسن قال : قال لي البحترى : دعاني الى
 ابن الجهم فضيت اليه فافضنا في اشعار المحدثين الى ان ذكرنا شعر أشجع فقال
 لي : انه بخلي ، وأعادها مرات ، ولم أفهما ، وانفت ان أسأله عن معناها . فلما
 انصرفت أفكرت في الكلمة ونظرت في شعره فاذا هو ربما مرت له الايات
 مفسولة ليس فيها بيت رائع واذا هو يريد هذا بعينه أن يعمل الايات فلا يصيب
 فيها بيت نادر ، كما أن الرامي اذا رمى برشقة فلم يصب بشيء قيل : قد أخلى .
 قال : وكان علي بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر

وقوم من أهل اللغة يميلون الى الرصين من الكلام الذي يجمع الغريب
 والمعاني مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والاصمعي ، ومنهم من يختار
 الوحشي من الشعر كما اختار المفضل للمنصور من الفضليات ، وقيل انه اختار
 ذلك لميله الى ذلك الفن ، وذكر الحسن بن عبد الله انه أخبره بعض الكتاب

عن علي بن العباس قال : حضرت مع البحترى مجلس عبید الله بن عبد الله بن طاهر : وقد سأل البحترى عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر ، فقال البحترى : أبو نواس أشعر ، فقال عبید الله : ان أبا العباس تعلمنا لا يطابقك على قولك ويفضل مسلما ، فقال البحترى : ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله إنما يعلم ذلك من وقع في سلك الشعر الى مضايقه وانتهى الى ضروراته ، فقال له عبد الله : وريت بك زنادى يا أبا عبادة وقد وافق حكك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال : جرير أشعرهما ، فقيل له بماذا : فقال لان جريرا يشد اذا شاء وليس كذلك الفرزدق لانه يشمد ابدأ ، فقيل له . فان بونس وأبا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير ، فقال : ليس هذا من عمل أولئك القوم إنما يعرف الشعر من يضطر الى أن يقول مثله ، وفي الشعر ضرور لم يحسنها الفرزدق واقد ماتت النوار امرأته فذاح عليها بقول جرير :

لولا الحياء لعادني استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار
وروي عن أبي عبيدة أنه قال للفرزدق . مالك لا تنسب كما ينسب
جرير ؟ فغاب حولا ثم جاء . فأنشد :

يا أخت ناجية بن سامة انني أخشى عليك بني ان طلبوا دمي ^(١)
والاعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب
الحاسة ، وما اختاره من الوحشيات ، وذلك أنه تنكر المستنكر الوحشي والمبتدل
الدمي . وأتى بالواسطة . وهذه طريقة من ينصف في الاختيار ، ولا يعدل به
غرض بخص . لان الذين اختاروا الغريب قائما اختاروه لفرض لهم في تفسير
ما يشبهه على غيرهم ، واظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ، ولم يكن
قصدهم جيد الاشعار لشيء يرجع اليها في أنفسها . ويبين هذا أن الكلام

(١) كذا النسخة الخطية : « يا أخت ناجية » بالياء الثالثة من تحت ، وفي المطبوعة « ناجية » بالموحدة

موضوع للإبانة عن الاغراض التي في النفوس ، و اذا كان كذلك و جب ان يتخبر من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد ، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ، ومستنكر المورد على النفس ، حتى يتأني بقراءته في اللفظ عن الافهام ، أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة ، و يجب أن يتمك ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة ، ريك المعنى ، سفاسفي الوضع ، مجتلب التأسيس على غير أصل ممد ، ولا طريق موطن ، وإنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع ولذلك وضع أصلها على [أن ^(١)] أكثرها بالحروف المتدلة ، فقد أهملوا الالفاظ المستكرهه في نظامها ، وأسقطوها من كلامهم ، فجزى لسانهم على الأعدل ، ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي لانهم بدءوا بحرف وسكتوا على آخر وجعلوا حرفا وصلة بين الحرفين ليتم الابتداء والانهاء على ذلك والثنائي أقل وكذلك الرباعي والخامس أقل ، ولو كان كاه ثنائيا لتكررت الحروف ، ولو كان كاه رباعيا أو خماسيا لتكررت الكلمات ، وكذلك بني أمر الحروف التي ابتدئ بها السور على هذا ، فأكثر هذه السور التي ابتدئت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف ، وما هو أربعة أحرف سورتان ، وما ابتدئ بمخمسة أحرف سورتان ، فأما ما بدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه : ففهم من لم يجعل ذلك حرفا وإنما جعله فعلا واسما لشيء خاص ، ومن جعل ذلك حرفا قال أراد أن يحقق الحروف مفردا ومنظوما ، ولضيق ما سوى كلام العرب أو لخروجه عن الاعتدال يتكرر في بعض الاسنة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيرا ، كنجو تكرر الطاء والسين في لسان يونان ، و كنجو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك ، ولذلك لا يمكن أن ينظم من الشعر في تلك الاسنة على الاعراض التي تمكر في اللغة العربية ، والعربية أشدها تمكنا وأشرفها تصرفا وأعددها ، ولذلك جعلت حامية لنظم القرآن ، وعلق بها الاعجاز ، وصارت دلالة

في النبوة ، واذا كان الكلام انما يفيد الابانة عن الاغراض القائمة في النفوس التي لا يمكن التوصل اليها بانفسها وهي محتاجة الى ما يعبر عنها فما كان أقرب في تصويرها وأظهر في كشفها لفهم الغائب عنها - وكان مع ذلك أحكم في الابانة عن المراد وأشد تحقيقا في الايضاح عن الطلب وأعجب في وضعه وأرشق في تصرفه وأبرع في نظمه - كان أولى وأحق بأن يكون شريفاً ، وقد شهبوا النطق بالخط والخط يحتاج مع بيانه الى رشاقة وصحة ^(١) ولطف حتى يجوز الفضيلة ويجمع السكال ؛ وشهبوا الخط والنطق بالتصوير ؛ وقد أجمعوا أن من أحق المصورين من صور لك الباكى المتصاحك والباكي الحزين والمتصاحك المتباكي والمتصاحك المستبشر وكما أنه يحتاج الى لطف يد في تصوير هذه الامثلة فكذلك يحتاج الى لطف في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس للغير ، وفي جملة الكلام الى ^(٢) ما تقصر عبارته وتفضل معانيه ، وفيه ما تقصر المعاني وتفضل العبارات ، وفيه ما يقع كل واحد منها وفقاً للآخر ، ثم ينقسم ما يقع وفقاً الى ^(٣) انه قد يفيدها على تفصيل ؛ وكل واحد منها قد ينقسم الى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منها بديعاً شريفاً وغريباً لطيفاً ، وقد يكون كل واحد منها مستجلباً متكلفاً ومصنوعاً متعسفاً ، وقد يكون واحد منهما حسناً رشيقاً وبهيجاً نضيراً ، وقد يتفق أحد الامرين دون الآخر ، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة في واحد منهما ، انما يميز من يميز ويعرف من يعرف ، والحكم في ذلك صعب شديد والفضل فيه شأو بعيد ، وقد قل من يميز أصناف الكلام ، فقد حكى عن طبقة أبي عبيدة وخلف الاحمر وغيرهم في زمانهم انهم قالوا ذهب من يعرف نقد الشعر ، وقد بينا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار ، وما يجب أن يجمعوا عليه ويرجعوا عند التحقيق اليه ،

(١) في الخطبة يباصر بتسع لكلمة واحدة

(٢) كذا في النسختين وأمل كلمة (الى) زيادة عما يقتضيه المراد من العبارة

(٣) في هذه العبارة اضطراب جعل فهم المراد بعيداً

وكلام المقتدر نط وكلام المتوسع باب ، وكلام المطبوع له طريق ، وكلام المتكلف له منهاج ، والكلام المصنوع المطبوع له باب ، ومتى تقدم الانسان في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه ولم تشبهه عنده هذه الطرق ، فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه ، وقدر كل كلام في نفسه ، ويحمله ويمتد فيه ما هو عليه ويحكم فيه بما يستحق من الحكم ، وان كان المتكلم يجود في شيء دون شيء عرف ذلك منه ، وان كان يمم احسانه عرف . ألا ترى أن منهم من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يجود في الهجو وحده ، ومنهم من يجود في المدح والسخف ، ومنهم من يجود في الاوصاف ، والعالم لا يشذ عنه مراتب هؤلاء . ولا يذهب عليه اقدارهم ، حتى انه اذا عرف طريقة شاعر في قصائد معدودة فأشدد غيرها من شعره لم يشك أن ذلك من نسجه ولم يرتب في أنه من نظمه ، كما أنه اذا عرف خط رجل لم يشبهه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة ، وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره ، وكذلك أمر الخطاب ، فان اشبهه عليه البعض فهو لاشتباه الطرفين ، ومماثل الصورتين كما قد يشبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه التصنع ، ويقصد فيه التسهل ، ويسلك الطريقة السكتامية ، ويتوجه في تقريب الالفاظ وترك تعويض المعاني ، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري وألفاظه ، ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبي نواس ، ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري ، وينبهه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه وبدع رونقه وبهجة كلامه ، الا فيما يسترسل فيه فيشبهه بشعر ابن الرومي ، ويحركه ما لشعر أبي نواس من الحلاوة والرقّة والرشاقة والسلاسة حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم وكذلك يميز بين شعر الاعشى في التصرف ، وبين شعر امرئ القيس ، وبين شعر النابغة وزهير ، وبين شعر جرير والاخلط والبميت والفرزدق ، وكل له منهج معروف ، وطريق مألوف ، ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل

عبد الحميد وطبقته ، وبين طبقة من بعده ، حتى أنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره . ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل ، وتقدم في شأوها ، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خاص لنفسه طريقة ، وأنشأ لنفسه منهاجا ، فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل ، وبرع في ذلك باقتداره ، وتقدم ، بحذقه ، ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقة من طريق غيره ، وان كان قد يشتبه البعض ، ويدق القليل ، وتغمض الاطراف ، وتشد النواحي وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصره ، وتتدانى رسائل كتاب دهره ، حتى تشبه اشقباها شديداً ، وتماثل تماثلاً قريباً ، فيغمض الفصل . وقد ينشا كل الفرع والأصل ، وذلك فيما لا يتعذر ادراك أمده ، ولا يتصعب طلاب شأوه ، ولا يتمتع بلوغ غايته والوصول الى نهايته ، لأن الذي يتفق من الفصل بين أهل الزمان اذا تفاضلوا (١) وتفاوتوا في مضار فصل قريب وأمر يسير ، وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الالفاظ وسارق المعاني ، ولا من يخترعها ولا من يلم بها ، ولا من يجاهر بالاخذ ممن يكتم به ، ولا من يخترع الكلام اختراعاً ويتندهه ابتداها ممن يروى فيه ويجميل الفكر في تنقيحه ويصبر عليه حتى يتخلص له ما يريد وحتى يتكرر نظره فيه

قال أبو عبيدة : سمعت أبا عمرو يقول : زهير والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر لانهم تقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان زهير يسمي أكبر شعره (الحوليات المنقحة) وقال عدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قنائه حتى يقيم ثقافه مُنَادها
وكقول سويد بن كراع :

(١) في الخطبة يياض بتع لكلمة واحدة

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادى بها سرّاً من الوحش نزعا
ومهم من يُعرف بالبدية وحدة الخاطر ونفاذ الطبع وسرعة النظم ، يرتجل
القول ارتجالاً ويطنه عفواً صفواً فلا يتعد به عن قوم قد تبعوا وكذا أنفسهم
وجاهدوا خواطرم ، وكذلك لا يخفى عليهم الكلام المألوف واللفظ المألوف ، كما
لا يخفى عليهم الكلام العامي واللفظ السوقي ، ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلاً ،
ويعطونه كيف تصرف حقوقه ، ويمرّون مراتبه ، فلا يخفى عليهم ما يختص به
كل فاضل تقدّم في وجه من وجوه النظم من الوجه الذي لا يشار به غيره
ولا يسامه سواه ، إلا تراهم وصفوا زهيراً بأنه أمدحهم وأشدّهم أثر شعره أبو
عبيدة ، وروى أن الفرزدق انتحل بيتاً من شعر جرير وقال : هذا يشبه
شعري فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه إليهم من المعرفة بهذا الشأن
وهذا كما يعلم البزازون وهذا الديباج عمل يتستر وهذا لم يعمل بتستر ، وإن هذا
من صنعة فلان دون فلان ومن نسج فلان دون فلان ، حتى لا يخفى عليه وإن
كان قد يخفى على غيره

ثم انهم يعلمون أيضاً من له سمت بنفسه ورفت برأسه ، ومن يقتدي في
الالفاظ أو في المعاني أو فيهما بغيره ، ويجعل سواه قدوة له ، ومن يلم في الأحوال
مذهب غيره ويأتي في الاحيان بمخترعه (١) وهذه أمور ممهدة عند العلماء
وأسباب معرفة عند الأدباء ، وكما يقولون ان البحري يغير على أبي تمام اغارة
ويأخذ منه صريحاً وإشارة ، ويستأنس بالأخذ منه بخلاف ما يستأنس بالأخذ
من غيره ، ويألف اتباعه كما لا يألف اتباع سواه ، وكما كان أبو تمام يلم بأبي
نواس ومسلم ، وكما يعلم أن بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى ويؤلف
ما يقوله من فرق شتى ، وما الذي نفع المتنبّي جحوده الأخذ وانكاره معرفة

(١) لفظ (بمخترعه) ساقط من الخطية ، وفي مكانه باض يتسع له ، وفيها بدل يأتي (بطورا) .

الطائفتين وأهل الصنعة يدلون على كل حرف أخذه منهما جهاراً أو ألم بهما فيه سراراً ، وأما ما لم يأخذ عن الغير ولسكن سلك النظم وراعى النهج فهم يعرفونه ويقولون هذا أشبه به من النثرة بالثمرة وأقرب اليه من الماء الى الماء وليس بينهما الا كما بين الليلة والليلة ، فاذا تباينا وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه وسلك في غير جانبه قيل بينهما ما بين السماء والارض وما بين النجم والنون وما بين المشرق والمغرب

وانما أطلت عليك ووضعت جميعه بين يديك لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله ، وغامضه وجليه ، وقريبه وبعيده ، ومعوجه ومستقيمه . فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وهو قريب متناول من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ويبعد عما هو في عرفهم ويفوت مواقع قدرهم ، واذا اشتبه ذلك فانما يشبهه على ناقص في الصنعة أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه ويدبرونه بينهم ولا يتجاوزونه ، فللكلام سبل مضبوطة وطرق معروفة محصورة ، وهذا كما يشبهه على من يدعي الشعر من أهل زماننا والعلم بهذا الشأن ، فيدعي أنه أشعر من البحري ، ويتوهم أنه أدق مسلكا من أبي نواس ، وأحسن طريقا من مسلم ، وأنت تعلم أنهما متباعدان وتمحقق أنهما لا يجتمعان ، وأهل أحدهما انما يلحظ عبارة صاحبه ، ويظالم ضياء نجمه ، ويراعي حفوف جناحه ، وهو راكد في موضعه ، ولا يضر البحري ظنه ، ولا يلحقه بشأوه وهمه

فان اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، انما يخبر عن نقصه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله . ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله . وانما قدمنا ما قدمناه في هذا الفصل لتعرف ان ما ادعينا من معرفة البليغ بما لو شأن للقرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه أمر لا يجوز غيره ولا يحتمل

سواء ولا يشبهه على ذي بصيرة ولا يخيل عند أخى معرفة ، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية وبين المحضرين وبين المحدثين ، ويميز بين من يجري على شاكلة طبعه وغيرة نفسه وبين من يشتغل بالتكاف والتصنع ، وبين من يصير التكاف له كالمطبوع وبين من كان مطبوعه كالتعمل المصنوع ، هيهات هيهات هذا امر - وان دق - فله قوم يقتلونه علماً ، وأهل يحيطون به فهما ، ويعرفونه اليك ان شئت ، ويصورونه لديك ان أردت ويجلونه على خواطرك ان احبيت ، ويمرضونه لفطنتك ان حاوت ، وقد قال القائل :

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا وللدواوين كتاب وحساب
ولكل عمل رجال ولكل صنعة ناس ، وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ، ولكن قد قل من يميز في هذا الفن خاصة ، وذهب من يحصل في هذا الشأن الا قليلاً ، فان كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات والتحقيق بجاري البلاغات ، فانما يكفيك التأمل ويفنيك التصور ، وان كنت في الصنعة مرمداً وفي المعرفة بها متوسطاً ، فلا بد لك من التقليد ولا غنى بك عن التسليم أن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها والشاذي فيها كالبائن منها فان أراد أن يقرب عليه أمراً ويفسح له طريقاً ويفتح له باباً ليعرف به اعجاز القرآن فانا نضع بين يديه الامثلة ونعرض عليه الاساليب ونصور له صورة كل قبيل من النظم والنثر ونحضر له من كل فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمله له ويراعيه حق مراعاته فيستدل استدلال العالم ويستدرك استدراك الناقد ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية الطالم عن الالهية الجامع بين الحكم والحكم والاخبار عن الغيوب والغائبات والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب لجلية اليقين والمعاني المحترقة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالالفاظ الشريفة

على تفننها وتصرفها . ونعمد الى شيء من الشعر المجمع عليه فنبين وجه النقص فيه وندل على انحطاط رعبته ووقوع أبواب الخلل فيه حتى اذا تأمل ذلك وتأمل ما نذكره من تفصيل اعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته انكشف له واتضح وثبت ما وصفناه لديه ووضح وليعرف حدود البلاغة ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة

وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين أن الفارسي سئل فقيل له ما البلاغة ؟ فقال : معرفة الفصل من الوصل . وسئل اليوناني عنها فقال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام ، وسئل الرومي عنها فقال : حسن الاقتضاب عنده البدهة والغزارة يوم الاطالة ، وسئل الهندي عنها فقال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وقال مرة : التماس حسن الموقع والمعرفة بإساحات القول وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غرض وشرذ من اللفظ وتعذر ، وزينته ان تكون الشائيل موزونة والالفاظ معدلة والهجعة تقيية وأن لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبعة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح وبصفيها كل التنصيفه ويهذبها بفاية التهذيب ، وأما البراعة ففيها يذكر أهل اللغة الخندق بطريفة الكلام ونجويده ، وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة . وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى ، وقد قيل : معناها الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس على عبارات جلية ومعان تقيية بهيمة ، والذي يصور عندك ما ضمنا تصويره ويحصل عندك معرفته اذا كنت في صنعة الادب متوسطا وفي علم العربية متبيننا ان ننظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين فان تبين لك الفصل ووقعت على جلية الامر وحقيقة الفرق فقد

أدرت الغرض وصادفت المقصد ان لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل فلا بد لك من التقليد وعلمت انك من جملة العامة وان سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان

﴿ خطبة للنبي ﷺ ﴾

روى طلحة بن عبيد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يخاطب على منبره يقول : « ألا أيها الناس ، توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا ، وبادروا الاعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتؤجروا وتمصروا ، واعلموا ان الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامى هذا في عامي هذا في شهري هذا الى يوم القيامة حياتي ومن بعد موتي . فمن تركها وله امام فلا جمع الله له شمله . ولا بارك له في أمره ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا صدقة له ، ألا ولا براه ألا ولا يوم اعرابي مهاجرا ، ألا ولا يوم فاجر مؤمناً إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه »

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

أيها الناس ، ان لكم معالم فانتموها الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتموها الى نهايتكم . ان المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله تعالى قاض عليه فيه . فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب ، ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار .

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

ان الحمد لله أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،

من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له . وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينته الله في قلبه ، وأدخله في الاسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، انه أصدق الحديث وأبلغه . أحبوا من أحب الله ، وأحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكروه ، ولا تقسوا عليه قلوبكم . اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، اتقوا الله حق تقاته وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

﴿ خطبة له ﷺ في أيام القسريق ﴾

قال بعد حمد الله : أيها الناس ، هل تدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم ؟ قالوا : في يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام . قال ألا فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا الى يوم تلقونه . ثم قال : اسمعوا مني تمبشوا ، ألا لا تظالموا (ثلاثا) . ألا انه لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب نفس منه . ألا ان كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه . ألا وان أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (كان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل) . ألا وان كل ربا كان في الجاهلية موضوع ، ألا وان الله تعالى قضى ان أول ربا يوضع ربا عمى العباس ، لكم رموس وأولكم لا تظلمون ولا تظالمون . ألا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ، ألا وان الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون ولكن في التحريش بينكم ، اتقوا الله في النساء فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وان لمن عليكم حقا ولكم عليهن حق ، ألا يوطنن فرشكم أحداً غيركم ، فان ختمن نشوزهن فعظوهن

واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكنوتهن بالمعروف ، فانما أخذتموهن بأمانة الله تعالى ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنته عليها . ثم بسط يده فقال :
ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ؟ ليلبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أبلغ من سامع

﴿ خطبته ﷺ يوم فتح مكة ﴾

وقف على باب الكعبة ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة (١) البيت وسقاية الحاج . ألا وقتل الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلفة منها أربعون خلفه في بطونهما أولادها . يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ، ثم تلا هذه الآية (٤٩ : ١٣) : « يا أيها الناس انذا خلقناكم من ذكر وأنثى » الآية . يا معشر قريش - أو يا أهل مكة - ما ترون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ ، قال : فاذهبوا فاتم الطلقاء.

﴿ خطبته ﷺ بالخيف ﴾

[روى زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خطب بالخيف من منى فقال] (٢) :
نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أدأها الى من لم يسمعها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن : اخلاص العمل لله ، والنصيحة لأولى الأمر ، ولزوم الجماعة ان دعوتهم تكون من ورائه ، ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناؤه في قلبه وآتاه الدنيا وهي راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرّق الله أمره وجعل قره بين.

(١) في الخطبة يامن يتسم لكلمة في مكان (سدانة)

(٢) هذه العبارة كلها ليست بالخطبة

عينيه ولم يأت من الدنيا الا ما كتب له .

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

رواها أبو سعيد الخدري رضى الله عنه

خطب بعد العصر فقال : ألا ان الدنيا خضرة حلوة ، ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمنع رجلا مخافة الناس أن يقول الحق اذا علمه . قال : ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس الا حمرة على أطراف السعف ؛ فقال : انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى .

﴿ كتاب النبي ﷺ الى ملك فارس ﴾

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس : سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم

﴿ كتاب له ﷺ الى النجاشي ﴾

من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة : سلم أنت فاني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكنيته ألقاها الى مريم البتول الطيبة فحملت بعيسى فحملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم [من طين] ^(١) بيده ونفخه . واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاته على طاعته وأن تتبني وتؤمن بالذي جاءني واني أدعوك وجنودك الى الله تعالى فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي . والسلام على من اتبع الهدى

(١) هذه الكلمة ليست بالنسخة الخطية

﴿ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية ﴾

هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله ﷺ سهيل بن عمرو اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشرين سنة يأمن فيه الناس ، ويكف فيه بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى رسول الله ﷺ بغير إذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه ، وان يفتنا عيمة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا اغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه ، وأنتك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فإذا كان عاماً قابلاً خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقت بها ثلاثاً ، وان مملك سلاح الرماكب والسيوف في للركب فلا تدخلها بغير هذا

ولا أطول عليك وأقتصر على ما أقبته اليك فان كان لك في السمعة حظ ، أو كان لك في هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب في الادب بسهم ، أو في العربية بقسط ، وان قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب ، فما أحسب انه يشبه عليك الفرق بين براءة للقرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله ، وما عسك تسمعه من كلامه ويتساقط اليك من ألفاظه ، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً ، وأمداً مديداً ، وميداناً واسعاً ، ومكاناً شامعاً

فان قلت لعله ان يكون تعمل للقرآن وتصنع لنظمه ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبثه ، فتثبت في نفسك وارجع الى عقلك واجمع لبيك ، وتيقن ان الخطب يحنشد لها في المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الضخام ، ولا يتجاوز فيها ، ولا يستهان بها ، والرسائل الى الملوك مما يجمع لها الاسكاتب جرابيزه ، ويشمر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقعها الاخلال ؟ وكيف يتعرض

للتغريظ ؟ فستعلم لاحالة أن نظم القرآن من الامر الالهي ، وان كلام النبي ﷺ من الامر النبوي

فاذا أردت زيادة في التبيين ، وتقدماً في التعرف ، واشرافاً على الجلية ، وفوراً بحكم القضية ، فتأمل - هداك الله - ما نلسخه لك من خطاب الصحابة والبلغاء ، لتعلم ان نسجها ونسج ما نقلنا من خطاب النبي ﷺ واحد ، وسبكها سبك غير مختلف ، وانما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين ، وبين شعر الشعارين ، وذلك أمر له مقدار معروف ، وحد - ينتهي اليه - مضبوط ، فاذا عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج ، ولجملته طريق ، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت : - نظرت الى نظم القرآن نظرة أخرى ، وتأملته مرة ثانية ، فتراعى بعد موقعه ، وعالى محله وموضعه ، وحكمت بواجب من اليقين ، وتلج الصدر بأصل الدين

﴿ خطبة لابن بكر الصديق رضي الله عنه ﴾

قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ، فإني وليت أمركم ، ولست بخيركم ، ولكن نزل القرآن وسن النبي ﷺ وعلنا فعلنا . واعلموا ان أكيس الكيس التقى ، وان أحق الحق للفجور ، وان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وان أضعفكم عندي للقوي حتى آخذ منه الحق . أيها الناس ، انما أنا متبع ولست بمبتدع ، فان أحسنت فأعينوني ، وان زغت فقوموني

﴿ عهد لأبي بكر الصديق الى عمر رضي الله عنهما ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم • هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر ، انى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فان برّ وعدل فذاك ظني به

ورأي فيه ، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت لكم ، ولكل امريء ما اكنسب من الائم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون
وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه قال : دخلت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في علقته التي مات فيها فقلت : أراك بارئاً يا خليفة رسول الله . فقال : أما أني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علي من وجعي . اني وليت أموركم خيركم في نفسي فكلكم ورم أنفه أن يكون له الامر من دونه ، والله لنتخذن نضائد الدياج وستور الحزير ولتأمن النوم على الصوف الاذربي كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان .
والذي نفسي بيده لان يقدم أحدكم فتضرب رقبتة في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، يهادي الطريق جزت^(١) ، انما هو - والله - الفجر أو البحر . قال : فقلت خفض عليك يا خليفة رسول الله ﷺ فان هذا يهيضك الى ما بك ، فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً لانأسي على شيء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد تخليت بالامر وحكك فما رأيت الا خيرا

وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا منها على ما نقلنا ، منها قصة السقيفة

﴿ نسخة كتاب ﴾

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم :

سلام عليك فاننا نحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فاننا عهدناك وأمر نفسك لك مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الامة أحرها وأسودها ، يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع وكل حصته من العدل فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، فاننا نحمدك يوماً تمنو فيه الوجوه ، وتجب فيه

(١) في النسختين جزت بالراي وفي غير هذا الكتاب جزت بالراء المهملة

القلوب ، وانا كما تمحدث ان هذه الامة ترجع (١) في آخر زمانها أن يكون اخوان العلانية أعداء السريرة وانا نفوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا ، فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك . والسلام

فكتب اليهما :

من عمر بن الخطاب ، الى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل . سلام عليكم ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد جاني كتابك تزعمان أنه بلغك اني وليت أمر هذه الامة أحمرها وأسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبنا ان انظر كيف انت يا عمر عند ذلك ، وانه لا حول ولا قوة الا بالله . وكتبنا تحذراتي ماحدثت به الامم قبلنا ، وقدبما كان اختلاف الليل والنهار بأجال الناس يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة او النار ، ثم توفي كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب . وكتبنا تزعمان ان امر هذه الامة يرجع (١) في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستم بذلك ، وليس هذا ذلك الزمان ، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرغبة ، فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ، ورغبة بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبنا تعوذاني بالله أن أنزل كتابك مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبك وانما كتبنا نصيحة لي ، وقد صدقتكما فتعهداني منكما بكتاب ولا غنى بي عنكما

﴿ عهد من عهد عمر رضي الله عنه ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم • من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس : سلام عليك . أما بعد ، فان للقضاء فرضة محكمة ، وسنة

(١) في المخطبة يرجع

(٢) في المخطبة ترجع

متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك ، فانه لا ينفع -كلام بحق لانفاذ له . آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجملتك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف ^(١) من عدلك . المينة على من ادعى واليمين على من أنكرك ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك ، ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجأ اليه في صدرك مما لبس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشباه والامثال وقس الامور عند ذلك وأعد الى أشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ^(٢) ينتهي اليه ، فان أحضر بينة أخذت له بحقه والامتنع عليه القضية فانه أنفي للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد أو مجرأ عليه شهادة زور أو ظنيئا في ولا . أو نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرا بالايمان والبيئات ، واياك والقلوب والضجر والتأذي بالخصوم والتتنكر عند الخسومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظنك بشواب الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام

ولعمري رضي الله عنه خطب مشهورة مدكورة في التاريخ لم نقلها اختصارا

✽ و من كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه ✽

خطبة له ^(٣) رضي الله عنه

قال : ان لكل شئ آفة ، وان لكل نعمة عاهة ، في هذا الدين عيايون ظمانون ، يظهرون لكم ماتحبون ، ويسرون ما تكروهون ، يقولون لكم

(١) في الخطبة (شريف) وهو غير ما في كتب الادب

(٢) في النسختين (أمرا) وفي غير هذا الكتاب (امدا)

(٣) في الخطبة لعثمان

وتقولون ، طعام مثل النعام ، يتبعون أول ناعق أحب مواردكم اليهم النازح ،
لقد أقررتهم لابن الخطاب بأكثر مما نعمتم علي ، ولكنه وقسمكم وقمعكم وزجركم
زجر النعام الخزمة . والله اني لا قرب ناصر ، وأعز نفرا ، وأقن (ان قلت هلم)
أن تجاب دعوتي من عمر . هل تفقدون من حقوقكم شيئا فمالي لأفعل في
الحق ما أشاء ؛ اذا فلم كنت اماما ؟

﴿ كتابه الى علي حين حصر - رضى الله عنهما ﴾

أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبي ، وجاوز الحزام الطيبين ، وطعم في من لا
يدفع عن نفسه . فاذا اتاك كتابي هذا فأقبل الي علي كنت أم لي
فان كنت مأكولا فكن خيرا كل والا فأدر كني ولما أمزق
﴿ ومن كلام علي رضي الله عنه ﴾ قال لما قبض أبو بكر رضي الله عنه
ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبي ﷺ وجاء علي باكيا مسترجعا وهو
يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة

حتى وقف علي باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال :
رحمك الله أبا بكر ، كنت الف رسول الله ﷺ وأنسه وثقته وموضع سره ،
كنت أول القوم اسلاما ، وأخلصهم ايمانا ، وأشدتم بقينا ، وأخوفهم لله ،
وأعظمهم غنا في دين الله ، وأحوطهم على رسوله ، وأيمانهم (١) على الاسلام ،
وآمتهم على اصحابه . أحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ،
وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأقربهم رسول الله ﷺ سننا وهديا ورحمة
وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده ، جزاك الله عن

(١) كنا في الخطبة (وايمانهم) وفي المطبوعة (وايمانهم)

الاسلام وعن رسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس فساك الله في تنزيهه صديقا ، فقال : والذي جاء بالصدق وصدق به . واسيته حين بنجلوا وامت معه عند المسكاره حين عنه قعدوا وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ثاني اثنين وصاحبه في الغار والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه في الهجرة وخليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس فهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا ، وامت بالامر حين فشلوا ، ونطقت حين تمبمعوا . مضيت بنور اذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصوبهم منطلقا ، واطوهم صمتا ، وابلغهم قولا ، وأكثرهم رأيا ، واشجعهم نفسا ، وأعرفهم بالامور ، وأشرفهم عملا . كنت للدين يسوبا أولا حين نفر عنه الناس وآخرأ حين اقبلوا ، وكنت للمؤمنين أبأ رحما اذ صاروا اعليك عيالا فحملت اقبال ما ضعفوا ، ورعيت ما اهلوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شممت اذ خنعوا ، وعلوت اذ هلعوا ، وصبرت اذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدم يرأيك فظفروا ونالوك مالم يحتسبوا ، وكنت كما قال رسول الله ﷺ آمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفا في بدنك ، قويا في أمر الله متواضعا في نفسك ، عظيما عند الله جليلا في أعين الناس ، كبيرا في أنفسهم ، لم يكن لاحد فيك مغمز ولا لاحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هوادة ، الضعيف الدليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب الناس اليك أطوعهم لله . شأنك الحق والصدق والرفق . قولك حكم ^(١) ، وأمرك ^(٢) حزم ورأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطقت النيران ،

(١) في الخطبة في المكاين ياض يتسع لكلمة واحدة وفيها واوقبل (حزم) مما يدل على ان الحذف في الموضعين لكلمة في معنى حكم وحزم

واعتدل بك الدين ، وقوى الايمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، واتعبت من بعدك اتماما شديدا ، وفزت بالجد فوزا ، مينا تجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك في السماء وهدت مصيبتك الانام فان الله وانا اليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بذلك أبداً فألحقك الله بنبيه ، ولا حرمننا أجرك ، ولا أضلنا بعدك وسكت الناس حتى اتقضى كلامه . ثم بكوا ، حتى علت أصواتهم

﴿ خطبة أخرى لعلي رضي الله عنه ﴾

أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وان الآخرة قد اقبلت وأشرفت باطلاع ، وان المضمار اليوم وغدا السباق . ألا وانكم في أيام مهل ومن ورائه أجل ، فن أخلص في أيام أمله فقد فاز ، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور اجله فقد خسر عمله وضره امله ، ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة . الا واني لم ار كلجنة نام طالبها ، ولا كلنار نام هاربها . ألا وانه من لم ينفعه الحق يضربه الباطل ومن لم يستقم^(١) به الهدى يجربه الضلال : ألا وانكم قد أمرتم بالظن ودلتم على الزاد ، ألا وان أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الامل

﴿ وخطب ﴾ فقال بعد حمد الله : أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو ، مادنياه التي تحسنت اليه بخلف من الآخرة للتي قبحتها سوء النظر اليه ، وما الخسيس الذي ظفر به من الدنيا بأعلى همته كالأخر الذي ظفر به من الآخرة من مهمته

﴿ وكتب على رضي الله عنه الى عبدالله بن عباس رحمه الله وهو بالبصرة ﴾

أما بعد ، فان المرء يسر بدرك مالم يكن ليحرمه ، ويسوءه فوت مالم

(١) في الخطبة ومن لا يستقيم

يكن أيدركه ، فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطلق ، وليكن أسفك (١) فيما فرطت فيه من ذلك ، وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تكتمر عليه جزعا ، وما نلته فلا تنعم به فرحا ، وليكن همك لما بعد الموت

﴿ كلام لابن عباس رضي الله عنه ﴾

قال عتبة بن أبي سفیان لابن عباس : ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحُكَيْن ؟ قال : منعه - والله - من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدّة ، ومحنة الابتلاء أما والله لو بعثني مكانه لاعتضت له في مدارج نفسه ناقضا لما أبرم ، ومبرما لما نقض ، أسفّ اذا طار ، وأطير اذا أسفّ . ولكن مضى قدرٌ وبقي أسفٌ ، ومع يومنا غد ، والآخرة خير لا مير المؤمنين من الاولى

﴿ خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴾

أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق (٢) العرا كلمة التقوى . خير الملل ملّة ابراهيم ، وأحسن السنن سنة النبي ﷺ . خير الامور أوساطها ، وشر الامور محدثاتها . ما قل و كفى خير مما أكثر وألهى . خير الغنى غنى النفس ، وخير ما ألقى في القلب اليقين . الخمر جمع الاثم ، الفسء حباله الشيطان ، الشباب شعبة من الجنون . حب السكفانية مفتاح المعجزة ، من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دبرا ، ولا يذكر الله الا هجرا . أعظم الخطايا اللسان السكذوب ، سباب المؤمن فسق وقتاله كفر وأكل لحمه معصية . من يتألّ على الله يكذبه ، من يغفر بغير له ، مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عني عنه ، الشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره ، الامور بعواقبها ، ملاك العمل خواتيمه ، أشرف الموت الشهادة ، من يعرف البلاء بصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء ينكره .

(١) في الخطبة ياض بتسع لكلمة مكان (اسفك)

(٢) كذا في الخطبة . وفي المطبوعة (وصدق)

﴿ خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ﴾

قال الراوي : لما حضرته الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ فقال : نفر من قريش يقباشرون بموتك ! فقال : ويحك ولم ؟ ثم أذن للناس ، حمد الله فأوجز ؛ ثم قال : أيها الناس ، انا قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن شديد ، بعد فيه المحسن مسيئنا ، ويزداد الظالم فيه عتوا ، لا نفتنع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف من قارعة حتى تحل بنا ، فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه الفساد في الارض الا مهانة نفسه وكلال حدة و اضيـض وفرة ، ومنهم المسلط ^(١) سيفه والمجلب برّ جلده والمعلم ^(٢) بشره ، قد أشـرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو متنب يقوده أو منبر يقرعه ، وبش المتحجر أن تراه للنفسك ثنا ومما لك عند الله عوضا ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للامانة ، واتخذ صتر الله ذريعة الى المعصية ، ومنهم من اقمده عن الملك ضئولة في نفسه ، وانقطع سببه ، فقصرته الحال فتحلى باسم القناعة ، وتزين بلباس الزهاد ، وايس من ذلك في مراح ولا ممدى . وبقي رجال اغض ابصارهم ذكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شديد ناد ، وخائف متقمع ، وساكت مكوم ، وداع مخلص ، ووجع ثكلان ، قد آخلتهم النقية ، وشملتهم الذلة ، فهم في بحر أجاج ، أفواهم دامية ، وقلوبهم قريجة ، قد وعظوا حتى ملوا ، وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قتلوا ، فلتكن الدنيا في عيونكم أقل من حبات القرمز وقراصة الجلم ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فافضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان أشغف بها منكم

(١) كذا الخطبة وهو أحسن . وفي المطبوعة (ومنهم من الصلت)

(٢) في الخطبة « الملق » وما انتباه وفاقا للنسخة المطبوعة احسن

﴿ خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ﴾

أيها الناس : انكم ميتون ثم انكم مبعوثون ثم انكم محاسبون فلعمرى
لئن كنتم صادقين لقد قصرتم ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يا أيها الناس انه
من يقدر له رزق برأس جبل أو بمحضيض أرض يأتيه . فأجلوا في الطلب

﴿ خطبة للحجاج بن يوسف ﴾

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ،
ومساوىء الاخلاق ، وبني الكيعة ، وعبيد العصا وأولاد الاماء ، والقعق
بالقرقر ، انى سمعت تكبيرا لا يراد به الله وانما يراد به الشيطان ، وانما مثلى
ومثلكم ما قاله ابن براءة الهمداني :

وكننت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يالهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذي وصار ما وانما حيا تجتنبك المظالم
أما والله لا تفرع عصا عصا الا جعلتها (١) كأمس الدابر

﴿ خطبة لقس بن ساعدة الايادي ﴾

أخبرني محمد بن علي الانصارى بن محمد بن عامر ، قال : حدثنا علي بن
ابراهيم ، حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمري ، قال : حدثنا
الانصارى علي بن محمد الحنفلي من ولد حنظلة الفسيل ، حدثنا جعفر بن محمد ،
عن محمد بن حسان ، عن محمد بن حجاج اللخمي ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن
ابن عباس ، قال : لما وفد وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ قال : أيكم
يعرف قس بن ساعدة قالوا : كلنا نعرفه ، يا رسول الله ، قال : لست أنساه بمكأظ
اذ وقف على بعيره له أحمر فقال : أيها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا

(١) في الخطبة (حملها)

ممعتم فعوا واذا وعيتم فقولوا واذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات و من مات فات ؛ وكل ما هو آت آت . أما بعد ، فان في السماء خلبراً ، وان في الارض لعبرا . مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . أفسم بالله قس قسماً حقاً لا كاذباً فيه ولا آتائين كان في الارض رضا ليكونن سخط ، ان لله تعالى ديننا هو أحب اليه من دينكم الذي انتم عليه ، وقد أناكم أوانه ولحقتمكم مدته . مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقلموا ، أم تركوا فناموا ثم قال رسول الله ﷺ : أيكم بروى شعره ؟ فأنشدوه :

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسمي الاصغر والاكابر
لا يرجع الماضي السى ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنى لا محال له حيث صار القوم صائر

اخبرنى الحسن بن عبد الله بن سعيد ، حدثنا علي بن الحسين بن اسماعيل ، حدثنا محمد بن زكريا ، حدثنا عبد الله بن الفضحاك ، عن هشام ، عن أبيه أن وفدا من اياد قدموا على رسول الله ﷺ ، فسألهم عن حل قس بن ساعدة ، فقالوا : قال قس :

يا ناعى الموت والاموات في جدث عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فان لهم يوما يصاح بهم كما ينبيه من نوماته الصعق
منهم عراة ومنهم في ثيابهم منها الجديد ومنها الاورق الخلق

مطرونبات ، وآباء وامهات ، وذاهب وآت ، وآيات في اثر آيات ، واموات بعد اموات . ضوء وظلام ، وليال وايام ، وغنى وفقير ، وشقي وسعيد ، ومحسن ومسيء . أين الارباب الفعلة . ليصلحن كل عامل عمله . كلا بل هو الله واحد ؛ ليس بمولود ولا والد ؛ أعاد وأبدى ؛ واليه المآب غدا .

اما بعد يامعشر اباد ؛ ابن مؤدوعاد ؛ وابن الآباء والاحداد ؛ ابن الحسن
الذى لم يشكر ؛ ابن الظالم الذى لم ينقم ؟ كلا ورب السكمبة ليعودن مابدا ،
ولئن ذهب يوم ليعودن يوم

قال : وهو قس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن اباد بن نزار ، اوّل من آمن
بالبعث من اهل الجاهلية ، واول من توكلأ هلى عصا ، واول من تكلم بأما بعد

﴿ خطبة لابي طالب ﴾

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا
حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس . وان محمد بن عبد الله بن
أخي لا يوازن به فقى من قريش الا رجح به بركة وفضلا وعدلا ومجدا ونبلا .
وان كان فى المال مقلا فان المال عارية مسترجمة وظل زائل ، وله فى خديجة
بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أردتم من الصداق فعلى

قد نسخت لك جملا من كلام المصدر الاول ومحاوراتهم وخطبهم ، وأحيلك
فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة فى هذا الشأن ، فتأمل ذلك ، وسائر
ما هو مسطر من الاخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللسن ، والغصاحة
واللفظ ، والالفاظ المنتورة ، والمحاطبات الدائرة بينهم ، والامثال المنقولة
عنهم ، ثم انظر بسكون طائر وخفض جناح وتفريغ لب وجمع عقل فى ذلك ،
فسيقم لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن نظم القرآن
يخالف نظم كلام الآدميين ، وتعلم الحدّ الذى يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ
والخطيب والخطيب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة ، فان خيل اليك أو شبه
هلك ، وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن لان الشعر أفصح
من الخطب وأبرع من الرسائل وأدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات . ولذلك
قالوا له ^{عليه السلام} هو شاعر أو ساحر . وسؤل اليك الشيطان ان الشعر أبلغ وأعجب ،

وارق وابرع ، وأحسن الكلام وأبدع ، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام
بين المحققين

أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحدق بهذه الصناعة مع تقدمه
في الكلام يقول : ان الكلام المنشور يتأني فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأني
في الشعر ، لان الشعر يضيق نطاق الكلام ، ويمنع القول من انتهائه ، ويصدده
عن تصرفه على سننه . وحضره من يتقدم في صنعة الكلام فراجعه في ذلك ،
وذكر أنه لا يتمتع أن يكون الشعر أبلغ اذا صادف شروط الفصاحة ، وأبدع
اذا تضمن أسباب البلاغة . ويشهد عندي للتول الاخير أن معظم براعة كلام
العرب في الشعر ، ولا نجد في منشور قولهم ما نجد في منظومه ، وان كان قد
أحدثت البراعة في الرسائل على حد لم يعمد في سالف أيام العرب ، ولم ينقل
من دواوينهم وأخبارهم ، وهو وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه
ونواحيه ، فهو اذا تهذب في باب زوئي له جميع أسبابه ، لم يقاربه من كلام
الآدميين كلام ، ولم يمارضه من خطابهم خطاب ، وقد حكى عن المتنبي أنه
كان ينظر في المصحف فدخل اليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه
من سوء اعتقاده ، فقال له : هذا (١) المكي على فصاحته كان مفعما . فان سمحت
هذه الحكاية عنه في الحاده عرف بها (٢) أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول
الشعر أبلغ واذا كانت الفصاحة في قول الشعر أو لم تكن وبيننا ان نظم القرآن
يزيد في فصاحته على كل نظم ، ويتقدم في بلاغته على كل قول ؛ بما يتضح
به الامر اقتضاح الشمس ، ويتبين به بيان الصبح - وقفت على جليلة هذا الشأن .
فانظر فيما نعرضه عليك ما نعرضه ، وتصور بفهمك ما نصوره ، ليقع لك موقع
عظيم شأن القرآن ، وتامل ما ترتبه ينكشف لك الحق ، . اذا أردنا تحقيق
ما ضمناه لك فمن سبيلنا أن نعمد الى قصيدة متفق على كبر محلها ، وصحة نظمها

(١) في الحطية (هو) (٢) في الحطية (لها)

وجودة بلاغتها ومعانيها ، واجتماعهم على ابداع صاحبها فيها ، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة والمروفين بالحدق في البراعة ، فنقفك (١) على مواضع خلاها ، وعلى تفاوت نظرها ، وعلى اختلاف فصولها ، وعلى كثرة فصولها ، وعلى شدة تعسفها ، وبعض تكلفها ، وما تجمع من كلام رفيع يقرن بينه وبين كلام وضعيم ، وبين افظ سوقى يقرن بلفظ ملوكة ، وغير ذلك من الوجوه التي يجيئ تفصيلها ، وتبيين ترتيبها وتنزيلها

فأما كلام مسيئة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن نشغل به وأسخف من أن نفكر فيه . وأما نقلنا منه طرفا ليعجب القاري ، وليتبصر الناظر ، فانه على سخافته قد أضل ، وعلى ركا كته قد أزل (١) ، وميدان لجول واسع ، ومن نظر فيما نقلناه عنه ، وفهم موضع جهله ، كان جديراً أن يحمد الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم . فما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء : « والليل الاطخم والذئب الادلم ، والجذع الازلم ، ما اتمهكت أسيد من محرم » وذلك قد ذكرني خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه ، وقال أيضا « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس » وكان يقول : « والشاة وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء والابن الابيض ، لانه لعجب محض ، وقد حرم المنق فما لكم لا تجتمعون » وكان يقول : « ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في اللطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الارض وقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون » وكان يقول : « والمبديات زراعا ، والحاصدات حصصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً ، والشاردات ثرداً ، واللاقيات لهما ، إهالة وصمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر .

(١) كذا في المخطئة وهي أفصح . وفي المطبوعة (نوقفك)

(٢) الاصل المطبوع اذل بالذال وما اثبتناه عن المخطئة

ريفكم فامنوه^(١) والمتر فأوه ، والباضي فناوئوه ، وقالت سبحانه بنت
الحارث بن عقبان - وكانت تنبأ فاجتمع مسيلة معها - فقالت له : ما أوحى
للك ؟ فقال : « ألم تر كيف فعل ربك بالحلي ، أخرج منها نسمة تسعي ، من^(٢)
بين صفاق وحشا » وقالت : فما بعد ذلك ؟ قال : أوحى الى « ان الله خلق
النساء أفواجا ، وجعل الرجال من أزواج ، ونولج فيهن قعسا ايلجا ، ثم نخرجها
اذا شئنا اخرجا ، فينتجن لنا سخالا نتاجا » فقالت : أشهد أنك نبي . ولم ننقل كل
ما ذكر من سخفه كراهية التثقيب . وروى أنه سأل أبو بكر الصديق رضي الله
عنه أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن هذه الالفاظ فحكوا بعض ما نقلناه ،
فقال أبو بكر سبحانه الله ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن آل : فأين كان
يذهب بكم ؟ ومعنى قوله « لم يخرج عن آل » أي عن ربوية . ومن كان له
عقل لم يشبهه عليه سخف هذا الكلام

فترجع الآن الى ما ضمناه من الكلام على الاشعار المتفق على جودتها
وتقدم أصحابها في صناعتهم ، لينبين لك تفاوت أنواع الخطاب ، وتباعد مواقع
البلاغة ، وتستدل على مواضع البراعة ، وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ
القيس ، ولا ترتاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع
في طرق الشعر أمورا أثبت فيها من ذكر الديار والوقوف عليها الى ما يتصل
بذلك من البديع الذي أبدعه ، والنشبيه الذي أحدثه ، والتمايح الذي يوجد في
شعره^(٣) والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم اليها
كلامه من^(٤) صناعة وطع وسلاسة وعلو^(٥) ومتانة ورقة وأسباب محمد
وأمر تؤثر وتمسح ، وقد ترى الأدباء أو لا يوازنون بشعره فلانا وفلانا ،
ويضمون أشعارهم الى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين

(١) من هنا تغيرت النسخة الخطية وكتب على هامش الصحيفة : (هذه التكملة نقلت من نسخة
عبد الله باشا) (٢) ليس في الخطية (من)

(٣) في المطبوعة (والتمح) . وفي الخطية (والمليح الذي تمجد في شعره)

(٤) في الخطية (في) (٥) في الخطية (وتمعو)

[شعره ^(١)] في أشياء لطيفة وأمور بديعة ، وربما فضلوهم عليه ، أو سوتوا بينهم وبينه ، أو قربوا موضع تقدمهم عليه ، وبروزه بين أيديهم . ولما اختاروا قصيدته في السبعيات أضافوا إليها أمثالها وقرنوا بها نظائرها ، ثم تراهم يقولون إعلان لامية مثلها ، ثم ترى أنفس الشعراء تشوق إلى معارضته ، وتساربه في طريقته ، وربما عثرت في وجهه على أشياء كثيرة ^(٢) ، وتقدمت عليه في أسباب عجيبة ، وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره كان أمراً محصوراً ، وشياً معروفاً أنت نجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره ، وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه ، وتنظر إلى المحدثين كيف توغلو إلى حيازة المحاسن ، منهم من ^(٣) جمع رصانة الكلام إلى سلاسته ، ومقاتته إلى عدوبته والاصابة في معناه إلى تحسین بهجته ، حتى أن منهم من إن قصر عنه في بعض تقدم عليه في بعض ، لأن الجنس الذي يرمون إليه ، والقرض الذي يتواردون عليه ، مما اللآدمي فيه مجال للبشري فيه مثال ، فكل يضرب فيه بسهم ، ويفوز فيه بقدر ، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتاً ، وتباين تمايناً وقد تتقارب تقارباً ، على حسب مشاركتهم في الصنائع ، ومساهماتهم في الحرف . ونظم القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير ^(٤) متخلص فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشماره ، وما نيين لك من عواره على التفصيل وذلك قوله :

قفا نك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالقراءة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
الذين يتعصبون له أو يدعون محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لأنه

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الخطية

(٢) في الخطية (وربما عثرت في وجهه في أشياء كثيرة)

(٣) في الخطية (ر في) (٤) في الخطية (الظم)

وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجع واسترجم ، كله في بيت ، ونحو ذلك ، وانما بينا هذا لتسلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ان كانت ، ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة ان وجدت . تأمل أرشدك الله وانظر هداك الله ، أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميسدانه شاعرا ، ولا تقدم به صائغاً . وفي لفظه ومعناه خلل ، فأول ذلك أنه استوقف من يبكي لذكر الحبيب^(١) وذكراه لا يقنضي بكاء الخلى وانما يصح طلب الاسعاد في مثل هذا ، على أن يبكي لبكائه ، ويرق لصديقه في شدة برحائه ، فأما ان يبكي على حبيب صديقه ، وعشيق رفيقه ، فأمر محال ، فان كان المطلوب وقوفه وبكائه أيضاً عاشقاً صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لانه من السخف أن لا يفار على حبيبه ، وأن يدعو غيره الى التنازل عليه ، والتواجد معه فيه . ثم في البيتين مالا يفيد من ذكر هذه المواضع ، وتسمية هذه الاماكن ، من الدخول وحومل وتوضيح والمقراة وسقط اللوى ، وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا ، وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضرباً من العي ، ثم ان قوله « لم يف رسمها » ذكر الاصمعي من محاسنه أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لانه ان كان صادق الود فلا يزيد عفا الرسوم الا جدّة عهد ، وشدة وجد ، وانما قرع له الاصمعي الى^(٢) افادته هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه ، فيقال : أي فائدة لان يعرفنا انه لم يف رسم منازل حبيبه ؟ وأي معنى لهذا الحشو ؟ فذكر ما يمكن أن يذكر ، ولا يمكن لمخلصه بانتصاره له من الخلل . ثم في هذه الكلمة خلل آخر ، لانه عقب البيت بأن قال : « فهل هند رسم دارس من معول » فذكر أبو عبيدة أنه رجم فأكذب نفسه كما قال زهير :

(١) كذا في النسخة المطبوعة وفي المخطبة (استوقف ثم بكى لذكر الحبيب) وفي العبارتين قصور

(٢) في المخطبة (لما)

قف بالديار التي لم يعفها التدم ، نعم وغيرها الارواح والديم (١)
وقال غيره : أراد بالبيت الاول أنه لم ينطمس أثره كله ، وبالتالي انه ذهب
بعضه ، حتى لا يتناقض الكلامان ، وليس في هذا انتصار لان معنى عفا ودرس
واحد ، فاذا قال لم يعف رسمها تم قال قد عفا فهو تناقض لا محالة ، واعتذار أبي
عبيدة أقرب لو صح ، ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير
فهو الى الخلل أقرب ، وقوله « لما نسجتها » كان ينبغي أن يقول لما نسجها
ولكنه تعسف فجعل مافي تأويل التأنيث لانها في معنى الريح ، والاولى التذكير
دون التأنيث ، وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف . وقوله « لم يعف رسمها »
كان الأولى أن يقول « لم يعف رسمه » لانه ذكر المنزل ، فان كان رد ذلك
الى هذه البقاع والاماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل ، لانه انما يريد صفة
المنزل الذي نزله حبيبه بعفائه ، أو بأنه لم يعف دون ماجاوره ، وان أراد بالمنزل
الدار حتى أنت فذلك أيضاً خلل ، ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية
التطويل لم نشك في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين ، بل يزيد عليهما
ويفضلهما ، ثم قال :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لانهك أسمى وتحمل (٢)

وان شغائتي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

وليس في البيتين أيضاً معنى بديع ، ولا لفظ حسن كالأولين ، والبيت
الاول منهما متعلق بقوله : « قفا نيك » فكأنه قال قفا و قوف صحبي بها على
مطيهم أو قفا حال وقوف صحبي وقوله « بها » متأخر في المعنى وان تقدم في اللفظ ،
ففي ذلك تكلف وخروج من (٣) اعتدال الكلام ، والبيت الثاني مختل من جهة
أنه قد جعل اللمع في اعتقاده شافياً كافياً ، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة

(١) في ديوان زهير : « لي وغيرها الارواح والديم »

(٢) تحمل : بروي الحاء المهملة والجميم (٣) في الخطبة (عن)

أخرى ، وتحمل ومعول عند الرسوم ؟ ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ، ثم يسأل هل عند الربيع من حيلة أخرى ؟ وقوله :

كدأبك من أم الحورث قبلها وجارتها أم الرباب بأمل
إذا قامتا تَضَوَّع المسك منها نسيم للصبا يأتي ^(١) بريا القرنفل
أنت لا تشك في أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ،
فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى ، وأما البيت الثاني
فوجه التكاف فيه قوله : « إذا قامتا تَضَوَّع المسك منها » ولو أراد أن يجود
أفاد أن بهما طيباً على كل حال فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير. ثم فيه
خلل آخر ، لانه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل وذ ك ذلك
بعد ذكر المسك نقص . وقوله « نسيم الصبا » في تقدير المنقطع عن المصراع
الأول لم يصله به وصل مثله . وقوله :

ففاضت دموع العين منى صباية على النحر حتى بلّ دمي محلى
ألا رب يوم لك منهن صالح ^(٢) ولا سببا يوم بدارة جلجل
قوله : ففاضت دموع العين ، ثم استعانت به بقوله منى استعانة ضعيفة عند
المتأخرين في الصنعة ، وهو حشو غير مليح ولا بديع ، وقوله : « على النحر »
حشو آخر لان قوله « بلّ دمي محلى » [ينفى عنه ويدل عليه ، وليس بحشو
حسن] ثم قوله « حتى بلّ دمي محلى » ^(٣) [إعادة ذكره الدمع حشو آخر ،
وكان يكفيه أن يقول حتى بلت محلى فاحتاج لاقامة الوزن الى هذا كله ، ثم
تقديره انه قد أفرط في افاضة الدمع حتى بل محله تفرط منه وتقصير ، ولو كان

(١) التي في ديوان امرئ القيس (جات) وكذا هو في الخطبة

(٢) ويروى : « الارب يوم صالح لك منها »

(٣) هذه الزيادة ليست موجودة في الخطبة

أبداع لسان يقول : حتى بلّ دمعى مغانيم وعراضهم ، ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية ، إذ الدمع يبعد أن يبيل المحمل وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل ، وإن بله فلقلته وأنه لا يقطر ، وأنت نجد في شعر الخبزري ما هو أحسن من هذا البيت وأمن وأعجب منه ، والبيت الثاني خال من المحاسن والبديع ، خلو من المعنى ، وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع من طبائع السوقة ، فلا يرعك فهو يله باسم موضع غريب ، وقال :

ويوم عقرت للعذارى مطيبي فيا عجباً من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كمدآب الدمقس المغتل

تقديره إذ كر يوم عقرت مطيبي ، أو يرده على قوله : « يوم بدارة جملج » وليس في المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاهته ^(١) قال بعض الأدباء : قوله « يا عجباً » يعجبهم من سفهه في شبابه من نحره نافته لهم ، وإنما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعاً عن الأول ، وأراد أن يكون الكلام ملائماً له ، وهذا الذي ذكره بعيد ، وهو منقطع عن الأول ، وظاهره أنه يتمجب من تحمل العذارى رحله ، وليس في هذا تعجب كبير ، ولا في نحر الناقة لمن تعجب ، وإن كان يعني به أنهم حملن رحله وإن بعضهن حملته فعبير عن نفسه برحله فهذا قليلاً يشبه أن يكون عجباً ، لسن الكلام لا يدل عليه ويتجافى عنه . ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب ، ولا معنى بديع ، أكثر من سفاهته مع قلة معناه وتقارب أمره ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا وإلى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع وكلام رائع ، وأما البيت الثاني فيعدونه حسناً ويمدون التشبيه مليحاً واقعاً ، وفيه شيء ، وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم ، فلا يعلم أنه وصف شحمها ، وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقم ، وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرت مرسله ، وهذا تقص في الصنعة وعجز عن إعطاء

(٢) في الخطبة سلامته وهو خطأ

الكلام حقه . وفيه شيء آخر من جهة المعنى ، وهو أنه وصف طعامه (الذي أطعم من أضاف) بالجودة وهذا قد يعاب ، وقد يقال : ان العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيباً ، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً ، وأما تشبيه الشحم بالدمس فتحيه بقع للامامة ويجري على ألسنتهم فليس بشيء . قد سبق اليه ، وإنما زاد « المغتل » للقافية وهذا مفيد ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ولم يعدد أهل الصنعة ذلك من البديع ، ورأوه قريباً . وفيه شيء آخر ، وهو أن تبجح به بما أطعمه للاحباب مذموم وان سوغ التبجح بما أطعم الأضياف ، الا أن يورد الكلام مورد الجحون ، وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة وقوله :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات انك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري بالمرأ القيس فانزل

قوله : « دخلت الخدر خدر عنيزة » ذكره تكميلاً لاقامة الوزن لا فائدة فيه غيره ، ولا ملاحظة له ولا رونق ، وقوله في المصراع الاخير من هذا البيت : « فقالت لك الويلات انك مرجلي » كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته الى شعره ، وليس فيه غير هذا ، ونكره به بعد ذلك « تقول وقد مال الغبيط » يعني قتب الهودج بعد قوله : « فقالت لك الويلات انك مرجلي » لا فائدة فيه غير تقدير الوزن ، والا فحكاية قولها الاول كاف ، وهو في النظم قبيح ، لانه ذكر مرة « فقالت » ومرة « تقول » في معنى واحد وفصل خفيف . وفي مصراع الثاني أيضاً تأنيث من كلامهن ، وذكر أبو عبيدة أنه قال : « عقرت بعيري » ولم يقل ناقتي لانهم يحملون النساء على ذكر الابل لانها أقوى ، وفيه نظر ، لان الاظهر أن البعير اسم للذكر والانثى ، واحتاج الى ذكر البعير لاقامة الوزن ، وقوله :

قللت لها سبيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جنائك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمام مغيل^(١)
 البيت الأول قريب النسيج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف ، كأنه من
 عبارات المنحطين في الصنعة ، وقوله « مثلك حبلى قد طرقت » عابه عليه أهل
 العربية ، ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام قرب مثلك حبلى قد طرقت ، وتقديره
 انه زير نساء وانه يفسدهن ويلويهن عن حبلهن ورضاعهن ، لان الحبلى والمرضة
 أهد من الغزل وطلب الرجال ، والبيت الثاني في الاعتذار والاشتهار^(٢)
 والتهيام وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الاول ، لان تقديره لاتبعديني
 عن نفسك فاني أغلب النساء ، وأخذهن عن رأيهن ، وأفسدهن بالتغازل ،
 وكونه مفسدة لمن لا يوجب له وصلهن وترك إيمادهن اياه ، بل يوجب هجره
 والاشتخاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش ور كوبه كل مركب فاسد
 وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره ،
 وكقوله :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق ونحني شقها لم يحول
 ويوماً على ظهر الكئيب تعذرت على وآت حلقة لم تحلل

فالبيت الاول غاية في الفحش ونهاية في السخف ، وأي فائدة لذكره
 لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه
 الموارد ؟ ان هذا ليبغضه كل من سمع كلامه ويوجب له المقت ، وهو لو صدق
 لكان قميحا فكيف ويجوز أن يكون كاذباً ؟ ثم ليس في البيت لفظ بديع ولا
 معنى حسن ، وهذا البيت متصل بالبيت الذي قبله من ذكر المرضع التي لها ولد
 يحول ، فأما البيت الثاني وهو قوله : « ويوماً » يتعجب منه وإنما تشددت
 وتعمرت عليه وحلفت عليه فهو^(٣) كلام رديء النسيج لا فائدة لذكره لنا أن
 حبيبته تمنعت عليه يوماً بموضع يسميه ويصفه ، وأنت تجرد في شعر المحدثين من

(١) بروي : محول (٢) في الخطية : والاشتهار
 (٣) هذا جواب اما ، وانظر ابن تمام قوله : وإنما تشددت ، ولعله وأنا

هذا الجنس في التغزل ما يذوب معه اللب ويطرب عليه النفس ، وهذا مما تستنكره النفس ويشتمز منه القلب ، وليس فيه شيء من الاحسان والحسن ، وقوله :

أفأطم مهلاً بعض هذا التمدال وان كنت قد أزمعت صرعى فاجلي
أغرّك مني أن حبك قانلي وانك مها تأمري القلب يفعل

فاليك الأول فيه ركازة جداً ، وتأنيث ورقة ولكن فيها تخنيث ، ولعل قائل يقول ان كلام النساء بما يلائمن من الطبع أوقع وأغزل . وليس كذلك ، لانك تجد الشعراء في الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم . والمصرع الثاني منقطع عن الاول لا يلائمه ولا يوافق ، وهذا يبين لك اذا اعترضت (١) مع البيت الذي تقدمه . وكيف ينكر عليها تدلها ، والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلّه ؟ و البيت الثاني قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا تغتر بما يريها من أن حبها يقتله ، وانها تملك قلبه فما أمرته فعله ، والحب اذا أخبر عن مثل هذا صدق ، وان كان المعنى غير هذا الذي عيب عليه وانما ذهب مذهبا آخر وهو أنه أراد أن يظهر التجلد فهذا خلاف ما اظهر من نفسه فيما تقدم من الايات من الحب واللبكاء على الاحبة ، فقد دخل في وجه آخر من المناقضة والاحالة في الكلام ، ثم قوله : « تأمري القلب يفعل » معناه تأمريني والقلب لا يؤمر ، والاستعارة في ذلك غير واقعة ولا حسنة ، وقوله :

فان كنت قد ساءت مني خليفة فلي نياي عن نيايك تنسل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

البيت الاول قد قيل في تأويله : انه ذكر اللثوب وأراد البدن ، مثل قول الله تعالى : « وثيابك فطهر » وقل أبو عبيدة : هذا مثل للهجر ، وتنسل تبين

(١) في المخطبة (عرضت)

(٢) في المخطبة واللبوان (من)

وهو بيت قليل المعنى ركيكه وضعه ، وكل ما أضاف الى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف [و] بوجوب^(١) قطعه ، فلم لم يحكم على نفسه بذلك ولكن يورده مورد أن ليست له خليفة توجب هجرانه والتقصي من وصله وانه مهذب الاخلاق شريف الشئائل فذلك يوجب أن لا ينفك من وصله ، والاستعارة في الصراع الثاني فيها تواضع وتغارب وان كانت غريبة . وأما البيت الثاني معدود من محاسن القصيدة وبدائنها ، ومعناه ما بكيت الالتهجر حي قلبا معشراً - أي مكسراً - من قولهم : برمة أعشار اذا كانت قطعاً - هذا تأويل ذكره الاصمعي رضي الله عنه ، وهو أشبه عند أكثرهم . وقال غيره : وهذا مثل للاعشار التي تقسم الجزور عليها ، ويعني بسميك المملئ وله سبعة أنصباء ، والريب وله ثلاثة أنصباء . فأراد أنك ذهبت بقلي أجمع ، ويعني بقوله : « قتل » مذل ، وأنت تعلم أنه على ما يعني به فهو غير موافق للابيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذي بينا ، ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثاني فزع اليه لانه رأى اللفظ مستكهاً على المعنى الأول لأن القائل اذا قال « ضرب فلان بسهمه في الهدف » بمعنى أصابه كان كلاماً ساقطاً مردولاً ، وهو يرى أن معنى الكلمة ان عينها كالسهمين الناقدين في اصابة قلبه المجروح فلما بكنا وذرفنا باندموع كانتا ضاربتين في قلبه ، ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ ، ولكنه اذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل ، لانه ان كان محتاجاً - على ما وصف به نفسه من الصباية - فقلبه كله لها فكيف يكون بكأوها هو الذي يخلص قلبه لها ؟

واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الاول ولا متصل به في المعنى وهو منقطع عنه لانه لم يسبق كلام يقضي بكاءها ولا سبب يوجب ذلك ، فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال ، ثم لو سلم له بيت من عشرين

(١) في الخلفية : ووجوب .

بيتاً وكان بديعاً ولا عيب فيه فليس بعجيب ، لانه لا يدعى على مثله ان كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين ، وانما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه الى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال انه يتقدم فيه أحداً من المتأخرين فضلاً عن المتقدمين ، وانما قدم في شعره لآيات قد برع فيها وبان حذقه بها ، وانما أنكرنا أن يكون شعره متناسباً في الجودة ، ومتشابهاً في صحة المعنى واللفظ ، وقلنا انه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كلهم مستنكرة^(١) وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين سخف مستشنع ، ولهذا قال الله عز اسمه : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » فأما قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهُو بها غير معجل

تجاوزت أحراساً إليها ومشرأ على حراساً لو يسرون مقتلى

فقد قالوا : عنى بذلك انها كبيضة خدر في صفائها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة

ولسكن لم يسبق إليها ، بل هي دائرة في أفواه العرب وتشبيه سائر ، ويعنى بقوله : « غير معجل » انه ليس ذلك مما يتفق قليلاً وأحياناً ، بل يتكرر له الاستمتاع بها ، وقد يحمله غيره على انه رابط الجأش فلا يستعجل اذا دخلها خوف حصانها ومنعتها . وايس في البيت كبير فائدة ، لانه الذي حكى في سائر أبيانه فلا تتضمن مطاوعته في المغازلة واشتغاله بها فنكر يره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى ، الا الزيادة التي ذكر من منعتها ، وهو - مع ذلك - بيت سليم اللفظ في المصراع الاول دون الثاني ، والبيت الثاني ضعيف . وقوله : « لو يسرون مقتلى » أراد أن يقول لو أمروا ، فاذا نقله الى هذا ضعف ووقع في مضمار الضرورة ، والاختلال على نظمه بين ، حتى أن المحترز يحترز من مثله ، وقوله :

(١) في الخطبة (مستنكرة)

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
 قد أنكسر عليه قوم قوله: « إذا ما الثريا في السماء تعرضت » وقالوا:
 الثريا لا تتعرض ، حتى قال بعضهم : معى الثريا وإنما أراد الجوزاء لأنها تعرض
 والعرب تفعل ذلك ، كما قال زهير : « كأحمر عاد » وإنما هو أحمر نمود
 وقال بعضهم في تصحيح قوله « تعرض » . أول ما تطلع ، كما أن الوشاح
 إذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته ، وهذا كقول الشاعر :

تعرضت لى بمجان خل تعرض المهرة في الطول

يقول : تريك عرضها وهى في الرسن ، وقال أبو عمرو : يعنى إذا أخذت
 الثريا في وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة . والاشبه عندنا أن البيت
 غير ^(١) معيب من حيث هابوه به ، وأنه من محاسن هذه القصيدة ، ولولا أبيات
 عدة فيه لقابله ما شئت من شعر غيره ، ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو
 ويستولى على الامد

أنت تعلم أنه ليس المتقدمين ولا للمتأخرين في وصف شيء من النجوم
 مثل ما في وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن ، فلما أن يكون قد عارضه
 أوزاد عليه ، فن ذلك قول ذي الرمة :

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلقي
 ومن ذلك قول ابن المعتز :
 وترى الثريا في السماء كأنها بيضات أذحي يلحن بفدند
 وكقوله :

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نور أوجام مفضض

(١) من منا رجعت النسخة الخطبة الى حالتها

وقوله أيضا :

فناولنيها والثريا كأنها جنى ترجس حيا الندامى به الساقى
وقول الأشهب بن رميلة :

ولاحت لساريها الثريا كأنها لدى الاثق الغربي قرط مسلسل
ولابن المعتز :

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه كذات قرط أرادته وقد سقطا
أخذه من ابن الرومي في قوله :

طيب ريقه اذا ذقت فاه والثريا بجانب الغرب قرط
ولابن المعتز :

قد سقاني المدام والصبح بالليل مؤثر
والثريا كنور غصن على الأرض قد نثر

وقوله :

وتروم الثريا في السماء مراما
كانكباب طمر كاد يلقى لجاما (١)

ولابن الطائية :

اذا ما الثريا في السماء كأنها جمان وهي من سللكه تنبدا

ولو نسخت لك كل ما قالوا من البديع في وصف الثريا لطلال عليك
الكتاب وخرج عن الغرض ، وإنما تريد أن تبين لك أن الابداع في نحو هذا أمر

(١) الرواية في الديوان هكذا :

ياخليلي هيا واستقيان المداما
قد لبسنا صباحا وخلعنا ظلاما
وتروم الثريا في الثروب مراما
كانكباب طمر كاد يلقى للجاما

قريب وليس فيه شيء غريب ، وفي جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه في الحسن أو يساويه ، أو يقاربه ، فقد علمت أن ما خلق فيه ، وقد المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه أمر مشترك ، وشريعة مورودة ، وباب واسع ، وطريق مسلك ، وإذا كان هذا يبت الفصيحة ودرة الغلادة وواسطة العقد ، وهذا محله فكيف بما تعداه ؟ ثم فيه ضرب من التكلف لأنه قال « إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أنباء الوشاح » فقوله : « تعرضت » من الكلام الذي يستغنى عنه لأنه يشبه أنباء الوشاح سواء كان في وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب ، فالتهويل بالتعرض والتطويل بهذه الألفاظ لا معنى له ، وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل فلا معنى لقوله « تعرض أنباء الوشاح » وإنما أراد أن يقول : تعرض قطعة من أنباء الوشاح فلم يستقم له اللفظ ، حتى شبيه ما هو كالشيء الواحد بالجمع ، وقوله

نجحت وقد نصت لنوم نياها لدى الستر الالبسة المتفضل
فقلت : بين الله مالك حيلة وما أن أرى عنك العباة^(١) تنجلي

انظر الى البيت الأول والابيات التي قبله ، كيف خلط في النظم و فرط في التأليف ، فذكر التمتع بها ، وذكر الوقت والحال والحراس ، ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها ووصل اليها من نزاعها نياها الاثوباً واحداً ، والمتفضل الذي في ثوب واحد وهو الفضل ، فما كان من سبيله أن يقدمه إنما ذكره مؤخراً ، وقوله : « لدى الستر » حشو ، وليس بحسن ولا بديع ، وليس في البيت حسن ، ولا شيء يفضل لأجله . وأما البيت الثاني ففيه تمليق واختلال ، ذكر الاصمعي أن معنى قوله « مالك حيلة » أي ليست لك جهة تجبي فيها والناس حوالى^(٢) ، والكلام في المصراع الثاني منقطع

(١) بروى : الفواية

(٢) في الخطية (احوال)

عن الأول ، ونظمه اليه فيه ضرب من التفاوت ، وقوله :

فعمت بها أمشي نجر ورائنا على لائرنا أذيال مرط مرجل^(١)
فلما أجزنا ساحة الهى وانتحي بنا بطن خبت ذي حفاف عقنقل
البيت الأول من مساعدتها إياه حتى قامت معه ليخلوا وإنما كانت
نجر على الاثر أذيال مرط مرجل ، والمرجل ضرب من البرود يقال لوشيه
الترجيل وفيه تكلف لانه قال « ورائنا على ائرننا » ولوقال « على ائرننا »
كان كائناً والذبل إنما يجر وراء الماشي فلاناً فئدة لذكروه ورائنا ، وتقدير القول
فعمت أمشي بها ، وهذا أيضاً ضرب من التكلف ، وقوله أذيل مرط كان من
سبيله أن يقول ذيل مرط على أنه لو سلم من ذلك كان قريباً ليس مما يفوت بمثله
غيره ، ولا يتقدم به سواه ، وقول ابن المعتز أحسن منه :

فبت أفرش خدي في للطريق له ذلا وأسحب أذيالي^(٢) على الأثر
وأما البيت الثاني فقوله أجزنا بمعنى قطعنا ، والحبت بطن من الارض ،
والحقف رمل منعرج ، والعقنقل المنعقد من الرمل الداخلى بعضه في بعض ،
وهذا بيت متفاوت^(٣) مع الأبيات المتقدمة ، لان فيها ما هو سلس قريب
يشبه كلام المولدين وكلام البدلة ، وهذا قد أغرب فيه ، وأتى بهذه اللفظة
الوحشية المتعقدة ، وليس في ذكرها والتفضيل بالحاقها بكلامها فئدة ، والكلام
الغريب واللفظة الشديدة المباشرة لنسيج الكلام قد نحمد اذا وقعت موقع الحاجة
في وصف ما يلائمها ، كقوله عز وجل في وصف يوم القيامة (٧٦ : ١٠) « يوماً
عبوساً قطريراً » فأما اذا وقعت في غير هذا الموضع فهي مكرهة ومدمومة بحسب
ما نحمد في موضعها ، وروي أن جريراً أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته :

(١) روى (عل أئرننا ذيل مرط مرجل)

(٢) في الخطبة (أكاسي)

(٣) في النسخة المطبوعة « متقارب » وما اثبتاه عن الخطبة

بان الخليط برامتين فودعوا أركلاً جدوا لبين نجمع ؟

كيف العزاء ولم أجد مذنبتم قلبا يقر ولا شرابا ينقع ؟

قل : وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله :

و تقول بوزع : قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يابوزع

فقال : أفسدت شعرك بهذا الاسم

وأما قوله :

هصرت بغصنى دوحة فتمايلت^(١) عليّ هضيم الكشح ربا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

فمعنى قوله « هصرت » جذبت و تثبت ، وقوله « بغصنى دوحة » تعسف

ولم يكن من سبيله أن يجعلها اثنتين : والمصراع الثاني أصح ، وليس فيه شيء

إلا ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين . وأنت نجد ذلك في وصف

كل شاعر ، ولكنه مع تكرره على الألسن صالحاً رماً معنى قوله « مهفهفة » أنها

مخففة ليست منقلة ، والمفاضة التي اضطرب طولها ، والبيت - مع مخالفتها في الطبع

الآيات المتقدمة ، ونزوعه فيه إلى الألفاظ المستكرهه ، وما فيه من الخلل من

تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض - فليس بطائل ولكنه

قريب متوسط ، وقوله :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل

معنى قوله « عن أسيل » أي بأسيل ، وإنما يريد خدّاً ليس بكز ، وقوله

« تتقى » يقال اتقاه بترسه^(٢) أي جعله بينه وبينه . وقوله : « تصد وتبدي

عن أسيل » متفاوت ، لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد ، وقوله :

« تتقى بناظرة » لفظة مليحة ، ولكن أضافها إلى ما نظم به كلامه وهو مختل

(١) في الديوان والمعلقات (هصرت بقودي رأسها فتمايلت) (٢) في الخطبة (بحقه)

وهو قوله : « من وحش وجرة » وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا ، كان من سبيله أن يضيف الى عبون الأطباء أو المها دون اطلاق الوحش ففهن ما تستنكر عيونها ، وقوله : « مطفل » فسر وه على أنها ليست بصبية وإنما قد استحكمت ، وهذا اعتذار متعسف ، وقوله : « مطفل » زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الاصمعي ، ولكن قد يحتمل عندي أن يفيد غير هذه الفائدة فيقال انها اذا كانت مطفلاً لحظت أطفالها بعين رقة ففي نظر هذه رقة نظر المودة ، ويقع الكلام معلقاً تعليقاً متوسطاً . وأما البيت الثاني فمعنى قوله : « ليس بفاحش » أي ليس بفاحش الطول ، ومعنى قوله : « نصته » رفعمه ، ومعنى قوله : « ليس بفاحش » - في مدح الاعناق - كلام فاحش موضوع منه ، واذا نظرت في أشعار العرب رأيت في وصف الاعناق ما يشبه السحر ، فكيف وقع على هذه الكلمة ، ودفع الى هذه اللفظة ؛ وهلا قال كقول أبي نواس :

مثل للظباء سميت الى روض صوادر عن غدبر
ولست أطول عليك فتستثقل ، ولا أتغر القول في ذمه فتستوحش ،
وأكك الآن الى جملة من القول ، فان كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت
وعرفت ما رمينا اليه واستغنيت ، وان كنت عن الطبقة خارجاً ، وعن الاتقان
بهذا الشأن خالياً ، فلا يكفيك البيان وان استقر بنا جميع شعره ، وتبعنا عامة
الغاظه ، ودلنا على مافي كل حرف منه

اعلم ان هذه القصيدة قد رددت بين أبيات سوقية مبتدله وأبيات
متوسطة وأبيات ضعيفة مردولة ، وأبيات وحشية غامضة مستكرهه ، وأبيات
معدودة بديعة ، وقد دلنا على المبتدل منها ، ولا يشبهه عليك الوحشي المستنكر

الذي يروع السمع ، ويهول القلب ، ويكمد اللسان ، ويعبس معناه في وجه كل خاطر ، ويكفهر مطلقه على كل متأمل أو ناظر ، ولا يقع بمثله التمدح والتمناصيح ، وهو مجازب لما وضع له أصل الافهام ، ومخالف لما بنى عليه التفاهم بالكلام ، فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود ، ويلحق باللفز والاشارات المستهمة

فأما الذي زعموا أنه من بديع هذا الشعر فهو قوله :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها تتوم الضحى لم تنتطق عن تفضل
والمصرع الاخير عندهم بديع ، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة لها من يكفها ، ومعنى قوله : « لم تنتطق عن تفضل » يقول لم تنتطق وهي فضل^(١)
وعن هي بمعنى بعد ، قال أبو عبيدة : لم تنتطق فتعمل ولسكنها تفضل
ومما يعدونه من محاسنها :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الغيوم^(٢) ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الثيل الطويل ألا انجل بصبح وما الاصبح منك بأمثل
وكان بعضهم يعارض هذا بقول النابغة :

كأني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تفاسح حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يتلو النجوم بأيب^(٣)

وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء فقدمت أبيات امرئ القيس واستحسن استعارتها ، وقد جعل لليل صدرا يثقل تنحيه ويبطئ تقضيه ،

(١) يقال رجل أو امرأة فضل - بضمين ، أي متفضل في ثوب واحد ، كذا في الناموس ، والمتفضل الذي يبقى في ثوب واحد ليثام أو بعمل عملا

(٢) في الديوان والمعلقات (الموم)

(٣) في نسخة الديوان : تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بأيب

وجعل له أردافاً كثيرة ، وجعل له صلماً يمتد ويتطاول ، ورأوا هذا بخلاف ما يستعبره أبوتام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة ، ورأوا ان الالفاظ جميلة ، واعلم أن هذا صالح جميل ، وليس من الباب الذي يقال انه متناه عجيب ، وفيه المام بالتكلف ، ودخول في التعمل وقد خرجوا له في البديع من القصيدة قوله :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قييد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلهود صخر حطه السيل من عل
وقوله أيضاً (١) .

له أبطالا ظبي وساقا نعاما وارخاء سرحان وتقريب تتقل
فأما قوله « قييد الأوابد » فهو مليح ، ومثله في كلام الشعراء وأهل
الفصاحة كثير ، والتعمل بمثله ممكن . وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا
تصنيفاً ، ويؤلفون المحاسن تأليفاً ، ثم يوشحون به كلالهم . والذين كانوا من
قبل اغزائرهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك ، انما كان يتفق لهم اتفاقاً ،
ويطرد في كلالهم اطرادا . وأما قوله في وصفه : « مكر مفر » فقد جمع فيه طباقاً
وتشبيهاً ، وفي سرعة جري الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف ،
وكذلك في جمه بين أربعة وجوه من التشبيه في بيت واحد صنعة ، ولكن
قد عورض فيه وزوجم ، والتوصل اليه يسير ، وتطلبه سهل قريب

وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في
المجودة والرداءة والسلاسة والانفقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل
والاسترسال والتوحش والاستكراه ، وله شركاء في نظائرها ومنازعين في محاسنها
ومعارضون في بدائعها ، ولاسواء كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة ،
ويتلون نلون الحرباء ، ويختلف اختلاف الاهواء ، ويكثر في تصرفه اضطرابه ،

(١) هذه الكلمة سائطة من النسخة الخطية

وتتقاذف به أسبابه ، وبين قول بحرى في صبحه على نظام ، وفي رصفه على مناج وفي وضعه على حد ، وفي صفائه على باب ، وفي بهجته ورونقه على طريق . مختلفه مؤلف ، وهؤلغه متحد ، ومتباعده متقارب ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد . وهو على متصرفاته واحد ، لا يستصعب في حال ، ولا يتعقد في شأن

وكننا أردنا أن نتصرف في قصائد مشهورة فنتكلم عليها ، ونبدل على معانيها ومحاسنها ، ونذكر لك من فضائلها ونقائصها ، ونبسط لك القول في هذا الجنس ، ونفتح عليك في هذا النهج . ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا وللإكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعبارة ووزنه وبزانه ومعياره ، ولذلك كتب وان لم تكن مستوفاة ، وتصانيف وان لم تكن مستقصاة . وهذا القدر يكفي في كتابنا ، ولم نحب أن ننسخ لك ماسطره الأدباء في خطأ امرى القيس في العروض والنحو والمعاني ، وما عابوه عليه في أشعاره ، وتكلموا به على ديوانه ، لان ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا ، ومجانب لمقصوده . وانما أردنا أن نبين الجملة التي بينها لتعرف أن طريقة الشعر شريفة مورودة ، ومنزلة مشهودة ، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتناول منها ذوها على حسب أحوالهم . وأنت تجد المتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبر عليه فيه ، وتجد المتأخر معنى قد أغلته المتقدم ، وتجد معنى قد توافدا عليه ، وتوافيا اليه ، فها فيه شريكا عنان ، وكأنهما فيه رضيعا لبان ، والله يؤتي فضله من يشاء .

فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه ، فان العقول نتبه في جهته ، ونحار في بحره ، وتضل دون وصفه . نحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض وتستولى به على الأمد ، وتصل به الى المقصد ، وتتصور اعجازه كما

تتصور الشمس ، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر ، وأقرب عليك الغامض وأسهل لك العسير . واعلم ان هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الاصحاب ، ليست له عشيرة محمية ، ولا أهل عصمة تفتن لما فيه . وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك وأنت نحسب ان وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام الا ان يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك ، فان احدى اللفظتين قد تفر في موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الاخرى بل تتمكن فيه وتضرب بجرائها وتراها في مظاهرها وتجدها فيه غير منازعة الى أوطانها ، وتجيد الاخرى لو وضعت موضعها في محل نفاذ ومرمى شراد ونايبة عن استقرار ولا أكثر عليك المنال ، ولا أضرب لك فيه الامثال ، وأرجع بك الى ما وعدتكم من الدلالة ، وضمنت لك من تقريب المقالة ، فان كنت لا تعرف الفصل الذي يينا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام ومتصرفات مجاري النظام ، لم تستفد مما نقر به عليك شيئاً وكان التقليد أولى بك والانباع أوجب عليك ، ولكل شيء سبب ولكل علم طريق ، ولا سبيل الى الوصول الى الشيء من غير طريقه ، ولا بلوغ غايته من غير سبيله

خذ الآن - هداك الله - في تفرغ العكر وتخليه البال ، وانظر فيما نعرض عليك ونهديه اليك ، متوكلاً على الله ومعتمداً به ومستعيناً به من الشيطان الرجيم ، حتى تنف على اعجاز القرآن العظيم . سماه الله عز ذكره حكماً وعظماً ومجيداً ، وقال (٤١ : ٤٢) : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وقال (٥٩ : ٢١) : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » وقال (١٣ : ٣١) « ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كُلم به الموتى بل لله الامر جميعاً » وقال (١٧ : ٨٨) « قل

لكن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني ، حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان ، حدثنا أبو يوسف الصيدلاني ، حدثنا محمد ابن سلمة ، عن أبي سنان ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري الطائي ، عن الحارث الاعور ، عن علي رضي الله عنه ، قال : قيل : يا رسول الله ان أمتك ستفتنن من بعدك ، فسأل أوسئل - ما المخرج من ذلك : فقال : « بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، من ابتغى العلم في غيره أضله الله ، ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله وهو الذكركر الحكيم ، والنور المبين ، والصرراط المستقيم . فيه خبر من قبلكم ، وتبيان من بعدكم ، وهو فصل ايس بالهزل . وهو الذي سمعته الجن فقالوا : ﴿ انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشداً منا به ﴾ لا يتخلق على طول الرد ، ولا تنقضي عبره ، ولا تفتى عجائبه » وأخبرني أحمد بن علي بن الحسن ، أخبرنا أبي ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا المسيب ابن شريك ، عن عبيدة ، عن أسامة ، بن أبي عطاء ، قال . أرسل النبي ﷺ الى علي رضي الله عنه في ليلة . فذكر نحو ذلك في المعنى ، وفي بعض ألقاظه اختلاف . وأخبرنا أحمد بن هلي بن الحسن ، أخبرنا أبي ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا المسيب بن شريك ، عن بشر بن عير ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ نكث القرآن أعطى نكث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن أعطى نصف النبوة ، ومن قرأ القرآن كله أعطى للنبوة كلها غير أنه لا يوحى اليه ، وذكروا الحديث

ولولم يكن من عظم شأنه الا انه طبق الارض أنواره ، وجلال الآفاق ضياؤه ، ونفذ في العالم حكمه ، وقبل في الدنيا رسمه ، وطمس ظلام الكفر بعد

ان كان مضروب الرواق ، ممدود الاطناب ، مبسوط الباع ، مرفوع العاد ، ليس على الارض من يعرف الله حق معرفته أو يعبهه حق عبادته أو يدبّر بعظمته أو يعلم علو جلالته أو يتفكر في حكمته ، فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من أنه نور فقال (٤٢ : ٥٢) : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الایمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم » فانظر إن شئت الى شريف هذا النظم وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الرصف كل كلمة من هذه الآية تامة وكل لفظ بديع واقع ، قوله « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا » يدل على صدوره من الربوبية ، ويبين عن وروده عن الآلية ، وهذه الكلمة بمنفرداتها وأخونها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه ، وكان واسطة عقده ، وفاتحة عقده ، وغرة شهره ، وعين دهره . وكذلك قوله : « ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » فجملة روحاً لأنه يجبي الخلق فله فضل الارواح في الاجساد ، وجملة نوراً لأنه يضي مضياء الشمس في الآفاق ثم أضاف وقوع الهداية به الى مشيئته ، ووقف وقوف الاسترشاد به على ارادته وبين أنه لم يكن اهتدى اليه لولا توفيقه ، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه ، وانه لم يكن اهتدى فكيف كان بهدي لولاه ، فقد صار [بهدي ولم يكن ^(١)] من قبل ذلك ليهتدى ، فقال : وانك لتهدى الى صراط مستقيم « (٤٢ : ٥٣) » صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور » فانظر الى هذه الكلمات الثلاث فالكلمات الاولى ^(٢) مؤتلفتان ، وقوله : « ألا الى الله تصير الامور » كلمة منفصلة مباينة للاولى ، قد صيرهما شريف النظم أشد اثلافاً من الكلام المألوف وألطف انتظاماً من

(١) هذه الكلمات غير موجودة بالنسخة المطبوعة وفي مكانها يابض بتسع ١٣

(٢) بالنسخة المطبوعة (الاولتان) وهي لمة قليلة

الحديث الملائم، وبهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته . الامر
أظهر والحمد لله ، والحال أبين من أن يحتاج الى كشف ، تأمل قوله (٦ : ٩٦)
« فائق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حُسباناً ذلك تقدير العزيز
العليم » انظر الى هذه الكلمات الاربعة التي ألفَ بينها ، واحتج بها على ظهور
قدرته ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة ، وبفردها درة ؟ وهو
مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الامر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى في بهجة القدرة
ويتجلى بمخالصة العزة ويجمع السلاسة الى الرصانة ، والسلامة الى المتانة ،
والرونق الصافي ، والبهاء الضافي . ولست أقول أنه شمل الاطباق المليح والايجاز
اللطيف والتعديل والتمثيل والتقريب والتشكيل ، وان كان قد جمع ذلك وأكثر
منه ، لان العجيب ما يبتنا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين
رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة ، فاذا أنتت ازدادت حسنا وزادت
إذا تأملت معرفه وإيماناً ، ثم تأمل قوله (٣٦ : ٣٧ - ٣٩) : « وآية لهم الليل
سليخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجري مسرعة لغيرها ذلك تقدير العزيز
العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » هل نجد كل لفظة
وهل تعلم كل كلمة تستقل بلاشتمال على نهاية البديع وتتضمن شرط القول البليغ ؟
فاذا كانت الآية تنتظم من البديع وتتألف من البلاغات فكيف لا تفوت
حد المدهود ولا تحوز (١) شأو المؤلف ؟ فكيف لا تحوز قصب السبق ولا
تعالى عن كلام الخلق ؟ ثم اقصد الى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها
وراع ما فيها من براهينها وقصصها تأمل السورة التي يُدكر فيها التمل وانظر في
كلمة كلمة وفصل فصل . بدأ بذكر السورة الى أن بين أن القرآن من عنده

(١) في النسخة الخطية لا تحوز بالميم

فقال (٢٧ : ٦) : « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وانه رأى ناراً فقال لاهله امكثوا (٢٧ : ٧) : « اني آتيت ناراً سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » وقال في سورة طه في هذه القصة (٢٠ : ١٠) : « لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » وفي موضع (٢٨ : ٢٩) : « لعل آتيكم منها بخبر أو جدوة من النار لعلكم تصطلون » قد تصرف في وجوه ، وأتى بذكر القصة على ضروب ، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ، ولهذا قال (٥٢ : ٣٤) : « فليأتوا بحديث مثله » ليكون أبلغ في تعجيزهم ، وأظهر للحجة عليهم . وكل كلمة من هذه الكلمات وان أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها . ثم قال (٢٧ : ٨) : « فلما جاءها نُودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » فانظر الى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا التناء ، وكيف انتظم مع الكلام الاول ، وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الاخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية وجعلها دليلاً يدل عليه ومعجزة تهديه اليه ، وانظر الى الكلمات المفردة القائمة بانفسها في الحسن ، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ، ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء - عن نور البرهان - من غير سوء . ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف ، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف اذا قارنتها اخواتها وضامتها ذواتها تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها ، ثم من قصة الى قصة ، ومن باب الى باب ، من غير خلل يقع في نظم الفصل الى الفصل ، وحتى يصور لك الفصل وصلاً ببديع التأليف وبلغ التنزيل وان أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين ، وتحقق بما ادعينا زيادة تتحقق . فان كنت من أهل الصنعة فاعمد الى قصة من هذه القصص ، وحديث من

هذه الاحاديث فبعر عنه بعبارة من جهتك وأخبر عنه بألفاظ من عندك ، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر ، وتبين في نظم القرآن الدليل الباهر ، ولذلك أعاد قصة موسى في سور ، وعلى طرق شتى وفواصل مختلفة ، مع اتفاق المعنى ، فلعلك ترجع الى عقلك ، وتستع ما عندك ، ان غلطت في أمرك أو ذهبت في مذاهب وهمك أو ساطت على نفسك وجه ظنك ، متى تهيأ لبليغ أن يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة فيجعلها مؤتلفة من غير أن يبين على كلامه أعباء الخروج والتنقل أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمل ؟ وأحسب انه يسلم من هذا - ومحال أن يسلم منه - متى ^(١) يظهر بمثل تلك الكلمات الافراد ، والالفاظ الاعلام ، حتى يجمع بينها فيجولو فيها فقرة من كلامه ، وقطعة من قوله ؟ ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطر قليلة فمتى يتفق له في قدر ما نقول انه من القرآن معجز ؟ هيئات هيئات ! ان الصبح يطمس النجوم وان كانت زاهرة ، والبحر يغمر الانهار وان كانت زاخرة ، متى تهيأ للادى أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية (٢٧ : ٣١) : « ألا تعلموا علي وأتوني مسلمين » والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه من التدبير ، واشتغلت به ^(٢) من المشورة ، ومن تعظيمها أمر المستشار ، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات المعجبية البليغة ، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها (٢٧ : ٣٢) : « يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وذكر قولهم (٢٧ : ٣٣) : « قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » لا نجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به ، وقوله « الامر

(١) في الطبوعة (حتى) وما أثبتناه عن الخطبة

(٢) الضمائر المؤنثة عامة على بليقيس ملكة سبا المذكورة في القصة ، وضماير الجمع تعود على جنودها

اليك « أعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام ونمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله فانظري ماذا تأمرين ، ثم الى هذا الاختصار والى البيان مع الايجاز ، فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز ، وهذا مما يزيد الاختصار بسطاً لتكنه ووقوعه موقعه ، ويتضمن الایجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه ، وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من الغمام ، ثم لو وقع على الافهام (١) فما يجب فيه من شروط الاحكام أو بمعاني القصة وما تقتضي من الاعظام ، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيتته ناقصاً في وجه الحكمة ، أو مدخولاً في باب السياسة ، أو مصغوفاً في طريق السيادة ، أو مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى ، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى ، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى ، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة ، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع ، وأنت لا تجدي في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد ، وإذا اختصر كل في بابه وجاد ، وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره ، وبعث العليم في أطرافه هيون مباحته ، لم يقع الا على محاسن تتوالى وبدائع تترى ، ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله (٣٤ - ٢٧) : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره ، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره . ثم تأمل تمكن الفاصلة - وهي الكلمة الثالثة - وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها ، وان شرحت لك مافي كل آية طال عليك الامر ، ولكني قد بينت بما فسرت ، وقررت بما فصلت ، الوجه الذي سلكت ، والنحو الذي قصدت ، والغرض الذي اليه رميت ، والسمت الذي اليه دعوت . ثم فكر بعد

(١) ياض في الخطبة والمطوعة

ذلك في شيء أدلك عليه ، وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة ، فأجل الرأى في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة ، وتدبر الخواتم والفواخج ، والبوادى ، والمقاطع ، ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ، ثم اقض ما أنت قاض ، وان طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور ، ما رأيك في قوله (٢٨ : ٤) : « ان فرعون علا في الارض ، وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات سنأوها وضيأوها على ما ترى ، وسلامتها وماؤها على ما تشاهد ، وروقتها على ما تعانين ، وفصاحتها على ما تعرف ، وهي تشتمل على جملة وتفصيل ، وتفسير ذكر العلو في الارض باستضعاف الخلق يذبح الولدان وسبي النساء ، واذا تحمك في هذين الامرين فما ظنك بما دونهما ، لان النفوس لا تطمن على هذا للظلم ، والقلوب لا تقر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد ، وكفت في التظلم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعظفت عجزه على صدره ، ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله (٢٨ : ٥) : « وزيد أن تمن على الذين استضعفوا في الارض ونجملمهم أئمة ونجملمهم الوارثين » وهذا من التأليف بين المؤلف ، والجمع بين المستأنس . كما ان قوله (٢٨ : ٧٧) : « وابتنغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » وهي خمس كلمات متباعدة في المواقع ، نائية المطارح ، قد جعلها النظم البديع أشد تألفاً من الشيء المؤلف في الاصل ، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع . ومثل هذه الآية قوله (٢٨ : ٦٨) : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون » ومثلها (٢٨ : ٥٨) . « وكم أهلكننا من قربة بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » ومن

المؤلف قوله (٢٨ : ٨١) . « نخسفنابه و بداره الارض ، فما كان له من فنة
 ينصرفونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها
 أعز من الكبريت الأحمر . ومن البسبب الآخر قوله تعالى (٢٨ : ٨٨) :
 « ولا تدع مع الله إلاها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم
 واليه ترجعون » كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت
 العبارة عنها باضعا فكلانها لم تستوف ما استوفته ، ثم نجد فيما تنظم نقل النظم
 ونفور الطبع ، وشراد الكلام ، ونهافت القول ، ونمغ جانبه ، وقصورك في
 الايضاح عن واجبه ، ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة الى قصة وفصل الى فصل
 حتى تبين عليك مواضع الوصل ، ويستصعب عليك أما كن الفصل ، ثم
 لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة ، وأمثالا سائرة . وحكما جديلة ،
 وأدلة على التوحيد بيينة ، وكلمات في التنزيه والتحميد شريفة ، وان أردت
 أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المنفقين ، هل نجد
 كلامه في المديح والنزل والفخر والمجرب مجرى كلامه في ذكر القصص ؟
 انك لتراه اذا جاء الى وصف واقعة أو نقل خبر عامي الكلام سوقي الخطاب ،
 مسترسلا في أمره ، متساهلا في كلامه ، عادلا عن المؤلف من طبعه ، وناكبا
 عن المعبود من سجيته ، فان اتفق له في قصة كلام جيد كان قدر ننتين أو ثلاثة
 وكان ما زاد عليها حشوا وما تجاوزها لغوا . ولا أقول انها تخرج من عادته
 عفواً لأنه يقصر عن العفو ، ويقف دون العرف ، ويتعرض للركاكة ، فان لم
 تقنع بما قلت لك من الايات فتأمل غير ذلك من السور ، هل نجد الجعم على
 ما وصفت لك لو لم تكن الا سورة واحدة لكفت في الاعجاز ، فكيف بالقرآن
 العظيم ؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى وأقنع وشفى ، ولو عرفت قدر
 قصة موسى وحدها من سورة الشعراء لما طلبت بيينة سواها بل قصة من قصصه

وهي قوله (٢٦ : ٥٢) : « وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي انكم متبعون » الى قوله (٢٦ : ٥٧ - ٦٠) : « فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني اسرائيل فأتبعوهم مشرقين » حتى قال (٢٦ : ٦٣) « فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » ثم قصة ابراهيم عليه السلام ، ثم لولم تكن الا الآيات التي انتهى اليها القول في ذكر القرآن وهي قوله (٢٦ : ١٩٢ - ١٩٥) : « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » وهذه كلمات مفردة بفواصلها ، منها ما يتضمن فائحة و فاصلة ، ومنها ما هي فائحة وواسطة و فاصلة ، ومنها كلمة بفواصلها تامة ، دل على أنه نزل على قلبه ليكون نذيراً ، وبين أنه آية لكونه نبياً ، ثم وصل بذلك كيفية الندارة فقال (٢٦ : ٢١٤ - ٢١٥) : « وأنذر عشيرتک الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » فتأمل آية آية لتعرف الاعجاز ، وتبين التصرف البديع ، والتنقل في الافصول الى آخر السورة ، ثم راع المقطع العجيب وهو قوله (٢٦ : ٢٢٧) : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد ، وان تنظم مثل هذا النظم ، وان نجد مثل هذه النظائر السابقة ، وتصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ؟

ولولا كراهة الاملال لجئت الى كل فصل فاستقرت على الترتيب كلماته ، وبيئت لك ما في كل واحدة منها من البراعة ومن عجب البلاغة ، ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده ، وتستضيء بنوره ، وتهتدي بهداه . ونحن نذكر آيات آخر لترداد استبصارا وتقدم تيقنا ، تأمل من الكلام المؤلف قوله (٤٠ : ١ - ٣) : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير » أنت قد تدربت الان بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته ، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم

مثل هذا النظم في هذا القدر ، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعاني وحسن الفاتحة والخاتمة ، وانل ما بعدها من الآسى واعرف وجه الخلوص من شيء الى شيء : من احتجاج الى وعيد ، ومن اعدار الى انذار ، ومن فنون من الامر شئى مختلفة تأتلف بشريف النظم ، ومتباعدة تتقارب بعلى الضم ، ثم جاء الى قوله (٤٠ : ٥ - ٦) : « كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » الآية الأولى أربعة فصول ، والثمانية فصلان ، وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله : « وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه » وهل تقع في الحسن موقع قوله ليأخذوه كلمة ؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة ؟ وهل يسد مسده في الاصلة نكتة لو وضع موضع ذلك ليقتلوه أو ليرجموه أو لينفوه أو ليطردوه أو ليهلكوه أو لينزلوه ونحو هذا ما كان ذلك بعيداً ولا بارعاً ولا عجبياً ولا بالغاً ، فانقد موضع هذه الكلمة وتعلم بها ما نذهب اليه من نخب الكلام [وجميل] (١) الالفاظ والاهتمام للمعاني فان كنت تقدر ان شبثا من هذه الكلمات التي [عددناها] (١) عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب فلا سبيل لك الى الوقوف على تصاريف الخطاب ، فافزع الى التقليد ، واكف نفسك مؤنة التفكير ، وان فطنت فانظر الى ما قل من رد عجز الخطاب الى صدره بقوله « فأخذتهم فكيف كان عقاب » ثم ذكر عقبيها العذاب في الآخرة واتلاها تلو العذاب في الدنيا ، على الاحكام الذي رأيت ، ثم ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل فقال (٤٠ : ٧) « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به » الى أن

(١) في مكان هذه الكلمة من الخطبة يابض بتقارها

ذكر ثلاث آيات ، وهذا كلام مفصول تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى وانتسابه الى ما تقدم وتقضى ، وعظم موضعه في معناه ، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله (٤٠ : ٧) : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنى . ولطيف هذه الحكاية ، وتلاؤم هذا الكلام ، وتشاكل هذا النظام ؟ وكيف يهتدي الى وضع هذه المعاني بشري ؟ والى تركيب ما يلائمها من الالفاظ انسي . ثم ذكر ثلاث آيات في أمر الكافرين على ما ترى ، ثم نبه على أمر القرآن وأنه من آياته ، بقوله (٤٠ : ١٣) : « هو الذي يرثكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر الا من ينيب » وانما ذكر هذين الأمرين الذين يختص بالقدرة عليهما لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء ، ولأن الرزاق الذي لولم يرزق لم يمكن بقاء النفس نجب طاعته والنظر في آياته ، ثم قال (٤٠ : ١٤ - ١٦) : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » قف على هذه الدلالة ، وفكر فيها ، وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية ، والكلمات السامية ، والحكم البالغة ، والمعاني الشريفة تعلم ورودها عن الالهية ودلائلها على الربوبية ، وتحقق أن الخطب المنقولة عنهم والأخبار الماثورة في كتابهم الفضيحة من الكلام الذي تعلق به الهمم البشرية وما تحوم عليه الأفكار الآدمية ، وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول ، أي خاطر يقشوف الى أن يقول : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون » وأي لفظ يدرك هذا المضمار ، وأي حكم يهتدي الى ما لهذا من الغور ، وأي فصيح يهتدي الى هذا النظم ؟ ثم استقرى الآية الى آخرها واعتبر كلماتها ، وراع بعدها قوله (٤٠ : ١٧) : « اليوم تجزي كل نفس بما كسبت

لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب « من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها وعلى خفتها في النظم وموقعها من القلب؟ ثم تأمل قوله (٤٠ : ١٨ - ٢) « وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاطمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير » كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها من أنه اذا رآها الانسان في رسالة كانت عينها ، أو في خطبة كانت وجهها أو قصيدة كانت غرة غرتها ، وبيت قصيدتها ، كليا فوثة التي تكون فريدة المقدم وعين القلادة ودرة السندر ، اذا وقع بين كلام وشحه واذا ضمن في نظام زينه ، واذا اعترض في خطاب تميز عنه ، وبان يحسنه منه ولست أقول هذا لك في آية دون آية ، وسورة دون سورة ، وفصل دون فصل ، وقصة دون قصة ، ومعنى دون معنى ، لأنني قد شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص وال اخبار ، وفي للشرائع وال احكام ، وفي الديانة والتوحيد وفي الحجج والتثبيات ، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الامور . ألا ترى أن الشاعر المقلق اذا جاء الى الزهد قصر ، والأديب اذا تكلم في بيان الاحكام وذكر الحلال والحرام لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره ، ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء ، ولا يتباين في أمر ، ولا يمتثل في حال ، بل له المثل الأعلى ، والفضل الأسنى . وفيما شرحناه لك كفاية ، وفيما ينهه بلاغ ونذكر في الاحكاميات وغيرها آيات أخر ، منها قوله (٥ : ٤) : « يستلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واثقوا الله إن الله سريع الحساب » . أنت تجد في هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب والنظم البارع ما يدلك - ان شئت - على الاعجاز مع هذا الاختيار والابجاز

فكيف اذا بلع ذلك آيات وكانت سورة؟ ونحو هذه الآية قوله (٧ : ١٥٧) :

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجسونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » وكلاية التي بعدها في التوحيد واثبات النبوة ، وكلايات الثلاث في الموارث . أي بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم؟ وان جمعت الى آيات الاحتجاج كقوله تعالى (٢١ : ٢٢ - ٢٣) :

« لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا فسمبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يُسئل عما يفعل وهم يسألون » . وكلايات في التوحيد كقوله (٤٠ : ٦٥) :

« هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » وكقوله (٢٥ : ١ - ٢) :

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . وكقوله (٦٧ : ١) :

« تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » الى آخرها وكقوله (٣٧ : ١ - ١٠) :

« والصفات صفا فلزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهيمك لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملأ الاعلى ويُفقدون من كل جانب دحورا ولم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » هذه من الآيات التي قل فيها الله تعالى ذكره (٣٩ : ٢٣) . « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تفشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يُضلل الله فإله من هاد » وانظر بعين عقلك وراجع جلية بصيرتك اذا تفكرت في

كلمة كلمة مما نقلناه اليك وعرضناه عليك ، ثم فيما ينتظم من الكلمات ، ثم الى أن يتكامل فصلا وقصة أو يتم حديثاً وسورة ، لا بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب ، وتدبره على نحو هذا التنزيل ، فلم ندع ما ادعيناه لبعضه ، ولم نصف ما وصفناه إلا في كله ، وان كانت الدلالة في البعض أبين وأظهر ، والآية أكشف وأبهر . واذا تأملت على ما هديناك اليه ووقفناك عليه فانظر هل ترى وقع هذا النور في قلبك واشتاله على لبك وسريانه في حسك ونفوذه في عروقك وامتلاكه به ايقانا واحاطة واهتمامك به ايماناً وبصيرة ، أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه والهزة تعمل في جوانبك من لون والاريجية تستولى عليك من باب ، وهل تجد الطرب يستفزك لطيف ما فطنت له ، والسرور يحررك من عجيب ما وقفت عليه ، وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك عزّة وفي أعطافك ارتياحاً وهزّة ، وترى لك في الفضل تقدماً وتبريزاً ، وفي اليقين سبقاً وتحقيقاً ، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة ، ومهاوهم في ظلال القلة والدلة ، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلاحظ بها مراتبهم بحيث يجب أن ترتبها . هذا كله في تأمل الكلام ونظامه ، وعجيب معانيه وأحكامه ، فان جئت الى ما انبسط في العالم من بر كته وأنواره ، وتمكن في الآفاق من يمنه وأضوائه ، وثبت في القلوب من ا كباره واعظامه ، وتقرر في النفوس من حتم أمره ونهيه ، ومضى في الدماء من مفروض حكمه ، والى أنه جعل عماد الصلاة التي هي ثلوا الايمان في التأكيد ، وثانيسة التوحيد في الوجود وفرض حفظه ، و و كل الصغار والكبار بتلاوته ، وأمر عند افتتاحه بما أمر به اتعظيمه من قوله « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » لم يؤمر بالتموذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه فهل يدلك هذا على عظيم شأنه وراجح ميزانه وعالي . مكانه وجملة الامر أن نقد الكلام شديد وتمييزه صعب

ومما كتب اليّ الحسن بن عبد الله العسكري : أخبرني أبو بكر بن دريد قال : سمعت أبا حاتم يقول : سمعت الاصمعي يقول : فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب . وقال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : العلماء بالشعر أعز من الكبريت الاحمر ، واذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشق تمييزه ، ويصعب نقده ، يذهب عن محاسنه الكثير ، وينظرون الى كثير من قبيحه بعين الحسن ، وكثير من حسنه بعين القبح ، ثم يختفون في الاحسن منه اختلافا كثيرا ، وتبين آراؤهم في تفضيل ما تفضل منه فكيف لا يتحIRON فيما لا يحيط به علمهم ، ولا يتأني في مقدورهم ، ولا يمثل بخواطرم ؟ وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم ولا أم بلاغة ولا أحسن براعة ، حتى دهشوا حين ورد عليهم ، وولعت عقولهم ، ولم يكن عندهم فيه جواب غير ضرب الامثال ، والتعرض عليه ^(١) ، والتوهم فيه ، وتقسيمه أقساما ، وجعله عضين . وكيف لا يكون أحسن الكلام وقد قال الله تعالى (٣٩ . ٢٣) : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ومن يضل الله فما له من هاد » استغنم فهم هذه الآية و كفاك ، استغفد علم هذه الكلمات وقد أغناك ، فليس يوقف على حسن الكلام بطوله ، ولا تعرف براعته بكثرة فصوله ، ان القليل يدل على الكثير ، والقريب قد يهجم بك على البعيد ، ثم انه سبحانه وتعالى لما علم من عظم شأن هذه المعرفة و كبر محلها و ذهابها على أقوام ذكر في آخر هذه الآية ما ذكر وبين ما بين ، فقال : « ذلك هدى الله يهدي به من يشاء » فلا يعلم ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد . وقال (٣٩ : ٢٣) : « ومن يضل الله فما له من هاد » وقال (٢ : ٢٦) : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً » وقد بسطنا لك القول رجاء افهامك ،

(١) لعله (والتعرض عليه)

وهذا المنهاج الذي رأيتُه ان سلكته يأخذ بيدك ويدلك على رشدك وبغنيك عن ذكر براعته آية آية لك . واعلم اننا لم نقصد فيما سطرناه من الآيات وصميناها من السور والدلالات ذكر الأحسن والأكشف والأظهر ، لانا نعتقد في كل سورة ذكرناها وأضر بنا عن ذكرها اعتقادا واحداً في الدلالة على الاعجاز والكفاية في المنع والبرهان ، ولكن لم يكن بد من ذكر بعض فذكرنا ما تيسر وقلنا فيما أتجه في الحال وخطر ، وان كنا نعتقد ان الاعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعض أدق وأعمق ، والكلام في هذا الفصل يجيء بعد هذا ، فاحفظ عنا في الجملة ما كررنا والسبر بعد ذلك في التفصيل اليك . وحصل ما أعطيناك من العلامة ، ثم النظر عليك

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم الى قسمين : أحدهما ما يتم بنفسه ، أو بنفسه وفاضلته فينير في الكلام انارة النجم في الظلام ، والثاني ما يشتمل على كلمتين أو كلمات اذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة وغاية البلاغة وانما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير أو خطاب طويل ، فتراها ما بينها تدل على نفسها وتعلو على ما قد قرن منها لعلو جنسها ، فاذا ضمت الى اخواتها وجاءت في ذواتها أرتك القلائد منظومة ، كما كانت تريك عند تأمل الافراد منها اليواقيت منشورة والجواهر مبثوثة ، ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر لأنشدت أفاضاً وقمت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه وكيف ترى بهجتها في أمثاله وكيف تمتاز منه ، حتى انه لو تأمله من لم يقرأ القرآن لتبين انه أجنبي من الكلام الذي تضمنه والباب الذي توسطه ، وأنكر مكانه واستكبر موضعه ، ثم تناسبها في البلاغة والابداع وتماثلها في السلاسة والاعراب ، ثم انفرادها بذلك الاسلوب وتخصصها بذلك الترتيب ، ثم سائر ما قدمنا ذكره مما نكره اعادته . وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه ، ويختل تصرفه في معانيه ، ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقه ،

ويضيق به النطاق في مذاهبه ، ويرتبك في أطرافه وجوانبه ، ويسلمه للتكلف والوحش كثرة تصرفه ، ويجبله على التصنع الظاهر موارد تنقله وتخلصه ، ونظم القرآن في مؤلفه ومختلفه ، وفي فصله ووصله ، وافتتاحه واختتامه ، وفي كل نهج يسلمكه ، وطريق يأخذ فيه ، وباب يتهم عليه ، ووجه يؤمه - على ما وصفه الله تعالى به - لا يتفاوت ، كما قال (٤ : ٨٢) : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ولا يخرج عن تشابهه وتمائله ، كما قال (٣٩ : ٢٨) : « قرآناً عربياً غير ذي عوج » ، وكما قال (٣٩ : ٢٣) : « كتاباً متشابهاً » ولا يخرج عن إبانته ، كما قال (٢٦ : ١٩٥) : « بلسان عربي مبين » وغيره من الكلام كثير التلون ، دائم التغير ، يقف بك على بديع مستحسن ، ويعقبه قبيح مستهجن ، ويطالع عليك بوجه الحسنا ، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوها ، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كالآلية الزهر ، وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهية ، قد يقع اليك منه الكلام المشبج^(١) والنظم المشوش ، والحديث المشوه ، وقد تجده ماله يتناسب ولا يتشابه ولا يتألف ولا يتماثل ، وقد قيل في وصف ما جرى هذا المجرى :

وشعر كبحر الكبش فرق بينه لسان دعى في القريض دخيل
وقال آخر :

وبعض قريض النوم أولاد علة يكذب لسان الناطق المتحفظ

فان قال قائل : فقد نجد في آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ولا تتميز الكلمات بوجه الإبراعة ، وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة ، وحاد يتجاوز حد الالفاظ المستبعدة ، وان كان الاكثر على ما وصفته به ، فيقول له : نحن نعلم أن قوله (٤ : ٢٣) : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم » الى آخر الآية ليس

من القبول الذي يمكن اظهار البراعة فيه و ابانة الفصاحة ، وذلك يجري عندنا
 بجرى ما يحتاج الى ذكره من الاسماء والالقب ، فلا يمكن اظهار البلاغة فيه ،
 فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة ، بل الذى يعتبر في نحو ذلك تنزيل
 الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى ، وذلك حاصل في هذه الآية - ان
 تأملت - ألا ترى انه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها وادلائها بنفسها ومكان
 بعضيتها ، فهي أصل اسكل من يدلى بنفسه منهن ، لانه ليس في ذوات الانساب
 أقرب منها ، ولما جاء الى ذوات الأسباب ألحق لها حكم الام من الرضاع ، لان
 اللحم ينشره اللبن بما يفدوه فيحصل بذلك أيضا لها حكم البعضية ، ففشر
 الحرمة بهذا المعنى وألحقها بالوالدة ، و ذكر الأخوات من الرضاة فنبه بها على
 كل من يدلي بغيرها و جعلها تلو الام من الرضاع ، والكلام في اظهار حكم هذه
 الآية وفوائدها يطول ، ولم نضع كتابنا لهذا ، وصيبل هذا أن نذكره في
 كتاب معاني القرآن ان سهل الله لنا املاه وجمعه ، فلم تنفك هذه الآية من
 الحكم التي تخلف حكمة الاعجاز في النظم والتأليف ، والفائدة التي تنوب مناب
 المدول عن البراعة في وجه الترصيف ، فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء ولم
 يهند للاغراض في دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته ، وقد
 يتفق في الشعر ذكر الاسامى فيحسن موقعه ، كقول أبي دواد الأسدي :
 ان يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
 بأشدهم كلاباً على أعدائه وأعزهم فقداً على الاصحاب
 وقد يتفق ذكر الاسامى فيفسد النظم ويقبح الوزن ، والآيات الاحكاميات
 التي لا بد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الالفاظ ما يعتبر في غيرها ، وقد
 يمكن فيها ، وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في باب ما ليس عليه

مزيد في البلاغة، وعجيب النظم، ثم في جملة الآيات ما ان لم تراع الديدع البليغ في الكلمات الافراد والالفاظ الآحاد فقد تجد ذلك مع تركيب الكلمتين والثلاث ويتردد ذلك في الابتداء، والخروج، والفواصل، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الوساطة، أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك، ما يخلف الابداع في أفراد الكلمات. وان كانت الجملة والمعلم على ماسبق الوصف فيه، واذا عرف ما يجري اليه الكلام، وينهى اليه الخطاب، ويقف عليه الاسلوب، ويختص به القبيل بان عند أهل الصنعة تميز به وافراد سبيله، ولم يشك البليغ في انتمائه الى الجهة التي يفتحي اليها، ولم يرتب الاديب البارع في انتسابه الى ما عرف من نهجه وهذا كما يعرف طريقه مقررسل في رسالته فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه فكأنه يرى أنه يعد عليه مجاري حركاته وأنفاسه. وكذلك في الشعر واختلاف ضروره يعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر، وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها، وتقصيتها يطول، وعجائبها لا تنقضي. فمنها الكلام^(١) والاشارات، واذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغاً ربما زاد الافهام به على الايضاح، أو ساوى مواقع التفسير والشرح مع استيفائه شروطه، كان النهاية في معناه، وذلك كقوله (١٧ : ١) : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لترى به من آياتنا انه هو السميع البصير » فصول هذه الآية وكلماتها على ما شرحناه من قبل البلاغة واللاطف في التقدم وفي تضمن هذا الامر العظيم والمقام الكريم، ويتلو هذه قوله (١٧ : ٢) : « وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل » هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصوير في صورة المنقطع، وقد تمتثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره وموقع ما لا ينفك منه القول، وقد يتبرأ الكلام

(١) يباشر بالاصلين يتبع لكلمة واحدة

المتصل بعضه من بعض ويظهر عليه التثبيح^(١) والتباين للخلل الواقع في النظم ، وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا ولم يبين عليه تميز الخروج ، ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب الى ذكر نوح وكيف أثنى عليه ؟ وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها - مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول - الى ذكره ، واجرائه الى مدحه بشكره ، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته ، وأن يستنوا بسفته في أن يشكروا وكشكروه ، ولا يتخذوا من دون الله وكيلاً ، وأن يعتمدوا تعظيم تخليصه ايام من الطوفان لما حملهم عليه ونجم فيه حين أهلك من عداهم به ، وقد عرفهم أنه انما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم ثم عاد عليهم بالافضال والاحسان حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولد لهم وعم من ذريته ، فلما عادوا الى جهاشهم وتمردوا في طغيانهم ، عاد عليهم بالتعذيب . ثم ذكر الله عز وجل في ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة التي كانت لهم بكلمات قليلة في العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير والكلام الطويل ، ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة على أعجب تدريج وأبداع تاريخ بقوله (١٧ : ٧) : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » ولم ينقطع بذلك^(٢) الكلام ، وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله وينتشر مع انتظامه ، فكيف بالقاء ما ليس منه في أثنائه وطرح ما بعده في أدراجه ؟ الى أن خرج الى قوله (١٧ : ٨) « عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا » يعني ان عدتم الى الطاعة عدنا الى العفو ، ثم خرج خروجاً آخر الى ذكر القرآن . وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام ، وماله من علو الشأن ، لا يطلب مطلباً

(١) التثبيح ، والتبج - حركة - اضطراب الكلام وتفتينه وتعمية الخط وترك بيانه

(٢) هنا بالنسخة الخطية ياض تسع لكلمة واحدة |

الا انفتح ، ولا يسلك قلبا الا انشرح ، ولا يذهب مذهباً إلا استنار وأضاء ،
ولا يضرب مضربا الا بلغ فيه السماء ، لا تقع منه على فائدة فقدرت انها أقصى
فوائدها الا قصرت ، ولا تظفر بمحكمة فظننت أنها زبدة حكمها الا وقد أخلت ،
ان الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار أهله ، وأحق من
هامة لو كان شعره كله كلابيات المختارة التي قدمناها لأوجب البراءة
من (١) قوله :

وَسِنَّةٌ كَسُنْدِيْقِي سِنَاءٌ وَسُنَّاءٌ ذَعْرَتْ بِعِدْلَاجِ الْمُهَيْبِزِ نَهْوُضِ
قال الاصمعي : لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنم . وقال بعضهم :
السنيق أكمة . وقال فيها :
له قُصْرٌ بِاعْيِرٍ وَسَاقَا نِعَامَةٍ كَفَحَلِ الْمُهْجَانِ الْقَيْصَرِيِّ الْعَضْوُضِ
وقوله :

صَافِيْرٌ وَذَبَّانٌ وَدُودٌ وَأَجْرٌ مِنْ مَجْلَجَلَةِ الذَّبَابِ (٢)
وزاد في تقبيح ذلك وقوعه في أبيات فيها :
فقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب
وكل مكارم الاخلاق سارت اليه همتي ونما اكتسابي
وكقوله في قصيدة قلما في نهاية السقوط :

أزمانَ فوها كلما نبيتها كالاسك فاح وظل في الفدّام
أفلا ترى أظعانهن بواكراً كالنخل من شوّ كان حين صرام
وكأن شاربها أصاب لسانه موم يخالط جسمه بستام
وكقوله :

(١) في الخطبة (منه)

(٢) في الخطبة (الذباب)

لم يفعلوا فعل آل حنظلة
 لا حِجْرِي وَفِي وَلَا عَدَسُ
 ان بنى عوف ابتنوا حسبا
 انهم حَجْرٌ بئسما ائتمروا
 ولا آسْتُ عَيْرٌ يَحْكُمُ النَّعْرُ
 ضيمه الداخولون^(١) اذ غدروا
 وكنقوله :

أبلغ شهابا وأبلغ
 انا تركنا منكم قتلى
 بمشين بين رحالنا
 هل أذاك الحيزمال^(٢)
 بخوعى وسيدا كاسعالى
 معترفات بجوع وهزال

ولم يقع مثل ذلك له وحده ، فقد قال الاعشى :

فأدخلك الله برد الجنا
 ن جدلان في مدخل طيب
 وقال أيضا :

فرميت غفلة عينه عن شاته
 فأصبت حبة قلبها وطحالمها
 وقال في فرسه :

ويأمر لليحموم كل عشية
 بقَتّ وتعليق فقد كاد يسق
 وقال :

شاو مثل شلؤل شلؤل شول^(٣)

وهذه الألفاظ في معنى واحد ، وقد وقم زهير نحوه كقوله :

فأقسمت جهداً بالمنازل من منى
 وما سفحت فيه المقادم والأنمز
 كيف يقال هذا في قصيدة يقول فيها :

وهل ينبت الخطلى الا وشيجه
 وتفرس الا في منابتها النخل
 وكنقول الطرِّ مآح :

(١) في الخطبة (الدخولون)

(٢) في الخطبة (هل أذاك الحيز مال)

(٣) صدر هذا البيت : وقد غدوت الى الحانوت يتبعني

صوف تدنيك من اميس سبتنا ة امارت بالبول ماء السكراض
 السبتنا: الناقة الصلبة ، والسكراض : ماء الفحل ، اسالت ماء الفحل مع
 البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف ، والمائر : السائل
 فان قال قائل أجدك تحاملت على امرى القيس ورأيت أن شعره يتفاوت
 بين الابن والشراسة ، وبين اللطف والشكاسة ، وبين التوحش والاستئناس ،
 والتقارب والتباعد ، ورأيت الكلام الأعدل أفضل ، والنظام المستوثق
 أكمل ، وأنت تجد البحري يسبق في هذا الميدان ، ويفوت الغاية في هذا
 الشأن ، وأنت ترى للكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ، ويقدمون رأيه في
 البلاغة على كل رأي ، وكذلك نجد لأبي نواس من بهجة اللفظ ودقيق المعنى
 ما يتحير فيه أهل اللفظ ويقدمه الشطار والظراف على كل شاعر ، ويرون لنظمه
 روعة لا يرون لنظم غيره ، وزبرجاً لا يتفق لسواه ، فكيف يعرف فضل
 ماسواه عليه ؟ فلجواب ان الكلام في أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن
 قد تقدم ، واذا كنا قد بينا ان شعر امرى القيس - وهو كبيرم الذي يقرون
 بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله ، وقائدهم الذي يأتون به ، وامامهم الذي
 يرجعون اليه - كيف سبيله وكيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن ، وانه
 لا يخلط بشعره غير ذلك النظم ، وهو اذا لحظ ذلك كان كما قال :

فأصبحت من ليلي الغداة كناظر مع الصبح في اعجاز نجم مغرب
 وكأقال أيضا :

راحت مشرقة ورحت مغربا فحق التقاء مشرق ومغرب
 واذا كنا قد أننا في القاعدة ما علمت ، وفصلنا لك في شعره ما عرفت ،
 لم نحتج الى أن تسكلم على شعر شاعر^(١) وكلام كل بليغ ، والقليل يدل على

(١) لعل العبارة هكذا (على شعر كل شاعر) الخ

الكثير، وقد بينا في الجملة مبادئ أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب، ومزيتة علمها في النظم والترتيب، وتقدمه عليها في كل حكمة وبراعة، ثم تكلمنا على التفضيل (١) على ما شهدت، ولا يبقى علينا بعد ذلك سؤال

ثم قول: أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحري في الصنعة به من الشغل في تفضيله على ابن الرومي أو سوية ما بينهما مالا يطعم معه في تقديمه على امرئ القيس ومن في طبقة، وكذلك أبو نواس إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير والتفاوت القليل، فلما إن يظن ظان أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن فكأنما خر من السماء فنحطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، وإنما هي خواطر يغير بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض والفرص الذي يرمي إليه ويصح التوافي عليه في الجملة فهو قبيل متداول و جنس متنازع، وشريعة مورودة، وطريقة مسلوكة. ألا ترى إلى ما روى عن الحسين بن الضحاك، قل: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها:

وشاطري اللسان محتاق التسكر به زان الجون بالنسك
كانه - نصب كانه - قرُّ يكرع في بعض أنجم الفلك

قال: فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها:

أعاذل أعتبتُ الامام واعتبا وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لسابقها (٢) اجزها فلم أكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عن عقارا ترى لها إلى الشرف الأعلى شعاعا مطنبا

إذا عاب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

قال: فقلت له: يا أبا علي هذه مصالته، فقال: أنظن أنه يرى لك معنى وأناحي؟ فنأمل هذا الاخذ وهذا الوضع وهذا الاتباع، أما الخليل فقد رأى

(١) في الحطة (التفصيل) (٢) في الحطة (لأقينا)

الابداع في المعنى ، فأما العبارات فانها ليست على ما ظنه ، لان قوله « يكرع » ليس بصحيح وفيه ثقل بين وتفاوت ، وفيه احالة ، لان القمر لا يصح تصور أن يكرع في نجم ، وأما قول أبي نواس : « اذا عب فيها » فكلمة قد قصد فيها المتانة وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح ، وقوله : « شارب القوم » فيه ضرب من التكلف الذي لا بد له منه أو من مثله لاقامة الوزن ، ثم قوله : « خلته يقبل في داج من الليل كوكبا » تشبيه بحالة واحدة من أحواله ، وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك ، وإنما يتناوله ليلا ، فليس بتشبيه مستوفى على ما فيه من الوقوع والملاحة . وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع :

ومهفهف تمت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
نصبو الكئوس الى مراشفه وتمحن في يده الى الحبس
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أفامل^٥ الخمس
وكانها وكأن شاربها قر يقبل عارض الشمس

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب ، الا انه تمكن من إرادته في بيتين وهما - مع سبقهما الى المعنى - آتيا به في بيت واحد

وانما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة يقع فيها التنافس والتعارض ، والاطلاع متعلقة بها ، والمهم تسمو اليها ، وهي ألف طباعنا وطوع مدار كنا وبحاجس الكلامنا ، واعجاب قوم بنحو هذا وما يجري أبحراه ، وإشار أقوام لشعر البحري على أبي تمام وعبد الصمد وابن الرومي ، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه ، وذهاب قوم عن المعرفة ، ليس بأمر يضربنا ، ولا صيب يصترض على أفهامنا

ونحن نعهد الى بعض قصائد البحري فنتكلم عليها كما تكلمنا على

قصيدة امرئ القيس ، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة ، ويستخلص من سر المعرفة سريرة ، ويعلم كيف تكون الموازنة ، وكيف تقع المشابهة والمقاربة ، ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره

سمعت الصاحب اسماعيل بن عباد يقول : سمعت أبا الفضل بن العميد يقول : سمعت أبا مسلم الرستمي يقول : سمعت البحرني يذكر أن أجود شعره قاله :

أهلاً بذلك الخيال المقبل

قال : وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول : أجود شعره هو قوله في الشيب :
زجر له لو كان ينزجر

قال : وسئلت عن ذلك فقلت : البحرني أعرف بشعر نفسه من غيره فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا ، قوله :
أهلاً بذلك الخيال المقبل فعل الذي نهواه أو لم يفعل
برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلل
البيت الأول ، في قوله « ذلكم الخيال » نقل روح وتطويل وحشو ، وغيره أصلح له . وأخف منه قول الصنوبري :

أهلاً بذلك الزور من زور شمس بدت في فلك الدور
وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف ، فيصير إلى الكرازة ، وتعود ملاحظته بذلك ملوحة ، وفصاحته عيياً ، وبراعته تكلفاً ، وسلاسته تعسفاً وملاسته تولياً وتعدياً ، فهذا فصل . وفيه شيء آخر ، وهو أن هذا الخطاب إنما يستقيم معها خوطب به الخيال حال اقباله ، فأما أن يحكى الحال التي كانت وصفت على هذه العيادة ففيه عهدة ، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عهدة ، وهو - لبراعته وحذقه في هذه الصنعة - يعاقب نحو هذا الكلام ولا ينظر في عواقبه ، لأن ملاحظة قوله تغطي على عيون الناظرين فيه نحو هذه الأمور . ثم قوله :

« فعل الذي نهواه أو لم يفعل » ليست بكلمة رشيقة ، ولا لفظة ظريفة ، وإن كانت كسائر الكلام . فأما بيته الثاني فهو عظيم الموقع في البهجة ، وبديع المأخذ حسن الرواء ، أنيق المنظر والمسموع ، يملأ القلب والذهن ، ويفرح الخاطر ، وترى بشاشته في العروق . وكان البحترى يسمي نحو هذه الآيات عروق الذهب ، وفي نحوه ما يدل على براعته في الصناعة ، وحذقه في البلاغة : ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل ، مع الديباجة الحسنة والرونق المليح ، وذلك أنه جعل الخليل كالبرق لاشراقه في مسراه كما يقال انه يسري كنسيم الصبا فيطيب ما مر به كذلك يضيء ما مر حوله وينور ما مر به وهذا غلو في الصنعة الا ان ذكره بطن وجرة حشو ، وفي ذكره خلل ، لان النور القليل يؤثر في بطون الارض وما اطمان منها ، بخلاف ما يؤثر في غيرها ، فلم يكن من سبيله ان يربط ذلك ببطن وجرة ، وتحديد المكان على الحشو احمد من تحديد امرىء للقيس من ذكر سقط الولى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة ، لم يقنع بذلك حد حتى حده بأربعة حدود ، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى - ان أخل بمحمد - أن يكون بيعه فاسداً او شرطه باطلا ، فهذا باب . ثم انما يذكر الخليل بخفاه الاثر ودقة المطلب ولطف المسلك ، وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه ويخالف ما يوضع عليه اصل الباب . ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحترى قطع الكلام الاول وابتدأ بفكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة ، لان هذا القطع ان كان فعلة كان خارجا به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعا ، ثم كان لا تكون فيه فائدة ، لان كل برق شعل وتمكرر وقع الاهتداء به في الظلام ، وكان لا يكون بما نظمه مفيدا ولا متقدما ، وهو على ما كان من مقصده فهو ذو لفظ محمود ، ومعنى مستحب غير مقصود ، ويعلم بمثله أنه طلب العبارات ، وتعليق القول بالاشارات ، وهذا من الشعر الجنس الذي يحلو لفظه وتتل فوائده كقول القائل :

ولما قضينا من معنى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
 وشدت على جذب الهامى رحالنا ولا ينظر الغادى الذي هو رانح^(١)
 أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الاباطح
 هذه أفاظ بعيدة المطالع والمقاطع ، حلوة الهجائي والمواقع ، قليلة المعاني
 والفوائد . فأما قول البحري بعد ذلك :

من عادة مُنعت وتمنع نيلها فلو آتتها بدت لنا لم تبذل
 كالبدر غير مخبل والغصن غير مميل والدعص غير مهيل
 فالبيت الاول - على ما تكلف فيه من المطابقة ، ونجشم الصنعة - أفاظه
 أوفر من معانيه ، وكلماته أكثر من فوائده ، وتعلم أن القصد وضع العبارات
 في مثله ، ولو قل هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله ، وتكثيره الكلام
 وتحويله ، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان . وأما البيت الثاني ، فأنت
 تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول ، ولا فضيلة في
 التشبيه بنحو ذلك ، وإنما يبقى تشبيه ثلاثة اشياء بثلاثة اشياء في البيت ، وهذا أيضا
 قريب لأن المعنى مكرر ، ويبقى له بعد ذلك شيء آخر وهو عمله لترصيع في
 البيت كله ، الا أن هذه الاستننات فيها ضرب من التكلف ، لأن التشبيه
 بالغصن كاف ، فاذا زاد فقال كالغصن غير معوج كان ذلك من باب التكلف
 خلا ، وكان ذلك زيادة يستغنى عنها ، وكذلك قوله « كالدعص غير مهيل »
 لأنه اذا انهل خرج عن ان يكون مطلق التشبيه مصروفا اليه ، فلا يكون
 لتقييده معنى ، وأما قوله :

ما الحسن عندك يا سعاد بمُحسِنِ فيما أتاه ولا الجمال بمُجَمِّلِ
 عدل المشوق وان من سما الهوى في حيث تجمله لجاج العدل
 قوله - في البيت الاول - « عندك » حشو ، وليس بواقع ولا بديع

(١) في غير هذا الكتاب : وشدت على دعم المطايا رحالنا ولم ينظر العادى الذي هو رانح

وفيه كلفة، والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء، وفيه شيء آخر لانه يذكر أن حسنهما لم يحسن في تهيبج وجهه وتهيبم قلبه، وضد هذا المعنى هو الذي يميل اليه أهل الهوى والحب. ويبت كشاجم أسلم من هذا وأبعد من الخلل، وهو قوله:

بحياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمال عليك وقفا أجملي

وأما البيت الثاني فإن قوله « في حيث » حشا بقوله في كلامه، ووقع ذلك مستنكراً وحشياً نافرأ عن طبعه، جافياً في وضعه، فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن، فهو يمحو حسنه، ويأتي على جماله. ثم في المعنى شيء لان لجلاج العذل لا يدل على هوى مجهول، ولو كان مجهولاً لم يهتدوا للعذل عليه، فعمل أن المقصد استجلاب العبارات دون المعاني، ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن في البيت معنى بديع ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل، فان ذلك جملهم الذلول، وقولهم المكرر. وأما قوله:

ماذا عليك من انتظار متيم بل ما يضرك وقفة في منزل

ان سيل عى عن الجواب فلم يطق رجماً فكيف يكون ان لم يُسأل

لست أنكر حسن البيتين، وظهر فيهما ورشاقتهما ولطفهما وما هما بهجتهما،

الا أن البيت الاول منقطع عن الكلام المتقدم ضرباً من الانقطاع، لانه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر، وإنما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائم. ثم الذي ذكره من الانتظار - وان كان مليحاً في اللفظ - فهو في المعنى متكلف، لان الواقف في الدار لا ينتظر أمراً، وإنما يقف تحسراً وتذلاً وتبجيراً والشطر الاخير من البيت واقع والاول مستجلب، وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر لان وضع البيت يقتضي تقدم عذل على الوقوف، ولم يحصل ذلك المذكوراً في شعره من قبل، وأما البيت الثاني فانه معلق بالاول لا يستقل الا به، وهم

يعيبون وقوف البيت على غيره ، ويرون أن البيت التام هو المحمود والمصرع التام بنفسه - بحيث لا يقف على المصرع الآخر - أفضل وأتم وأحسن . وقوله : « فكيف يكون ان لم يسأل » مليح جداً ، ولا تستمر ملاحظة ما قبله عليه ، ولا يطرد فيه الماء . اطراده فيه ، وفيه شيء آخر ، لانه لا يصلح أن يكون السؤال سبباً لان يعاين الجواب ، وظاهر القول يقتضيه . فأما قوله :

لا تكلمن لى الدموع فان لى دمعاً يتم عليه ان لم يفضل
 ولقد سكنت الى الصدود من النوى والشرى أرى عند طعم الخنظل
 وكذلك طرفة حين أوجس ضربة في الرأس هان عليه فصد الاكمل

فالبيت الاول مخالف لما عليه مذهبه في طلب الاسعاد بالدموع ، والاسعاف بالبكا . ومخالف لاول كلامه ، لانه يفيد مخاطبة العنذل وهذا يفيد مخاطبة الرفيق . وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها ، ولذلك قال الله عز وجل « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون » فأخبر أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم ، واللفظ كيف أطاعهم ، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم ، وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بانططاب ، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن ، فصار بهذا أبلغ خطابهم . ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن في ذلك شيء يفوت شعر شاعر أو كلام متكلم . وأما قوله : « والشرى أرى » فانه وان كان قد تصنع له من جهة الطباق ومن جهة التجنيس المقارب فهي كلمة ثقيلة على اللسان ، وهم يذمون نحو هذا ، كما عابوا على أبي تمام قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي ومتى ^(١) ما لمته لمته وحدي
 ذكر لى الصاحب بن عباد أنه جرى أبا الفضل بن العميد في محاسن

(١) الذى في كتب المعاني (وإذا ما لته)

القصيدة حتى انتهى الى هذا البيت فذكر له أن قوله « أمدحه أمدحه » معيب
لثقله من جهة تدارك حروف الخلق ، ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا
في هذه النكتة فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف . ثم إن قوله « عنده
أكل الحنظل » ليس بحسن ولا واقع . وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه
غريب في طباعه ، نافر من جملة شعره ، وفيه كزازة ولجاجة وإن كان المعنى
صالحاً ، فأما قوله :

وأغر في الزمن البهيم محجل قد رحنتُ منه على أغر محجل
كالميه كل المبني إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل

فالبيت الاول لم يتفق له فيه خروج حسن بل هو مقطوع عما سلف من
الكلام ، وعلامة خروجه نحو هذا ، وهو غير بارع في هذا الباب ، وهذا منموم
معيب منه ، لأن من كان صناعته الشعر ، وهو يأكل به ، و تغافل عما يرفع
اليه في كل قصيدة ، واستهان بأحكامه وتجويده مع تتبعه لان يكون عامة ما
يصدر به اشعاره من النسيب عشرة أبيات وتتبعه للصنعة للكثيرة وتركيب
العبارات وتنقيح الالفاظ وتزويرها - كان ذلك أدخل في عيبه ، وأدل على
تقصيره أو قصوره ، وأنه لا يقع له الخروج منه ، وأما قوله : « وأغر في الزمن
البهيم محجل » فإن ذكر التمجيل في المدوح قريب ، وليس بالجيد ، وقد
يمكن أن يقال انه اذا قرن بالأغر حسن ، وجرى مجراه ، وانخرط في سلكه ،
وأهوى الى مضاره ، ولم ينكر لمكانه من جواره ، فهذا عذر ، والجدول عنه
أحسن . وإنما أراد أن يرد العجز على الصمد ويأتي بأوجه التجنيس ، وفيه
شيء ، لان ظاهر كلامه يوم أنه قد صار ممتطي الاغر الاول ورأى عليه ، ولو
سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء وأقويل الناس ، فأما ذكر
الميكمل في البيت الثاني ورد عجز البيت عليه وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة
وعمل شيئاً حتى كررها فهي كلمة فيها ثقل ، ونحن نجدهم اذا أرادوا أن يصنعوا

نحو هذا قالوا : « ما هو الا صورة ، وما هو الائنثال ، وما هو الادمية وما هو الاظبية » ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب و اللسان ، وقد استدرك هو أيضا على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل ، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل كان أولى وأجمل ، ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها ، وأفزعوهم بذكرها ، وذلك من كلامهم وشبيهه بصناعتهم . وأما قوله :

وإني الضلوع يشد عقد حزامه يوم اللقاء على مغم مخول
أخواله للرُسْمَيْنِ بفارس وجدوده للتَّبَعَيْنِ بموكل

نبل المحزم مما يمدح به الخليل فهو لم يأت فيه ببديع ، وقوله : « يشد عقد حزامه » داخل في التكلف والتعسف ، لا يقبل من مثله وان قبلناه من غيره لانه يتبع الالفاظ وينقدها نقداً شديداً ، فهلا قال يشد حزامه ، أو يأتي بحشو آخر سوى العقد ، فقد عقد هذا البيت بذكر العقد ثم قوله « يوم اللقاء » حشو آخر لا يحتاج اليه ، وأما البيت الثاني فمعناه أصلح من ألفاظه ، لانها غير مجانسة لطباعه ، وفيها غلظ ونفاز ، وأما قوله :

يهوى كما تهوى العقاب وقد رأت صيداً وينقض انقضا الأجل
متوجس برقيقتين كأنما تُريان من ورق عليه موصّل
ما إن يعاف قننى ولو أوردته يوماً خلائق حمديويه الاحول

البيت الاول صالح ، وقد قاله الناس ولم يسبق اليه ولم يقل ما لم يقولوه بل هو منقول ، وفي سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها ، وقد يقولون : « يفوت الطرف ، ويسبق الريح ، ويجاري الوم ، ويكر النظر » ولولا أن الاتيان على محاسن ما قالوه في ذلك يخرج الكلام عن غرض المكتب لنقلت (١) لك جملة مما ذهبوا اليه في هذا المعنى ، فنتبغ تعلم أنه لم

(١) كنا في الخطبة وهو الصواب . وفي الطبوعة (نقلت)

يأت فيها بما يجمل عن الوصف أو يفوت منتهى الحد . على أن الهويّ يذكر عند الانقضاء خاصة ، وليس للفرس هذه الصفة في الحقيقة ، إلا أن يشبه حده في العدو بحالة انقضاء اللبازي والعقاب ، وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيراتها . وأما البيت الثاني فقوله ان الاذنين كاتهما من ورق موصل ، وأما أراد بذلك حدّتهما ، وسرعة حرّ كتهما واحساسهما بالصوت كما يحس الورق بمخيف الريح ، وظاهر التشبيه غير واقع ، واذا ضمن ما ذكر نامن المعنى كان المعنى حسنا ولكن لا يدل عليه اللفظ ، وأما يجري مجرى المضمن ، وليس هذا البيت برائق اللفظ ولا مشاكل فيه لطبعه غير قوله متوجس برقيقتين فان هذا القدر هو حسن . وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب الاستطراد ، ونقلنا نظائر ذلك من قول أبي تمام وغيره ، وقطعة أبي تمام في نهاية الحسن في هذا المعنى . والذي وقع للمجنري في هذا البيت عندي ليس بجيد في لفظ ولا معنى ، وهو بيت وحش جداً قد صار قذى في عين هذه القصيدة ، بل وخزا فيها ووبالا عليها ، قد كدر صفاءها وأذهب بهاءها وماءها وطمس بظلمته سناها ، وما وجه مدح للفرس بأنه لا يعاف قذى من المياه اذا وردها ؟ كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار في قوله :

ولا يشرب الماء الا بدم

واذا كان لهذا الباب مجانباً ، وعن هذا سمت بعيداً ، فهلا وصفها بعزة الشرب كما وصفها المتنبي في قوله :

وصول الى المستصعبات بخيله فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

وهلا سلك فيه مسلك القائل .

وإلى الماء الذي شابه القذى اذا كثرت ورّاده لعيوف

ثم قوله « ولو أوردته يوماً » حشو بارد ثم قوله « حمويه الاحول » وحش

جدا ، فما أمقت هذا البيت وأبغضه ، وما أثقله وأسخفه ، وإنما غطى على عينه عيبه وزين له إيراده طمعه في الاستطراد ، وهلا طمع فيه على وجه لا يفض من بهجة كلامه ولا معنى ألفاظه ، فقد كان يمكن ذلك ولا يتهدر ، فأما قوله :
ذَنبٌ كَمَا سَحَبَ الرِّدَاءَ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ وَعَرَفَ كَالْقِنَاعِ الْمَسْبِلِ
تتوهم الجوزاء في أرساغه والبدر فوق جبينه المتهلل
فالبيت الاول وحش الابتداء ، منقطع عما سبق من الكلام ، وقد ذكرنا أنه لا يهتدي لوصل الكلام ونظام بعضه الى بعض ، وإنما يتصنع لغير هذا الوجه ، وكان يحتاج أن يقول ذنب كالرداء فقد حذف الوصل غير منسق ولا مليح ، وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله . ثم قوله : « كما سحب الرداء » قبيح في تحقيق التشبيه ، وإيس بواقع ولا مستقيم في العبارة إلا على اضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء . وقوله : « يذب عن عرف » ليس بحسن ولا صادق ، والمحمود ما ذكره امرؤ القيس ، وهو قوله :

فويق الأرض ليس بأعزل

وأما قوله : « تتوهم الجوزاء في أرساغه » فهو تشبيه مليح ولكنه لم يسبق اليه ولا انفرد به ، ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم وغير ذلك من الامور وتشبيه الحجول لتعجبت من بدائع قد وقوا عليها ، وأمر مليحة قد ذهبوا اليها ، وليس ذلك موضع كلامنا ، فتنبع ذلك في أشعارهم تعلم ما وصفت لك

واعلم انا تر كنا بقية كلامه في وصف الفرس لانه ذكر عشرين بيتاً في ذلك ، والذي ذكرناه في هذا المعنى يدل على ما بعده ، ولا يمدو ما تركناه أن يكون متوسطا الى حد لا يفوت طريقة الشعراء ولو تنبعت أقاويل الشعراء في وصف الخيل علمت أنه وان جمع فأوعى وحشر فنأدى ففهم من سبقه في ميدانه ، ومنهم من ساواه في شأوه ، ومنهم من داناه

فالقبيل واحد ، والنسيج متشاكل ، ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم في ذلك لنقف على ما قلت ، فتجاوزنا الى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة ، قال :

لمحمد بن علي الشرف الذي لا يلحظ الجوزاء إلا من عل
وسحابة لولا تتابع مُزَنها فينا لراح المزن غير مُبَخَّل
والجود يمداه عليه حاتم سَرَفًا ولا جودُ لمن لم يُعَدَل

البيت الأول منقطع عما قبله على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني وفصله بينها وقلة تأنيه لتجويد الخروج والوصل ، ذلك نقصان في الصناعة وتخلف في البراعة ، وهذا اذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها ، وأما اذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذرا . وأما المعنى الذي ذكره فليس بشيء مما سبق اليه ، وهو شيء مشترك فيه ، وقد قالوا في نحوه : ان مجده سماه السماء وقالوا في نحوه الكثير الذي يصعب نقل جميعه ، وكما قال المتنبي .

وعزمة بعنتها همة زحل من تحتها يمكن الترب من زحل
وحدثني اسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل ثم قال لمن حضره : أتدري من هذا ؟ هو الذي قال في أبيه البحثري : « لمحمد بن القاسم الشرف الذي » فذلك يدل على استعظامه للبيت ^(١) بما مدح به من البيت . والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب ، وهو حديث مكرر ليس ينفك مديح شاعر منه ، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة ابداع كما قد يقع لهم في نحو هذا ، ولكنه لم يتصنع له وأرسله ارسالا ، وقد وقع في المصراع الثاني ضرب من الخلل ، وذلك ان المزن انما يبخل اذا منع نيله ، فذلك موجود في كل نيل ممنوح ، وكلاهما محمود مع الاسعاف ، فان أسعف أحدها ومنع الآخر لم يمكن التشبيه ، وان كان انما شبه غالب أحدهما بالآخر ، وذكر قصور أحدها عن صاحبه حتى أنه قد يبخل في وقت والآخر لا يبخل بحال ،

(١) في الخطبة (الليت)

فهذا جيد ، وليس في حمل الالفاظ على الاشارة الى هذا شيء ، والبيت الثالث وان كان معناه مكرراً فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم يشبه ألفاظ المبتدئين ، وأما قوله :

فضل وافضال وما أخذ المدى بعد المدى كالفاضل المنفضل
سار إذا ادّج العفاة الى الندى لا يصنع المعروف غير معجل
فالبيت الاول منقطع عما قبله وليس فيه شيء غير التجنيس الذي ليس
بمديد لتكرره على كل لسان ، وقوله : « ما أخذ المدى » فانه لفظ مليح ، وهو
كقول القائل :

قد أركبُ الآلة بعد الآله

وروي : الحالة بعد الحالة . وكقول امرئ القيس .

سمو حباب الماء حالاً على حال

ولكنها طريقة مدلاة فهو فيها تابع . وأما البيت الثاني فقريب في اللفظ

والمعنى ، وقوله : « لا يصنع المعروف » ليس بلفظ محمود . وأما قوله :

عال على نظر الحسود كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل

أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول

فالبيت الاول منكر جداً في جر النجوم بالارسان موضعه الى العلو

والتكاف فيه واقم ، والبيت الثاني أجنبي عنه ، بعيد منه ، وافتتاحه رديء

وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانة والتوقيف ؟ والبيتان أجنبيان من

كلامه ، غريبان في قصيدته ، ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد ،

ألا ترى أنه قال بعد ذلك :

نفسى فداؤك يا محمد من فقى يوفي على ظلم الخطوب فتنجلي

انى أريد أبا سعيد ، والعدى بينى وبين صحابه المتهلل

كأن هذا ليس من طبعه ولا من سبكه ، وقوله :

مضر الجزيرة كلها وربيعه الـ خابور توعدي وأزْدُ الموصل
 قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخيك من ادأ أبيك بمنصل
 البيت الاول حسن المعنى وان كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه
 التحسين، وهذا المعنى قد يمكن إيرادُه بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق
 منه ، كقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا
 والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف ،
 وهو قبيح اللفظ حيث يقول فيه : « فثنته لأخيك من أدأ أبيك » ومن أخذه
 بهذا التعرض لهذا السجع وذكر هذا النسب حتى أفسد به شعره . وأما قوله
 بعد ذلك في وصف السيف ، يقول :

يقناول الروح البعيد منالها عفوا ويفتح في القضاء المقفل
 بابانة في كل حتف مظلم وهداية في كل نفس مجمل
 ماض وان لم يعضه يد فارس بطل ومصقول وان لم يصقل
 ليس لفظ البيت الاول بمضاه لذيباجة شعره ، ولا له بهجة نظمه ، لظهور
 أثر التكلف عليه ، وتبين ثقل فيه ، وأما القضاء المقفل وفتح فكلام غير
 محمود ولا مرضي ، واستعارة لو لم يستمرها كانت أولى به ، وهلا عيب عليه
 كما عيب على أبي تمام قوله :

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا
 وقالوا يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه ، وقد اتبعه البحثري
 في استعارة الاخدع ولو عا باتباعه فقال في الفتح :

واني وقد بلغتني الشرف للعلا وأعتقت من ذل المطامع أخدعي
 ان شيطانه حيث زين له هذه الكلمة تابعه حين حسن عنده هذه اللفظة
 تخليث مارْدُ وردي. معاند ، أراد أن يطلق أئنة الذم فيه ، ويسرح جيوش

العتب اليه ، ولم يقنع بقفل القضاء حتى جعل للحنف ظلمة تجلي بالسيف ،
وجعل السيف هاديا في النفس المجهل الذي لا يهتدى اليه ، وليس في هذا مع
تحسين اللفظ وتنميته شيء لأن السلاح وان كان معيبا فانه يهتدى الى النفس ،
وكان يجب أن يبدع في هذا ابداع المتنبي في قوله :

كأن الهام في الميحا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صفت الاسنة من هموم فما يَحْطُرُنَ الا في الفؤاد

فلاهتمام على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن . وفي البيت الاول شيء
آخر ، وذلك أن قوله : « ويفتح في القضاء » في هذا الموضع حشو رديء
يلحق بصاحبه اللكنة ، ويلزمه المهجنة . وأما البيت الثالث فانه أصلح هذه
الايات وان كان ذكر الفارس حشوا وتكلفاً ولفواً لأن هذا لا يتغير بالفارس
والراجل ، على أنه ليس فيه بديع . وأما قوله :

يفشى الوغى والترس ليس بجنة من حده والدرع ليس بمقل
مصغ الى حكم الردي فاذا مضى لم يلتفت واذا قضى لم يعبدل
متوقد يبري بأول ضربة ما أدركت ولو أنها في يدبل

البيتان الاولان من الجنس الذي يكثر كلامه عليه وهي طريقه الذي
يجتنيها ، وذلك من السبك الكتابي والكلام المعتدل ، الا أنه لم يبدع فيها
بشيء ، وقد زيد عليه فيها ، ومن قصد الى أن يكمل عشرة آيات في وصف
السيف فليس من حكمة أن يأتي بأشياء منقولة وأمور مذكورة ، وصبيه أن
يفرب ويبدع كما ابداع المتنبي في قوله :

سله الركض بعد وهن بنجد فتصدى للفيث أهل الحجاز

هذا في باب صقاله وأضوانه وكثرة مائه ، وكقوله :

ريان لو قذف الذي أسميته لجرى من المهجات ببحر مزبد

وقوله : « مصغ الى حكم الردي » ان تأملته مقلوب ، كان ينبغي أن يقول : يصغى الردي الى حكمه ، كما قال الآخر :

فالسيف يأمر والاقدار تنتظر

وقوله : « واذا قضى لم يعدل » متكرر على أسننتهم في الشعر خاصة في نفس هذا المعنى ، والبيت الثالث سليم وهو كالاولين في خلوه عن البديع ، فأما قوله :

فاذا أصاب فكل شيء مقتل واذا أصيب فما له من مقتل

وكأنما سود النمال وجرها دبت بأيد في قراه وأرجل

البيت الأول يقصد به صنعة اللفظ ، وهو في المعنى متفاوت ، لأن المضرب قد لا يكون مقتلاً ، وقد يطلق الشعراء ذلك ويرون أن هذا أبداع من قول المتنبي وأنه بضده :

يقتل السيف في جسم القتيل به وللسيوف كما للناس آجال

وهذه طريقة لهم يتمدحون بها في قصف الرمح طعنا وتقطيع السيف

ضرباً . وفي قوله : « واذا أصيب فما له من مقتل » تعسف لأنه يريد بذلك أنه لا يتكسر ، فالتعبير بما عبر به عن المعنى الذي ذكرناه يتضمن التكلف وضرباً من المحال ، وليس بالنادر ، والذي عليه الجملة ما حكيناه عن غيره ونحوه قال بعض أهل الزمان :

يقصف في الفارس السمهري وصدور الحسام فريقيا فريقيا

والبيت الثاني أيضاً هو معنى مكرر على أسننة الشعراء ، وأما تصنيعه بسود

النمال وجرها فليس بشيء ، ولعله أراد بالجر الذر ، والتفصيل بارد ، والاعراب

به منكر ، وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال : كان كذا حين كانت الثريا بجذاه

رأسي على سواء ، أو منحرفاً قدر شبر أو نصف شبر أو اصبع أو ما يقارب ذلك

فقيل له : هذا من الورع الذي يبغضه الله ، ويمقتة الناس ، ورب زيادة كانت

نقصانا ، وصفة النمل بالسواد والحمره في هذا من ذلك الجنس وعليه خرج بقية البيت في قوله :

دبت بأيدي في قراه وأر جل

وكان يكفي ذكر الار جل عن ذكر الايدي ، ووصف الفرند بمدب النمل شيء لا يشذ عن أحد منهم ، وأما قوله :

وكان شاهره اذا استضوى به الزحفان يعصى بالسماك الاعزل
حملت حمائله القديمة بقلة من عهد عاد غضة لم تبدل

البيت الاول منهما فيه ضرب من التكاف ، وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم ، وإنما ^(١) يقول : « قريشد على الرجال بكوكب » فجعل ذلك السكوكب السماك ، واحتاج الى أن يجعله أعزل للقافية ولو لم يحتج الى ذلك كان خيرا له ، لان هذه الصفة في هذا الموضع تفضيه من الموضع وموضع التكاف الذي ادعيناه الحشو الذي ذكره من قوله : « اذا استضوى به الزحفان » وكان يكفي أن يقول : كأن صاحبه يعصى بالسماك ، وهذا وان كان قد عمل فيه لفظ فهو لغو على ما بيننا ، وأما البيت الثاني ففيه لغو من جهة قوله : « حمائله قديمه » ولا فضيلة له في ذلك ، ثم تشبيهه للسيف بالبقلة من تشبيهات العامة والكلام الرذل للنذل ، لأن العامة قد يتفق منها تشبيهه واقع حسن . ثم انظر الى هذا المقطع الذي هو بالعلي أشبه منه بالفصاحة ، والى اللكنة أقرب منه الى البراعة ، وقد بينا أن مراعاة الفواتح والخطوات والمطالع والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لا بد منه ، وان الاخلال بذلك يخل بالنظم ، ويذهب رونقه ، ويحيل بهجته ، ويأخذ مائه ويهائه

وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلفت ما سطرته ، لان هذا القبيل قبيل

(١) كنا بالاصلين ، ولعل البارة (وإنما اراد ان يقول)

موضوع متعمل مصنوع ، وأصل الباب في الشعر على أن ينظر الى جملة القصة ثم يتعمل الالفاظ ، ولا ينظر بعد ذلك الى مواقعها ، ولا يتأمل مطارحها . وقد يقصد تارة الى تحقيق الاغراض ، وتصوير المعاني التي في النفوس ، ولكنه يلحق بأصل بابه ، ويميل بك الى موضعه ، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل . وان أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذكرت لك أن الشعراء قد نصر فوا في ذلك بما يقع اليك - ان كنت من أهل الصنعة - مما يطول على نقله وكذلك في السيف . وذكرك لي بعض أهل الادب أن أحسن قطعة في السيف قول أبي الهول الحميري :

حاز صمصامة الزبيدي من بيمن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان - فيما سمعنا - خير ما أطبقت عليه الجفون
أخضر اللون بين برديه حد من دُعاف تيمس فيه المنون
او قدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت له الذعاف القيون
فاذا ما شهرته بهر الشمس ضياء فلم تكد تسقيين
يستطير الابصار كالتبس المشعل لا تستقيم فيه العيون
وكان الفرند والروثق الجا ري في صحفته ماء معين
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهية جاء يعصى به ونعم القرين
ما يبالي اذا اتجاه بضرب اشمال سطت به أم بين

وانما يوازن شعر البحثري بشعر شاعر من طبقتة ومن أهل عصره ومن هو في مضاره أو في منزلته . وعرفه أجناس الكلام والوقوف على اسراره والوقوف على مقداره شيء . وان كان عزيزاً وأمر وان كان بعيداً فهو سهل على أهله مستجيب لاصحابه مطيع لاربابه ينقدون الحروف ويعرفون الصروف وانما تبقى للشبهة في ترتيب الحال بين البحثري وأبي تمام وابن الرومي وغيره . ونحن

وان كنا نفضل المحترمي بدباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه
 وتقديمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقد قوله ، والشعر
 قبيل ملتئم مستدرك وأمر ممكن منطبع ونظم القرآن عال عن أن يعلق به
 الوهم أو يسمو اليه الفكر أو يطمع فيه طامع أو يطلبه طالب « لا يأتيه الباطل من
 بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وكنيت قد ذكرت لك قبل هذا
 أنك ان كنت بصنعة علم اللسان متدربا وفيه متوجها متقدما أمكنك الوقوف
 على ما ذكرنا والنموذ فيما وصفنا وألا فالجلس في مجلس المقلدين وارض بمواقف
 المتحيرين ونصحت لك حيث قلت انظر هل تعرف عروق الذهب ومحاسن
 الجوهر وبدائع الياقوت ودقائق السحر من غير معرفة بأسباب هذه الأمور .
 ومقدماتها وهل يقطع سمم البلاد من غير اهتداء فيها ولكل شيء طريق يتوصل
 اليه به وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه ، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة
 بجميع ما وصفت لك وانغمض وأدق وأطف . وتصوير ما في النفس وتشكيل ما
 في القلب حتى تعلمه ، وكأنك مشاهده وان كان قد يقع بالإشارة ويحصل بالدلالة
 والامارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح فللاشارات أيضا مراتب
 وللسان منازل ورب وصف بصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ،
 ورب وصف يربو عليه ويتعداه ، ورب وصف يقصر عنه . ثم اذا صدق
 الوصف انقسم الى صحة واتقان وحسن واحسان والى اجمال وشرح والى استيفاء
 وتقريب والى غير ذلك من الوجوه . وكل مذهب وطريق له باب وسبيل :
 فوصف الجملة الواقعة كقوله تعالى (١٨ : ١٨) « لو اطلعت عليهم لوليت منهم
 فراراً ولملت منهم رعباً » والتفسير كقوله (١٨ : ٤٧) « ويوم نسير الجبال وترى
 الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً » الى آخر الآيات في هذا
 المعنى وكنحو قوله (٢٢ : ١ - ٢) « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء »

عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكَّارِي ومأْمَمٌ بِسُكَّارِي ولكن عذاب الله شديد « هذا مما يصور الشيء على جهته ويمثل أهوال ذلك اليوم . ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا ٢٦١ : ٥٠ - ٥١ « قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » وقال في موضع آخر (٧ : ١٢٥ - ١٢٦) « انا الى ربنا منقلبون وما تنتقم منا الا ان آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » وهذا ينبيء عن كلام الحزين لما ناله ، الجازع لما مسه ومن باب التسخير والتسكين قوله تعالى (٣٦ : ٨٢) « إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » وقوله ٢ : ٦٥ « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » وكقوله (٢٦ : ٦٣) « فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك للبحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم » . وقصّي أقسام ذلك مما يطول ، ولم أقصد استيفاء ذلك وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل واشرت اليك بما اشمرت لتتأمل

وانما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحترى لان الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على من في عصره ، ومنهم من يدعى له الاعجاز غلواً ، ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوا . والملحدة تستظهر بشعره ، وتتكبر بقوله وتدعى كلامه من شبهاتهم ، وعباراته مضافا الى ما عندهم من ترهاتهم ، فبيتا قدر درجته وموضع رتبته وحمد كلامه ، وهيهات أن يكون المطموع فيه كالأبوس منه ، وان يكون الليل كالنهار ، والباطل كالحق ، وكلام رب العالمين ككلام البشر

فان قل قائل : فقد قدح الملحد في نظم القرآن ، وادعى عليه الخلل في البيان ، وأضاف ليه الخطأ في المعنى واللفظ وقال ما قال ؛ فهل من فصل ؟

قيل الكلام على مطاعن الملمحة في القرآن مما قد سبقنا اليه، وصنف أهل الأدب في بعضه فكفوا، وأتى المتكلمون على ما وقع اليهم فشفوا، ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه في كتابنا. وأما الغرض الذي صنفنا فيه في التفصيل والكشف عن اعجاز القرآن فلم نجده على التقريب الذي قصدنا، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنياً ووافياً. وإن سهل الله لنا ما نريناه من املاء معاني القرآن ذكرنا في ذلك ما يشبهه من الجنس الذي ذكره، لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه، فإنا نعلم على جهل القوم بالمعاني أو بطريقة كلام العرب. وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، وقد قل النبي ﷺ: «فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ومهدنا الطريق، فمن كل طبعه للوقوف على فضل أجناس الكلام استدرك ما بيننا، ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والاحطل، والحكم بين فضل زهير والناطقة، أو الفضل بين البحتري وأصحابه، ولم يعرف سخر مسيلة في نظمه ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه كشعر أبي العيس في جملة الشعر وشعر علي بن صلاة فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على ما بيننا

فإن قال قائل فاذا ذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين صميتهم الأشعر والأبلغ، قيل له هذا أيضاً خارج عن غرض هذا الكتاب، وقد تكلم فيه الأدباء. ويحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب ويفرد له باب، وليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل. وليس لقائل أن يقول قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ويبلغ أمده في الفصاحة والنظم المعجيب ولا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيتم بما قضيتم به في القرآن دون غيره من الكلام، وإنما لم يصح هذا السؤال وما نذكر فيه من أشعار في نهاية الحسن وخطب ورسائل في غاية الفضل لانا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع

التزاع فيها ، والمساماة عليها ، والتنافس في طرقها ، والتنافر في بابها ، وكان
اللبون بين البعض والبعض في الطبقة الواحدة قريباً والتفاوت خفيفاً وذلك
القدر من السابق ان ذهب عن الواحد لم يياس منه الباقون ، ولم ينقطع الطمع
في مثله وليس كذلك سميت القرآن لانه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته
والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته ، وان السكل في العجز عنه على حد واحد .
وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السميت الذي لا يؤخذ فيه ،
والباب الذي لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه
مميها ونطاق قوله ضيقا حتى يستعين بكلام غيره ويفزع الى ما يوشح به كلامه
من بيت سائر ومتصل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة . وأما
كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة والفاظ يسيرة ، فاذا أحوج الى تطويل
الكلام خاليا عن شيء يستعين به - فيخلط بقوله من قول غيره - كان كلاما
ككلام غيره . فان أردت أن نحقق هذا فانظر في كتبه في نظم القرآن وفي
الرد على النصارى وفي خبر الواحد وغير ذلك مما يجري هذا المجرى هل تجد
في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع او كلام مليح . على أن متأخري الكتاب
قد نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم
من أبر عليه اذ باراه هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه
فلم يقصر عنه ولعله قد بان تقدمه عليه لانه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيهما
على حدود مذهبه ويكملها على شروط صنمته ولا يقتصر على أن يأتي بالاسطر
من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه متى ذكر من كلامه سطرأ أتبعه
من كلام الناس أوراقا ، واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا .
وهذا يدل على أن الشيء اذا استحسن اتبع ، واذا استملح قصد له وتعمد .
وهذا الشيء يرجع الى الاخذ بالفضل والتنافس في التقدم . ولو كان في مقدور

البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده لكثرت المعارضات ، ودامت المنافسات فكيف وهناك دواع لا انهاء لها ، وجواب لا حد لكثرتها، لانهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا الى تكذيبه ، ثم الى قطع المحامين دونه عنه ، أو تنفيرهم عليه وادخال الشبهات على قلوبهم ، وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس ، ونصب الارواح والاختار بالأموال والقراري في وجه عداوته ويستغنون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربتة وطول منافسته ومجادبته . وهذا الذي عرضناه على قلبك يكفي ان هديت لرشدك ، ويشفي ان دلت على قصدك ، ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد ، انه لا معرفة الا بهديته ، ولا عصمة الا بكفايته ، وهو على ما يشاء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل

فصل

فان قال قائل قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن وان كان من بعدهم من أهل الاعصار لم يعجزوا . قيل هذا سؤال معروف وقد أجيب عنه بوجوه منها ما هو صواب ومنها ما فيه خلل لان من كان يجيب عنه بأنهم لا يقدرون على معارضته في الاخبار عن الغيوب ان قدروا على مثل نظمه فقد سلم المسألة ، لانا ذكرنا أن نظمه معجز لا يقدر عليه فاذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده . والوجه أن يقال فيه طرق : منها انا اذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الاتيان بمثله فمن بعدهم أعجز ، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتغننون فيه من القول مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساؤوهم فاما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا . ومنها انا قد علمنا عجز سائر أهل الاعصار

كاملنا بمعجز أهل العصر الاول والطريق في العلم بكل واحد من الامرين طريق واحد لان التحدي في الكل على جهة واحدة ، والتناظر في الطباع على حد ، والتكلف على منهج لا يختلف ، ولذلك قل الله تبارك وتعالى (١٧ : ٨٨) ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾

فصل

﴿ في التحدي ﴾

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات اذا ظهرت على الانبياء أن يدعوا فيها انها من دلائهم وآياتهم لانه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بأية لان النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ولا بشيء آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه فيستدل به على صدقه ، فاذا ذكر لهم ان هذه آيتي وكانوا عاجزين عنها صح له ما ادعاه ، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له ، وليس يكون ذلك معجزاً الا بأن يتحداهم الى أن يأتوا بمثله فاذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزاً

وانما احتيج في باب القرآن الى التحدي لان من الناس من لا يعرف كونه معجزاً فانما يعرف أولاً اعجازه بطريقة ، لان الكلام المعجز لا يتميز من غيره بجر وفه وصورته وانما يحتاج الى علم وطريق يتوصل به الى معرفة كونه معجزاً فان كان لا يعرف بعضهم اعجازه فيجب أن يعرف هذا حتى يمكنه أن يستدل به ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي اليه والتقرير به والتكبير منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصى ثعباناً تتلف ما يأفكون . وأما من كان من أهل صنعة العربية والتقدم في البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق فانه يعرف - حين يسمعه - عجزه عن الاتيان

يمثله ويعرف أيضا أهل عصره من هو في طبقتة أو يدانيه في صناعته عجزهم عنه فلا يحتاج الى التحدى حتى يعلم به كونه معجزا ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بيننا لا يعرفون كونه معجزاً حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه لم يجز أن يعرف النبي ﷺ أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي اليه واذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي الى التحدي الى أقصاهم وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه ثم يعرف حينئذ كونه معجزاً . وهذا القول ان قيل أفحش ما يكون من الخطأ ، فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة في معرفة اعجاز القرآن بانفسهم منزلة من رأى اليد البيضاء وقلق البحر بأن ذلك معجز . وأما من لم يكن من أهل الصنعة فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة يعرف بها كونه معجزاً فيساوي حينئذ أهل الصنعة فيكون استدلالها في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه على سواء اذا ادعاه دلالة على نبوته وبرهانا على صدقه ، فاما من قدر أن القرآن لا يصير معجزاً إلا بالتحدي اليه فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى عليها السلام ليست بآيات حتى يقع التحدى اليها والخض عليها ثم يقع العجز عنها فيعلم حينئذ انها معجزات وقد سلف من كلامنا في هذا المعنى ما يغني عن الاعداد . ويبين ما ذكرناه في غير البليغ ان الاعجمي الآن لا يعرف اعجاز القرآن إلا بأمر زائدة على الاعجمي الذي كان في ذلك الزمان مشاهداً له لان من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولاً أن العرب عجزوا عنه وانما يعلم عجزهم عنه بنقل المناقلة اليه أن النبي ﷺ قد تحدى العرب اليه فعجزوا عنه ويحتاج في النقل الى شروط وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزاً كذلك لا يصير معجزاً بان يعلم العربي الذي ليس ببليغ انهم قد عجزوا عنه بأبلغهم بل هو معجز في نفسه وانما طريق معرفة هذا وقوفهم على العلم بعجزهم عنه

فصل

﴿ في قدر المعجز من القرآن ﴾

الذي ذهب اليه عامة أصحابنا وهو قول أبي الحسن الأشعري في كتبه ان أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها قال فاذا كانت الآية بقدر حروف السورة وان كانت سورة الكوثر فذلك معجز قال ولم يقدّم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر وذهب المعتزلة الى أن كل سورة برأسها فهي معجزة . وقد حكى عنهم نحو قولنا الا ان منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة بل شرط الآيات للكثيرة وقد علمنا أنه تحداهم تحديا الى السور كلها ولم يخص . ولم يأتوا الشيء منها بمثل ، فلم أن جميع ذلك معجز وأما قوله عز وجل ٥٣ : ﴿ ٣٤ ﴾ فليأتوا بحديث مثله « فليس بمخالف لهذا لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة وهذا يؤكّد ما ذهب اليه أصحابنا ويؤيده وان كان قد يتأول قوله فليأتوا بحديث مثله على أن يكون راجعا الى القبيل دون التفصيل وكذلك يحمل قوله تعالى ١٧ : ٨٨ ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ على القبيل لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الاتيان بجميعه من اوله الى آخره

فان قيل : هل تعرفون اعجاز السور القصار بما تعرفون به اعجاز السور الطوال ، وهل تعرفون اعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذي قدرتموه بمثل ما تعرفون به اعجاز سورة البقرة ونحوها . فالجواب ان أبا الحسن الأشعري رحمه الله أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بمعجز

للعرب عنها . وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول ان ذلك يصح
 أن يكون علم ذلك توقيفاً . والطريقة الاولى أسدٌ وليس هذا الذي ذكرناه أخيراً
 بخلاف له لأنه لا يتمتع ان يعلم اعجازه بطرق مختلفة تتوافق عليه وتجتمع فيه
 واعلم ان تحت اختلاف هذه الأجوبة ضرباً من الفائدة لأن الطريقة الاولى
 تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزاً موجود في كل سورة صغرت أو
 كبرت فيجب أن يكون الحكم في الكل واحداً . والطريقة الاخيرة تتضمن
 تعذر معرفة اعجاز القرآن بالطريقة التي سلكناها في بناء من التفصيل الذي
 بينا فيما تعرف به في الكلام الفصاحة وتبين فيه البلاغة حتى يعلم ذلك بوجه
 آخر فيستوي في هذا القدر البليغ وغيره في أن لا يعلمه معجزاً حتى يستدل به من
 وجه آخر سوى ما يعلمه البلغاء من التقدم في الصنعة وهذا غير ممتنع ، ألا ترى
 أن الاعجاز في بعض السور والآيات أظهر وفي بعضها اغمض ، وقد لا يحتاج
 في النظر في حال بعضها الى تأمل كثير ولا بحث شديد حتى يتبين له الاعجاز ويقتصر
 في بعضها الى نظر دقيق وبحث لطيف حتى يقع على الجلية ويصل الى المطلب
 ولا يتمتع أن يذهب عليه الوجه في بعض السور فيحتاج أن يفزع فيه الى اجماع
 أو توقيف أو ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه فان ادعى ملحد أو زعم زنديق
 أنه لا يقع العجز عن الاثني عشر السور القصار أو الآيات بهذا المقدار قلنا
 له ان الاعجاز قد حصل بما بيناه وعرف بما وقفنا عليه من عجز العرب عنه ثم
 فيه شيء آخر وهو ان هذا سؤال لا يستقيم للملحد لانه يزعم أنه ليس في
 القرآن كله اعجاز فكيف يجوز ان يناظره على تفصيله واذا ثبت لنا معه اعجازه
 في السور الطوال قامت الحجة عليه وثبتت المعجزة ، ولا معنى لطلبه لكثرة
 الادلة والمعجزات . ونحن نعلم أن اعجاز البعض بما بيناه والبعض الآخر بانه

إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا، لأننا عرفنا في البعض الإعجاز بما
 بينما ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف ونحو ذلك وليس بممتنع اختلاف حال الكلام
 حتى يكون الإعجاز على بعضه أظهر وفي بعضه أغمض ومن آمن ببعض دون
 بعض كان مذموماً على ما قال الله تعالى ٢: ٨٥ «فتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون
 ببعض» وقال ١٧: ٨٢ «ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين»
 فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع وإن كنا
 نقول أنه يدل على أن الشفاء في جميعه

واعلم أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبليغ، ولذلك كانوا يسمون الكلمة
 «يتيمة» ويسمون البيت الواحد «يتيماً»، سمعت اسماعيل بن عباد يقول
 سمعت أبا بكر بن مقسم يقول سمعت ثعلباً يقول سمعت الفراء يقول:
 العرب تسمى البيت الواحد يتيماً، وكذلك يقال الدرّة التيممة لانفرادها
 فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهي تتمة وإلى العشرة تسمى قطعة وإذا بلغ العشرين
 استحق أن يسمى قصيداً وذلك مأخوذ من اللخ القصيد وهو المتراكم بعضه على
 بعض وهو ضد الرار ومثله الرئيد. انتهت الحكاية ثم استشهد بقول لبيد:
 فتذكر أمتلاً رثيداً بعد ما أقت ذكاه يمينها في كافر

يريد بيض النعام لأنه ينضد بعضه على بعض. وكذلك يقع في الكلام البيت
 الوحشي والنادر والمنزل السائر والمعنى الغريب والشيء الذي لو اجتهد له لم يقع عليه
 فيتفق له ويصادفه قال لي بعض علماء هذه الصنعة وجاريتي في ذلك: إن هذا مما
 لا سبب له يخلصه وإنما سببه القرارة في أصل الصنعة والتقدم في عيون المعرفة،
 فإذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب وما يرشد عن تفصيل
 الحساب، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السورة معجز فإن ذلك صحيح

فصل

﴿ في أنه هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة ﴾

ذهب ابو الحسن الاشعري الى أن ظهور ذلك على النبي ﷺ يعلم ضرورة وكونه معجزا يعلم باستدلال وهذا المذهب محكى عن المخالفين . والذي نقوله في هذا أن الاعجمي لا يمكنه ان يعلم اعجازه الا استدلالا وكذلك من لم يكن بليغا . فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة فانه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الايمان بمثله ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه ، كما انه اذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك فهو يعلم عجز غيره استدلالا

فصل

﴿ فيما يتعلق به الاعجاز ﴾

ان قال قائل بينوا لنا ما الذي وقع التحدي اليه ، أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك . قيل الذي تحداهم به أن يأتيوا بمثل الحروف التي هي نظم القران ، منظومة كمنظومها ، متتابعة كمتابعتها ، مطردة كاطرادها ولم يتقدم الي أن يأتيوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له ، وان كان كذلك فالتحدي واقع الي أن يأتيوا بمثل الحروف المنظومة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها ، وهي حكاية لكلامه ودلالات عليه وأمارات له ، على أن يكونوا مستأنفين لذلك لا حاكين بما أتى به النبي ﷺ . ولا

يجب أن يقدر مقدر أو يظن ظان أنا حين قلنا ان القرءان معجز فانه يتحدثهم الى أن يأتوا بمثله أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات . وقد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزاً لكونه عبارة عن الكلام القديم ، لان التوراة والانجيل عبارة عن الكلام القديم . وليس ذلك بمعجز في النظام والتأليف ، وكذلك مادون الآية - كاللفظة - عبارة عن كلامه وايمت بمنفردتها بمعجزة ، وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحدثهم الى مثل كلامه القديم القائم بنفسه ، والذي عول عليه مشايخنا ما قدمنا ذكره ، وعلى ذلك اكثر مذاهب الناس ، ولم يجب أن نفسر ونذكر موجب هذا المذهب الذي حكيناه وما يتصل به لانه خارج عن فرض كتابنا لان الالهجاز وقع في نظم الحروف التي هي دلالات وعبارات عن كلامه ، والى مثل هذا النظم وقع التحدي ، فبيناً وجه ذلك وكيفية ما يتصور القول فيه ، وأزلنا توهم من يتوهم أن الكلام القديم حروف منظومة أو حروف غير منظومة ، أو شيء مؤلف أو غير ذلك مما يصح أن يتوهم على ماسبق من اطلاق القول فيما مضى

فصل

﴿ في وصف وجوه من البلاغة ﴾

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام :
 الابهجاز ، والنشبية ، والاستمارة ، والتلازم ، والفواصل ، والتجانس ،
 والتصريف ، والتصمين ، والمبالغة ، وحسن البيان . فاما الابهجاز فانما يحسن
 مع ترك الاخلال باللفظ والمعنى ، فيأتي باللفظ القليل الشامل لامور كثيرة ،
 وذلك ينقسم الى حذف وقصر فالحذف الاسقاط للتخفيف كقوله (١٢ : ٨٢)

« وأسأل القرية » وقوله (٤٧ : ٢١) : « طاعة وقول معروف » وحذف الجواب كقوله (١٣ : ٣١) : « ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى » كأنه قيل لكان هذا القرآن . والحذف أبلغ من اللذ كر لان النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب . والايجاز بالقصد كقوله (٢ : ١٧٩) : « ولسكن في القصاص حياة » وقوله (٦٣ : ٤) : « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » وقوله (١٠ : ٢٣) : « انما فيكم على أنفسكم » (٣٥ : ٤٣) « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » . واطناب فيه بلاغة ، فأما التطويل ففيه عي . واما التشبيه بالعقد على أن أحد الشيتين يسد مسد الآخر في حس أو عقل كقوله : (٢٤ : ٣٩) « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » وقوله (١٤ : ١٨) : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف » وقوله (٧ : ١٧١) : « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » وقوله : (١٠ : ٢٤) « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وأزانت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أناهنا أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالامس » وقوله (٥٤ : ١٩ و ٢٠) « انا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » وقوله (٥٥ : ٣٧) : « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وقوله : (٥٧ : ٢٠) « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً » وقوله (٥٧ : ٢١) : « وجنة عرضها كعرض السماء والارض » وقوله (٦٢ : ٥) : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل

أسفاراً « وقوله تعالى: (٧: ١٧٦) » فنكته كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث « وقوله (٦٩: ٧) : » كأنهم أعجاز نخل خاوية « وقوله: (٢٩: ٤١) : » مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت « وقوله (٥٥: ٢٤) : » وله الجوار المنشآتُ في البحر كالأعلام « وقوله (٥٥: ١٤) : » خلق الانسان من صلصال كالفخار « ونحو ذلك

ومن ذلك باب الاستعارة وهو بيان التشبيه كقوله تعالى (٢٥: ٢٣) « وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » وكقوله: (١٥: ٩٤) « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وكقوله: (٦٩: ١١) « انالما طغى الماء حملناكم في الجارية » وقوله: (٧: ١٥٤) « ولما سكت عن موسى الغضبُ » وكقوله (١٧: ١٢) « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » وقوله (٢١: ١٨) : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » فالدمغ والقذف مستعار. وقوله: (٣٦: ٣٧) « وآية لهم الليل نساخ منه النهار » . وقوله (٨: ٧) « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » وقوله (٤١: ٥١) « فذودعاء عريض » وقوله (٤٧: ٤) « حتى تضع الحرب أوزارها » وقوله (٨١: ١٨) « والصبح اذا تنفس » وقوله (٢: ٢١٤) « مستهم البأساء والضراء » وقوله (٣: ١٨٧) « فنبذوه وراء ظهورهم » وقوله (١٠: ٢٤) « أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً » وقوله (٢١: ١٥) « حصيداً خامدين » وقوله (٢٦: ٢٢٥) : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » وقوله (٣٣: ٤٦) « وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وقوله (١٧: ٢٩) « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » وقوله (٣٢: ٢١) « ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » وقوله (١٨: ١١)

« فضر بنا على آذانهم » يريد ان لا احساس بأذانهم من غير صمم . وقوله
(٧ : ١٤٩) : « ولما سقط في أيديهم » وهذا أرفع من اللفظ الظاهر وأبلغ
من الكلام الموضوع

وأما التلاؤم فهو تعديل الحروف في التأليف . وهو نقيض التنافر ؛
كقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

قالوا هو من شعر الجن حروفه متنافرة لا يمكن انشاده الا بتمتع فيه .
والتلاؤم على ضربين : أحدهما في الطبقة الوسطى كقوله :

رمتي وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم

رميم التي قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال بهيم

ألرب يوم لورمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

قالوا والمتلاؤم في الطبقة العليا القرآن كاه وان كان بعض الناس أحسن
احساسا من بعض كما أن بعضهم يفتن للموزون بخلاف بعض . والتلاؤم حسن
الكلام في السمع وسهولته في اللفظ ووقع المعنى في القلب وذلك كالخط الحسن
والبيان الشافي والمتنافر كالخط القبيح فاذا انضاف الى التلاؤم حسن البيان
وصحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الاعجاز لمن كان جيد الطبع وبصيرا
بجودة الكلام كما يظهر له أعلى طبقة الشعر . والمتنافر ذهب التحليل الى أنه من
بعد شديد أو قرب شديد ، فاذا بعد فهو كالظفر واذا قرب جداً كان بمنزلة مشي

المقيد ويبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها

وأما الفواصل فهي حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها افهام المعاني .

وفيها بلاغة . والاسجاع عيب لأن السجع يتبع المعنى والفواصل تابعة للمعاني
والسجع كقول مسيلة . ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على

حروف متقاربة ولا تحتمل القوافي ما تحتمل الفواصل لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة لان الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي وإقامة الوزن ؛ وأما التجانس فانه يبان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد وهو على وجهين مزاجية ، ومناسبة ، فللزوجة كقوله تعالى (٢ : ١٩٤) « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمنزل ما اعتدى عليكم » وقوله (٣ : ٥٤) « ومكروا ومكر الله » وكقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجاهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأما المناسبة فهي كقوله تعالى (٩ : ١٢٧) « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » وقوله (٢٤ : ٣٧) « يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار »

وأما التصريف فهو تصريف الكلام في المعاني كتصريفه في الدلالات المختلفة كتصريف الملك في معاني الصفات فصرف في معنى مالك وملك وذوي الملكوت والمليك وفي معنى التمليك والتملك والاملاك ؛ وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة كما كرر من قصة موسى في مواضع

وأما التضمن فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه وذلك على وجهين تضمنين توجبه البنية كقولنا معلوم يوجب أنه لا بد من عالم وتضمنين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح الا به كالصفة بضارب يدل على مضروب . والتضمن كله ايجاز ، والتضمن الذي يدل عليه دلالات القياس أيضا ايجاز . وذكر ان بسم الله الرحمن الرحيم من باب التضمن لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الامور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى أو التبرك باسمه وأما المبالغة فهي الدلالة على كثرة المعنى ، وذلك على وجوه : منها مبالغة في الصفة المبينة لذلك ، كقولك رحمن عدل عن ذلك للمبالغة ، وكقوله غفار وكذلك فعال وفعل كقوله شكور وغفور ، وفعل كقوله رحيم وقدير ، ومن

ذلك أن يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة كقوله (٣٩ : ٦٢) : « خالق كل شيء »
 وكقوله (١٦ : ٢٦) « فأتى الله بنيانهم من القواعد » وكقوله (٧ : ٤٠)
 « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » وكقوله (٣٤ : ٢٤)
 « وإنا أو إياكم لعلى عدى أو في ضلال مبين » وقد يدخل فيه الحذف الذي
 تقدم ذكره للعبارة

وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام : كلام ، وحال ، وإشارة ،
 وعلامة . ويقع التفاضل في البيان ولذلك قال عز من قائل (١ : ٥٥ - ٤) :
 « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » وقيل أعيا من باقل ، سئل
 عن ظبية في يده بكم اشتراها فأراد أن يقول بأحد عشر فأشار بيديه ماذا
 أصابعه العشرة ثم أدلج لسانه وأفلت الظبي من يده
 ثم البيان على مراتب قلنا قد كنا حكيمنا أن من الناس من يريد أن يأخذ
 اعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب
 مما مضت أمثلته في الشعر ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه
 التي عددناها في هذا الفصل . واعلم أن الذي بيناه قبل هذا وذهبنا إليه هو سديد
 وهو أن هذه الأمور تنقسم فمنها ما يمكن الوقوع عليه والتعمل له وبدرك بالتعلم
 فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة اعجاز القرآن به وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم
 والتعمل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على اعجازه ونحن نضرب لذلك أمثلة
 لتقف على ما ذهبنا إليه ، وذكرونا في هذا الفصل عن هذا القائل أن التشبيه
 تعرف به البلاغة وذلك مسلم ، ولسكن أن قلنا ما وقع من التشبيه في القرآن
 معجز عرض علينا من التشبيهات الجارية في الأشعار ما لا يخفى عليك . وأنت
 تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع في هذا
 ما لم يتبعم غيره ، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء . وكذلك كثير من

وجوه البلاغة قد بينا أن تعلمها يمكن وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره فان كان انما يعنى هذا القائل انه اذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه الى متصرفاته على أتم للبلاغة وأبدع البراعة ، فهذا مما لا نأباه بل نقول به وانما ننكر أن يقول قائل ان بعض هذه الوجوه ينفرداها قد حصل فيه الاعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام ويفضى اليه مثل ما يقول ان ما أقسم به وحده بنفسه معجز وان التشبيه معجز وان التجنيس معجز والمطابقة بنفسها معجزة . فأما الآية التي في اذ كر التشبيه فان ادعى اعجازها لافناظها ونظمها وتأليفها فاني لا أدفع ذلك وأصححه ولكن لا ادعي اعجازها لموضع التشبيه وصاحب المقالة التي حكمتها أضاف ذلك الى موضع التشبيه وما قرن به من الوجوه ، من تلك الوجوه ما قد بينا أن الاعجاز يتعلق به كالبيان وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس ولذلك قال (٣ : ١٣٨) « هذا بيان للناس » وقال (١٦ : ٨٩) : « تبياننا اسكل شيء » وقال (٢٦ : ١٩٥) « بلسان عربي مبين » فمكرر في مواضع ذكره أنه مبين فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ما جمع وجه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه من تمديد النظم وسلامته وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة . واذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يدخل ويهيج ويقلق ويؤنس ويظلم ويؤيس ويضحك ويبكي ويحزن ويفرح ، ويسكن ويزعج ، ويشجي ويطرب ، ويمز الاعطاف ، ويستميل نحوه الامماع ، وبورث الاريجية والعزة وقد يبعث على بذل المهج والاموال شجاعة وجودا ، ويرمي السامع من وراء رأيه مرعى بعيدا ، وله مسالك في النفوس

لطيفة ، ومداخل الى القلوب دقيقة ، وبجسب ما يترتب في نظمه ، ويتنزل في موقفه ويجري على سمته مطلعته ومقطعه يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته ، وكذلك على حسب مصادره يتصور وجوه موارد . وقد ينبغي الكلام عن محل صاحبه ، ويدل على مكان متكلمه ، وينبه على عظيم شأن أهله ، وعلى علو محله . ألا ترى أن الشعر في الغزل اذا صدر عن محب كان أرق وأحسن ، واذا صدر عن متغزل وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمدحاة ، وأخبر عن خبيثه في المראה . وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع فيعلم وجه صدوره ويدل على كنهه وحقيقته . وقد يصدر عن المتشبه ويخرج عن المتصنع ، فيعرف من حاله ماظن انه يخفيه ، ويظهر من أمره خلاف ما بيديه ، وأنت تجد لقول المتنبي :

فأنليل والليل والبيداء تعرفني والحرب والظعن والقرطاس والقلم
من الوقع في القلب - لما تعلم أنه من أهل الشجاعة - ما لا تجده للبحثري
في قوله :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي بمقرقس والمشرقية شهدي
وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب في الفخر وغيره ما لا تجده لغيره
لانه اذا قال :

اذا شئت أوقرت البلاد حوافراً وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرياح شرار
وقل :

قد تردت بالمكارم دهرأ وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش اذا غزوت وحيدا ووحيدي في الجحفل الجرار

وقال :

أيها السائل عن الحسب الاطرب ما فوقه نطلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القرى فماذا تريد
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات ليل سود
وكما أنشدنا الحسن بن عبد الله قال : أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز

قصيدته التي يقول فيها :

أنا ابن الذي سادهم في الحياة وسادهم بي تحت التري
ومالي في أحد مرغب بلى في يرغب كل الوري
وأمهز للمجد والمكرما ت اذا كحلت أعين بالسرى
فانظر في القصيدة كلها ثم في جميع شعره تعلم أنه ملك الشعر ، وأنه يليق
به من الفخر خاصة ثم مما ينبمه مما يتعاطاه ما لا يليق بغيره بل ينفر عن سواء ،
ولم أحب أن أكرر عليك فاطول الكتاب بما يخرج عن غرضه ، وكأ ترى
من قول أبي فراس الحمداني في نفسك اذا قال :

ولا أصبح المحي الخلوف بفارة ولا الجيش ما لم يأتيه قبلي النذر
ويارب دار لم تخفني منيعة طلعت عليها بالردى أنا واللفجر
وساحبة الاذبال محوي لقبيتها فلم يلقها جاني اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله وأبت ولم يكشف لبياتها ستر
وما راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي في المال أبني وفوره اذا لم أفر وفري فلا وفر الوفير

والشيء اذا صدر من أهله ، وبدا من أصله ، وانتسب الى ذويه سلم في
نفسه ، وبانت نخامته وشواهد أثر الاستحقاق فيه . واذا صدر من متكلف
وبدا من متصنع بان أثر الغرابة عليه ، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه ، وعرف

شمائل التبخير منه

إنا نعرف في شعر أبي نواس أثر الشطارة ، وتمكن البطالة ؛
وموقع كلامه في وصف ما هو بسبيله من أمر المغازلة ووصف الحر والحرار كما
نعرف موقع كلام ذي الرمة في وصف المهامه والبوادي والجمال والانواع
والازمة وعيب أبي نواس التصرف في وصف الطلول والرابع والوحش ففكر
في قوله :

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا تحب بها النجبية والنجيب
بلاد نبتها عشر وطلح وأكثر صيدها ضبع وذيب
ولا تأخذ عن الاعراب لهواً ولا عيشا فعيثهم جديب
دع الالبان يشربها رجال رقيق العيش عندم غريب
إذا راب الحليب قبل عليه ولا تخرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها صاق أديب
كأن هديرها في اللد يميكي قراءة القس قابله الصليب
أعاذل أقصري عن طول لومي فراجى توبى عندي يخيب
تعييبين الذنوب ، وأى حر من الفقيان ليس له ذنوب
وقوله :

صفة الطلول بلاغة الغم فاجمل صفاتك لابنة الكرم
وسمعت الصحاب اسماعيل ابن عباد يقول : سمعت برلكويه الزنجاني
يقول : أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الاعشى :

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
وكان وصف فيها الطلل قال برلكويه : فقال لي هلال فقلت بديها :
إذا سمعت فتى يبكي على طلل من أهل زنجان فاعلم انه طلل

وإنما ذكرت لك هذه الامور لتعلم أن الشيء في معدنه أعز ، وفي مظهره أحسن ، وإلى أصله أنزع ، وبأسبابه اليق ، وهو يدل على ما صدر منه ، وينبه ما انتج عنه ، ويكون قراره على موجب صورته ، وأنواره على حسب محله ، ولكل شيء حد ومذهب ، ولكل كلام سبيل ومنهج . وقد ذكر أبو بكر الصديق رضى الله عنه في كلام مسيلة ما أخبرتك به ، فقال : ان هذا كلام لم يخرج من إله فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الالهية يتميز عما لم يكن كذلك . ثم رجع الكلام بنا الى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان ولو لم يكن فيه إلا ما من به الله على خلقه بقوله : (٥٥ : ٣ و ٤) « خلق الانسان علمه البيان » . فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان واهداه ، وأكمله وأعلاه ، وأبلغه وأسناه تأمل قوله تعالى (٤٣ : ٥) « انضرب عنكم الذكر صفحاً ان كنتم قوماً مسرفين » في شدة التنبية على تركهم الحق والاعراض عنه وموضع امتنانه بالذكر والتحذير . وقوله (٤٣ : ٣٩) « ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنفسكم في العذاب مشتركون » وهذا بليغ في التحسير . وقوله (٦ : ٢٨) « ولورثوا لعادوا لما نهوا عنه » وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر معودين لخائفة النهي والأمر . وقوله (٤٣ : ٦٧) : « الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدواً الا المتقين » هو في نهاية الوضع من الخلة الاعلى التقوى . وقوله (٣٩ : ٥٦) « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » وهذا نهاية في التحذير من التفريط . وقوله : (٤١ : ٤٠) « أفمن يلقى في النار خيرا أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » هو النهاية في الوعيد والتهديد . وقوله (٤٢ : ٤٤ - ٤٥) : « وترى الظالمين لسا رؤا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » نهاية في الوعيد . وقوله (٤٣ : ٧١) :

« وفيها ما تشبهه الأَنفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون » نهاية في الترغيب .
وقوله (٢٣ : ٩١) : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من الله إذاً لذهب
كل الله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض » وكذلك قوله (٢١ : ٢٢) : « لو
كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » نهاية في الحجاج . وقوله (٦٧ : ١٣ ، ١٤)
« وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو
اللطيف الخبير » نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات . ولا وجه للتطويل فان بيان
الجميع في الرفعة وكبر المنزلة على سواء . وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن
يتعلق به الاعجاز وهو معجز من القرآن وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة
في اللفظ فليس ذلك بطريق الاعجاز لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام
غيره وليس ذلك معجز ، بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه
من اللفظ يثمر الاعجاز . وتضمن المعاني أيضا قد يتعلق به الاعجاز اذا حصلت
للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها . وأما الفواصل فقد بينا انه يصح أن
يتعلق بها الاعجاز ، وكذلك قد بينا في المقاطع والمطالع نحو هذا وبيننا في تلازم
الكلام ما سبق من صحة تعلق الاعجاز به . والتصرف في الاستعارة البديعة
يصح أن يتعلق به الاعجاز كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام ، لأن البلاغة
في كل واحد من البابين تجري مجرى واحداً وتأخذ مأخذاً مفرداً .
وأما الایجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما اعجاز كما يتعلق بالحقائق .
والاستعارة والبيان في كل واحد منهما مالا يضبط حده ولا يقدر قدره ، ولا
يمكن التوصل الى ساحل بحره بالتعلم ، ولا يتطرق الى غوره بالتسبب ، وكل
ما يمكن تعلمه وينهياً ثلاثته ويمكن تخليصه ويستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب
وقوع الاعجاز به ، ولذلك قلنا أن السجع مما ليس يلتمس فيه الاعجاز لأن ذلك
أمر محدود وسبيل مورود ، ومتى تدرب الانسان به واعتاده لم يستصعب عليه

أن يجعل جميع كلامه منه . وكذلك التجنيس والتطبيق متى أخذنا أحدهما وطلب وجهها استوفى ماشاء ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه ، كما أولع بذلك أبو تمام والبحري ، وإن كان البحري أشغف بالمطابق وأقل طلبا للمجانس فان قال قائل هلا قلت ان هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل اليها بالتعلم ولا تملك بالتعمل كما ذكرتم في البيان وغير ذلك ، قلنا لو عمد الى كتاب الاجناس ونظر في كتاب العين لم يتعذر عليه التجنيس الكثير ، فاما الاطباق فهو أقرب منه وليس كذلك البيان والوجوه التي رأينا الاعجاز فيها لأنها لا تستوفى بالتعلم

فان قيل : فالبيان قديمتعلم . قيل ان الذي يمكن أن يتوصل اليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس وتنتاهى فيه العادات وهو كما يعلم من مقادير القوى في حمل النقيض وان الناس يتقاربون في ذلك فيرمون فيه الى حد فاذا تجاوزوه وقفوا بعده ولم يمكنهم التخطي ولم يقدروا على التعدي الا أن يحصل ما يخرق العادة وينقض العرف ولن يكون ذلك الا للدلالة على النبوات على شروط في ذلك القدر الذي يفوت الحد في البيان ويتجاوز الوهم ويشد عن الصنعة ويقذفه الطبع في النادر القليل كالبيت البديع والقطعة الشريفة التي تنفق في ديوان شاعر ، والفقرة تنفق في لسان كاتب حتى يكون للشاعر ابن بيت أو بيتين أو قطعة أو قطعتين ، والاديب شهيد كلمة أو كلمتين وذلك أمر قليل ولو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك ويستمر على ذلك المنهج امكن ان يدعى فيه الاعجاز وليكنك ان كنت من أهل الصنعة تعلم قلة الأبيات الشوارد والكلمات الفرائد وأمهاث الغلائد فان أردت ان تجد قصيده كلها وحشية وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية لم تجد ذلك في الدواوين ولم تظفر بذلك الى يوم الدين . ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة ولفظة بديعة وانما انكرنا أن يقدروا على

مثل نظم سورة أو نحوها وأحلنا أن يتمكنوا من حشد في البلاغة ومقدار في الخطابة، وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن وإن لم يكن له حكم الشعر. فاما قدر المعجز فقد بينا انها السورة طالت أو قصرت وبعد ذلك خلاف: من الناس من قال مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز ، وعندنا كل واحد من الأمرين معجز ، والدلالة عليه ما تقدم ، والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك فلذلك لم نحكم باعجازه وما صح أن تتبين فيه البلاغة ومحصولها الابانه في الابلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام فاذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغا و بليغا ، فاذا تجاوز حد البلاغة الى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة ، وانتهى الى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة صح أن يكون له حكم المعجزات ، وجاز أن يقع موقع الدلالات . وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مبادئ اسائر كلامهم ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر

فان قيل : فاذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تبيان جميع ديوانه في البلاغة ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل ، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط لم يجد الى ذلك سبيلا وله سبب في الجملة وهو للتقدم في الصناعة ، لانه يتفق من المتأخر فيها ، فهلا قلتم انه اذا بلغ في العلم بالصناعة إمبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وصحت تلك القطعة ، وهلا قلتم ان القرآن من هذا الباب ؟ فالجواب انا لم نجد أحدا بلغ الحد الذي وصفتم في العادة وهذا الناس وأهل البلاغة أشعارهم عندنا محفوظة ، وخطبهم منقولة ، ورسائلهم مأثورة ، وبلغاتهم مروية ، وحكمهم مشهورة . وكذلك أهل الكهانة والبلاغة مثل قس بن ساعدة وسحبان وأثل ،

ومثل شق ومسطيح وغيرهم ، كلامهم معروف عندنا وموضوع بين أيدينا لا يخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ ، ولاخطابة خطيب ، ولا براعة شاعر مفلح ، ولا كتابة كاتب مدقق . فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يدانى القرآن في البلاغة أو يشاكه في الاعجاز مع ما وقع من التحدي اليه المدة الطويلة ، وتقدم من التقرير والمجازاة الامد المديد ، وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الامر ، وعجز الكل عنه ووقفوا دونه حيارى يعرفون عجزهم وان جهل قوم سببه ، ويعلمون نقصهم وان أغفل قوم وجهه ، رأينا أنه ناقض للعادة ورأينا أنه خارق للمعروف في الحيلة وخرق العادة انما يقع بالمعجزات على وجه اقامة البرهان على النبوات وعلى أن من ظهرت عليه ووقعت موقع الهداية اليه صادق فيما يدعيه من نبوته ومحق في قوله ومصيب في هديه ، قد سادت له الحججة البالغة والكلمة التامة والبرهان الزير والدليل البين

فصل

﴿ في حقيقة المعجز ﴾

معنى قولنا ان القرآن معجز على أصولنا انه لا يقدر العباد عليه وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي ﷺ لا يصح دخوله تحت قدرة العباد وانما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه ، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه كما يستحيل عجزهم عن فعل الاجسام . فنحن لا نقدر على ذلك وان لم يصح وصفنا بانا عاجزون عن ذلك حقيقة ، وكذلك معجزات سائر الانبياء على هذا . فلما لم يقدر عليه أحد شبه بما يعجز عنه العاجز ، وانما لا يقدر العباد على الاتيان بمثله لانه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجز ، وقد أجرى العادة

أن يتعذر فعل ذلك منه وان لا يقدرُوا عليه ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله وعرضوا عليه من كلام فصحاءهم وبلغائهم ما يمارضه. فلما لم يشتغلوا بذلك علم انهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأساليب نظامهم وزالت أطعامهم عنه. وقد كنا بيننا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر ووجوه النظم المستحسنة في الاوزان المطربة للسمع ولا يحتاج في مثله الى توقيف وانه يتبين أن مثل ذلك يجري في الخطاب، فلما جرى فيه فطنوا له واختاروه وطلبوا أنواع الاوزان والقوافي ثم وقفوا على حسن ذلك وقدروا عليه بتوفيق الله عز وجل وهو الذي جمع خواطرهم عليه وهداهم له وهياً ذراعهم اليه، ولكنه أقدرهم على حد محدود وغاية في العرف مضروبة، لعلمه بان سيجعل القرآن معجزاً، ودل على عظم شأنه أنهم قدروا على ما بينا من التأليف وعلى ما وصفنا من النظم من غير توقيف ولا اقتضاء أمر ولا تحدى اليه ولا تقريع، فلو كان هذا من ذلك القبيل أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه لم تزل أطعامهم عنه، ولم يدهشوا عند وروده عليهم فكيف وقد أمهلهم وفسح لهم في الوقت وكان يدعو اليه سبعين كثيرة وقال عز من قائل (٣٥: ٣٧): « أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكري وجاءكم النذير » وبظهور المعجز عنه بعد طول التقريع والتحدى بان أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لا يقدرُونَ عليه. وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يبين عاداتها من الكلام البليغ لان ذلك طبيعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجرئة عند سماع القرآن، وهذا في البلاء منهم دون المتأخرين في الصنعة والذي ذكرناه يدل على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن وكل من جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله في البلاغة لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال ولو لم يكن جرى في العلوم أنه سيجعل للقرآن معجزاً لكان يجوز أن تجري عادات الاولين وأخبار المرسلين وكذلك لا يوجد خلف فيما ينضمونه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي فلا

يخرج من أن يكون متاولاً على ما يقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدم في معجزته أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته واعجازه وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه . ثم قال (٤١ : ٤٤) : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أَعْجَمِي وَعَرَبِي » فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده إما بان ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتدرون بنهاهم عن معرفة معناه بأنهم لا يقين لهم وجه الإعجاز فيه لانه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الامور وانه اذا تحدثهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به على ما نبينه في وجه هذا الفصل . الى أن قال (٤١ : ٥٢) « قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد » والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور ففكره نامرد القول فيها فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك . ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل (٢٩ : ٥٠ و ٥١) « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فأخبر أن الكتاب آية من آياته ، وعلم من أعلامه ، وان ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم . ويدل عليه قوله عز وجل (٣٥ : ١) : « تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » وقوله (٤٢ : ٢٤) : « أم يقولون افتري على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته » فدل على انه جعل قلبه مستودعاً لوحيه ومستنزلاً لكتابه ، وانه لو شاء صرف ذلك الى غيره وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشباه كثيرة تدل نحو الدلالة التي وصفناها ، فبان بهذا وببظائر ما قلنا أن بناء نبوته

عليه السلام على دلالة القرآن ومعجزته ، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه انه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى. وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على أنفسها الا بأمر زائد عليها ووصف منضاف اليها ، لان نظمها ليس معجزاً وان كان ماتتضمنه من الاخبار عن الغائبات والغيوب معجزاً . وليس كذلك القرآن لانه يشار كها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أن نظمه معجز فيمكن أن يستدل به عليه . وحل في هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه ، لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه في الحقيقة كلامه وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله وان اختلف الحال في ذلك عند البشر بقدر زائد على ما افوهه من البلاغة وأمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة وأما نظم القرآن فقد قال أصحابنا ان الله تعالى يقدر على نظم القرآن في الرتبة التي لا مزيد عليها ، وقال مخالفونا إن هذا غير ممتنع لان فيه من الكلمات الشريفة الجامعة للمعاني البديمة وانضاف الى ذلك حسن الموقع فيجب أن يكون قد بلغ النهاية ، لانه عندهم وان زاد على ما في العادة فان الزائد عليها وان تفاوت فلا بد من أن ينتهي الى حد لا مزيد عليه . والذي نقول انه لا يمتنع أن يقال انه يقدر الله تعالى على أن يأتي بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله ، وأما قدرة العباد فهي متناهية في كل ما يقدرون عليه مما تصح قدرتهم عليه

فصل

﴿ في كلام النبي عليه السلام وأمره متصل بالاعجاز ﴾

ان قال قائل اذا كان النبي عليه السلام أفصح العرب - وقد قال هذا في حديث مشهور وهو صادق في قوله - فهلا قلتم ان القرآن من نظمه لقدرة في الفصاحة على

مقدار لا يبلغه غيره؟ قيل قد علمنا انه لم يتحدّم الى مثل قوله وفصاحته، والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشعراءين وكلام الخطيبين في الفصاحة وذلك مما لا يقع به الاعجاز. وقد بينا قبل هذا انا اذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور وبين نظم القرآن تبين من الجون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس، ولا معنى لقول من ادعى أن كلام النبي ﷺ معجز وان كان دون القرآن في الاعجاز

فان قيل لولا ان كلامه معجز لم يشبهه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن، وكذلك لم يشبهه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن أم لا؟ ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط، وقد يجوز أن يكون شذو عن مصحفه لا لأنه نفاه من القرآن بل عول على حفظ الكل اياه على أن الذي يروونه خبر واحد لا يسكن اليه في مثل هذا ولا يعمل عليه ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت ثملا ينساه كما يكتب الواحد منا بعض الادعية على ظهر مصحفه. وهذا نحو ما يذكره الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان رحمة الله عليهما، ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف ممدودة كما يغلط الحافظ في حروف وينسى. وما لا نميزه على الحفظ مما لم نحزه عليه ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك وكان يظهر وينتشر فقد تناظروا في أقل من هذا وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه وقد علمنا اجماعهم على ما جمعه في المصحف فكيف يقدم بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة بالاجماع المتقرر والاتفاق المعروف ويجوز أن يكون النقل أشبه عليه لانه خالف في النظم والترتيب فلم يثبتها في آخر القرآن والاختلاف بينهم في موضع الاثبات غير الكلام في الاصل ألا ترى أنهم قد اختلفوا في

أول ما نزل من القرآن فهم من قال قوله (٩٦ : ١) : « اقرأ باسم ربك »
ومنهم من قال (٧٤ : ١) : « يا أيها المدثر » ومنهم من قال فاتحة الكتاب .
واختلفوا أيضا في آخر ما نزل فقال ابن عباس : (١١٠ : ١) « اذا جاء نصر
الله » وقالت عائشة : سورة المائدة وقال البراء بن عازب : آخر ما أنزل سورة
براءة ، وقال سعيد بن جبير آخر ما أنزل قوله تعالى (٢ : ٢٨١) : « واتقوا
يوما تُرجعون فيه الى الله » . وقال السدي : آخر ما أنزل (٩ : ١٢٩)
« فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت » ويجوز أن يكون في
مثل هذا خلاف وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع . ولو كان القرآن من
كلامه لكان البون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئها رجل
واحد وكانوا يعارضونه لانا قد علمنا أن القدر الذي بين كلامهم وبين كلام
النبي ^{صلى الله عليه وسلم} لا يخرج الى حد الاعجاز ولا يتفاوت التفاوت الكبير ، ولا يخفى
كلام من جنس أوزان كلامهم ، وليس كذلك نظم القرآن لانه خارج من
جميع ذلك

فان قيل لو كان على ما ادعيتم لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره .
قبيل معرفة الفصل بين وزن الشعر ووزنه والفرق بينه وبين غيره من الاوزان
تحتاج الى نظر وتأمل وفكر وروية واكتساب وان كان النظم المختلف الشديد التباين
اذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة الا ان كل وزن وقبيل اذا أردنا تمييزه من
غيره احتمنا فيه الى الفكرة والتأمل . فان قيل لو كان معجزاً لم يختلف أهل
الملة في وجه اعجازه . قيل قد يثبت الشيء دليلاً وان اختلفوا في وجه دلالة
البرهان كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون
 والاجتماع والافتراق . فاما المخالفون فانه يتمدر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام
الله لان مذهبهم أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل الله

عز وجل في كونه معجزاً ، لانه ان خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله أمكنه أن يأتي بما له هذه الرتبة وكان متعذراً على غيره لفقد علمه بكيفية النظم . وليس القوم بعاجزين عن الكلام ولا عن النظم والتأليف . والمعنى المؤثر عندهم في تعذر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية النظم ، وقد بينا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه . والمفحم قد يعلم كيفية الاوزان واختلافها وكيفية التركيب وهو لا يقدر على نظم الشعر ، وقد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة واذا قالوا الشرجاء شعر أحدهما في الطبقة العالية وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة وقد ترد في شعر المبتدى والمتأخر في الحدق النظمه الشريفه والبيت النادر مما لا يتفق للشاعر المتقدم . والعلم بهذا الشأن في التفصيل لا يعني ، ويحتاج معه الى مادة من الطبع وتوفيق من الاصل . وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة ثم يترقى لاحدهما من اللطف في الصنعة ما لا يتفق في الآخر . وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم ، وكذلك أهل الرمي يتفاضلون في الاصابة مع العلم بكيفية الاصابة . واذا وجدت للشاعر بيتاً أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس لا يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه لانه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد ، وبحسب ذلك البيت في الشرف والحسن والبراعة ، ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها ، وان كان كذلك علم أن هذا لا يرجع الى قدرة من العلم ، ولسنا نقول : انه يستغنى عن العلم في النظم بل يكفي علم به في الجملة ثم يقف الامر على القدرة . وهذا يبين لك بانه قد يعلم الخط فيكتب سطرا فلو أراد أن يأتي بمثله بحيث لا يغادر منه شيئاً لتعذر والعلم حاصل . وكذلك قد يحسن كيفية الخط ويميز الجيد منه من الرديء ولا يمكنه أن يأتي بأرفع درجات الجيد . وقد يعلم قوم كيفية ادارة الاقلام وكيفية تصوير الخط ثم يتفاوتون في التفصيل ويختلفون في التصوير وألزمهم أصحابنا أن يقولوا

بقدرتنا على احداث الاجسام وانما يتعذر وقوع ذلك منا لاننا لانعلم الاسباب التي اذا عرفنا ايقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الاجسام . وقد ذهب بعض المخالفين الى ان العادة انتقضت بان أنزله جبريل فصار القرآن معجزا لنزوله على هذا الوجه ومن قبله لم يكن معجزا . وهذا قول أبي هاشم وهو ظاهر الخطأ لانه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن وان لم يتعذر عليهم فعل مثله وانما تعذر بانزاله ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله وان كانوا في الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله فهو قولنا وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بينا لان معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله وكان ذلك متمذراً قبل نزوله وبعده فأما الكلام في أن التأليف هل له نهاية فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه فمنهم من قال ليس لذلك نهاية كالمصدق فلا يمكن أن يقال انه لا يتأتى قول قصيدة الا وقد قيلت من قبل ، ومنهم من قال ان ما جرت به العادة فله نهاية وما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه ، وقد بينا أن على أصولنا قد تقدر لكلامنا حد في العادة ولا سبيل الى تجاوزه ولا يقدر فان القرآن خرق العادة فزاد عليها

فصل

ان قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه ؟ قيل لا بد من ذلك لانا لو لم نعلم أن النبي ﷺ هو الذي أتى بالقرآن وظهر ذلك من جهته لم يمكن أن يستدل به على نبوته . وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة فأتى بها بلدا وادعى ظهورها عليه وانها معجزة له لم تنف الحجة عليهم حتى يبحثوا أو يقيموا أنها ظهرت عليه ، وقد حققنا أن القرآن أتى به النبي ﷺ وظهر من جهته وجعله عالماً على نبوته وعلماً ذلك ضرورة فصار حجة علينا

فصل

قد ذكرنا في الابانة عن معجز القرآن وجيزاً من القول رجونا أن يكفى
وأملنا أن يقنع ، والكلام في أوصافه ان استقصي بعيد الاطراف واسع الاكناف
لهو شأنه وشريف مكانه والذي سطرناه في الكتاب وان كان موجزا وماأمليناه
فيه وان كان خفيفا فانه يفبه على الطريقة ويدل على الوجه ويهدي الى الحجة
ومتى عظم محل الشيء فقد يكون الاسهاب فيه عيياً والاكثر في وصفه تقصيرا
وقد قال الحكيم - و سئل عن البليغ متى يكون عيباً - فقال متى وصف هوى أو
حبيباً . وذل اعرابي في سفر له ليلا وطلع القمر فاهتدى به ، فقال ما أقول لك ؟
أقول رفمك الله وقد رفمك ؟ أم أقول نورك الله وقد نورك ؟ أم أقول جملك
الله وقد جملك ؟ ولولا أن العقول تختلف والافهام تتباين والمعارف تتفاضل لم
تحتج الى ما تكلفنا واسكن الناس يتفاوتون في المعرفة ولو اتفقوا فيها لم يجز أن
يتفقوا في معرفة هذا الفن أو يجتمعوا في الهداية الى هذا العلم لانصالة باسباب
وتلقفه بعلوم غامضة الفور عميقة القعر كثيرة المذاهب قليلة الطلاب ضعيفة
الاصحاب ، وبحسب تأتي مواقعه يقع الافهام دونه ، وعلى قدر لطف مسالكه
يكون القصور عنه

أنشدني أبو القاسم الزعفراني قال : أنشدني المتنبى لنفسه القطعة التي

يقول فيها :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم
وأنشدني الحسن بن عبد الله قال : أنشدنا بعض مشايخنا للبحري :
أهز بالشعر أقواما ذوى سِنَّة لو أنهم ضُربوا بالسيف ماشعروا

على نحت القوافي من مقاطعها وما على لم أن تفهم البقر
 فاذا كان نقد الكلام كله صعباً وتميزه شديداً والوقوع على اختلاف
 فنونه متعديراً ، وهذا في كلام الأدمى ، فما ظنك بكلام رب العالمين
 قد أبنا لك أن من قدر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام لا يعرف
 من البلاغة إلا القليل ولا يفظن منها الا اليسير . ومن زعم أن البديع يقتصر
 على ما ذكرناه من قبل عنهم في الشعر فهو متطرف . بلى ان كانوا يقولون ان
 هذه من وجوه البلاغة وغرر البديع وأصول اللطيف ، وان ما يجري مجرى
 ذلك ويشاكله ملحق بالاصل ومردود على القاعدة فهذا قريب . وقد بينا في نظم
 القرآن ان الجملة تشتمل على بلاغة منفردة والاسلوب يختص بمعنى آخر من
 الشرف ثم الفواتح والحواتم والمباديء والمثنائي والطوالع والمقاطع والوسائط
 والفواصل ثم الكلام في نظم السور والآيات في تفاصيل التفاصيل ثم في الكثير
 والقليل ثم الكلام الموشح والمرصع والمفصل والمصرع والمجنس والموشى
 والمحلى والمكالم والمطوق والمتوج والموزون والخارج عن الوزن والمعتدل
 في النظم والمتشابه فيه ، ثم الخروج من فصل الى فصل ووصل الى وصل
 ومعنى الى معنى ومعنى في معنى ، والجمع بين المؤنث والمختلف والمتفق
 والمتسق ، وكثرة التصرف وسلامة القول في ذلك كله من التعسف وخروجه
 عن التعمق والتشدد وبعده عن التعمل والتكلف والالفاظ المفردة ، والابداع
 في الحروف والادوات كالابداع في المعاني والكلمات ، والبسط والقبض
 والبناء والنقض ، والاختصار والشرح والتشبيه والوصف وتميز الابداع من
 الاتباع كتميز المطبوع عن المصنوع والقول الواقع عن غير تكلف ولا تعمل
 وأنت تبين في كل ما تصرف فيه من الانواع انه على سمت شريف
 ومرقب منيف ، يهر اذا أخذ في النوع الربى والأمر الشرعي والكلام

الالهى الدال على أنه يصدر عن عزّة المسكوت وشرف الجبروت وما لا يبلغ الوم مواقفه من حكمة وأحكام واحتجاج وتقرير واستشهاد وتقرير واعذار وانذار وتبشير وتحذير وتنبيه وتلويح واشباع وتصريح وإشارة ودلالة وتعليم أخلاق زكية وأسباب رضية وسياسات جامعة ومواعظ نافعة وأوامر صادقة وقصص مفيدة وثناء على الله عز وجل بما هو أهله وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه وأخبار عن كائنات في التأتى صدقت وأحاديث عن المؤنّف تحققت ونواهٍ زاجرة عن القبائح والفواحش وإباحة الطيبات وتحريم المضار والخطائت وحث على الجميل والاحسان؛ نجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج ونظام أنيق ومعرض رشيق غير متعاصٍ على الاسماع ولا مغلّق على الافهام ولا مستكبره في اللفظ ولا متوحش في المنظر غريب في الجنس غير غريب في القبيل ممثلىء ماء ونضارة وطفاء وغضارة يسري في القلب كما يسري السرور ويمر الى مواقفه كما يمر السهم ويضيء كما يضيء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العباب جموح على المتناول المنتاب كالروح في البدن والنور المستطير في الافق والغيث الشامل والضياء الباهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد من توهم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله وصح جهله، اذ الشعر صمّت قد تناواته الأسن وتداولته القلوب وانثالت عليه الهواجس وضرب الشيطان فيه بسهمه وأخذ منه بحظه، وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلاً وأقرب مأخذاً وأسهل مطلباً ولذلك قالوا فلان مفحم فأخرجوه مخرج العيب كما قالوا فلان عبي فأوردوه مورد النقص والقرآن كتاب دل على صدق متحمّله ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها وبرهان شهد له براهين الاولياء المتقدمين وبينت على طريقة ما سلف الأولون

تحدّاهم به اذ كان من جنس القول الذي زعموا انهم أدرّ كوا فيه النهاية وبلغوا فيه للغاية فعرفوا عجزهم كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج والوصول الى أعلى مراتب الطب فجاهم بما بهرهم من احياء الموتى وبراء الاكاه والأبرص، وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما برعوا فيه من سحرهم وأنت على ما أجمعوا عليه من أمرهم، وكما سخر لسليمان من الرياح والطير والجن حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة وبدائع من اللطف، ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الاول والآخر وقوفا واحداً ويبقى حكمها الى يوم القيامة

انظر وفقك الله لما هديناك اليه وفكر في الذي دللناك عليه، فالحق منهج واضح والدين ميزان راجح، والجهل لا يزيد إلا غمًا ولا يورث إلا ندمًا. قال الله عز وجل (٣٩: ٩): «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب» وقال (٤٢: ٥٢) «وكذلك أوحيانا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا» وقال: (٢: ٢٦) «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا» وعلى حسب ما آتني من الفضل وأعطى من الكمال والعقل تقع الهداية والتبيين فان الامور تمّ بأسبابها وتحصل بآثارها، ومن سلبه التوفيق وحرّم الرشاد والتسديد، فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فاحمد الله على ما رزقك من الفهم ان فهمت، وقل رب زدني علماً، وقل رب أعوذ بك من كهمزات الشياطين. وان ارببت فيما بيناه فازدد في تعلم الصنعة وتقدم في المعرفة فسيقع بك على الطريق الارشد ويقف بك على الوجه الاحمد، فانك اذا فعلت ذلك أحطت علماً وتيقنت فهماً

ولا يوسوس اليك الشيطان بانه قد كان ممن هو أعلم منك بالمرية وأرجح منك في الفصاحة أقوام وأقوام ورجال ورجال فكذبوا وارتابوا ، لان القوم لم يذهبوا عن الاعجاز ولكن اختلفت أحوالهم : فكانوا بين جاهل وجاحد وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات وحائر عن النظر في الدلالات ، وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان وغاوت تحت حباله الشيطان ومقدوف بمخذلان الرحمن . وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة . وهلاجملت بازاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن اسلامه وكمب بن زهير في صدق ايمانه وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا . على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر أو بحر زاخر . وقد بينا أن لا اعتصام إلا بهداية الله ولا توفيق إلا بنعمة الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فتأمل ما عرفناك في كتابنا وفرغ له قلبك واجمع له لبك ، ثم اعتصم بالله يهيك وتوكل عليه يغنك ويمجرك ، وأسقرشده برشدك ، وهو حسبي وحسبك ونعم الوكيل

فهرس

صفحة

٣	مقدمة الفشر
٤	ترجمة المؤلف
٩	خطبة المؤلف
١٣	فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن
١٦	في أن القرآن لا يحتاج في كونه حجة الى دلالة أخرى
١٧	في أن القرآن آية كافية في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره
٢٠	فصل في الدلالة على أن القرآن معجز
٢١	التحدّي الى القرآن وعجز بلغاء العرب عن أن يأتيوا له بمثل
٢٧	انما احتيج الى التحدّي لاقامة الحججة و اظهار وجه البيان
٢٨	تفاوت الناس في ادراك الاعجاز ومعرفة وجه دلالاته
٢٩	اعتراف بلغاء العرب بعجزهم عن مثل بلاغة القرآن دال على عجز غيرهم
٣١	صوارف العرب عن الاسلام في بداية الدعوة
٣٢	هل كانت المعارضة ممكنة ومنع منها الصرفة ، أم الذي منع منها هو الاعجاز
٣٣	هل غير القرآن من كلام الله عزوجل معجز أيضا ؟
٣٦	فصل في جملة وجوه اعجاز القرآن :
٣٦	١ — الاخبار عن الغيوب مما لا يقدر عليه البشر
٣٧	٢ — أمية النبي ﷺ وأنه لم يقرأ كتب الاقدمين وسيرهم
٣٨	٣ — أن القرآن متناه في البلاغة الى الحد الذي يعلم به عجز الخلق عنه
٣٨	خروج القرآن في جملته عن المعهود من نظام جميع كلام العرب

- ٣٨ أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصريف البديع
- ٣٩ أن بديع تأليفه لا يتفاوت رغم ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها
- ٤١ أن كلام الفصحاء يتفاوت في الفصل والوصل والعلو والنزول الخ
- ٤١ أن نظم القرآن وقع موقعا من البلاغة يخرج عن عادة كلام المخلوقات
- ٤٥ أن الذي ينقسم عليه الخطاب من الوجوه التي توجد في كلام العرب موجود في القرآن
- ٤٥ أن لطف التعبير القرآني عن الأحكام والرد على الملحدين مما يتعذر على البشر
- ٤٦ في أن الكلمة القرآنية إذا تُمثَّل بها في تضاعيف كلام كثير كانت واسطة عقده
- ٤٧ الحروف التي في أوائل بعض السور
- ٤٩ سهولة أساليب القرآن وكونها غير مطموع أن يقدر البشر عليها
- ٥٢ فصل في شرح ما بيننا من وجوه اعجاز القرآن
- ٥٢ الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة في ذلك كله
- ٥٣ اخبار عن قصص الاولين وسير المتقدمين
- ٥٣ الاعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف
- ٥٤ فصل في نفي الشعر من القرآن
- ٥٦ أن الفصحاء حين أورد عليهم القرآن لم يكونوا يمتقدونه شعرا
- ٥٨ ما في القرآن من كلام موزون
- ٥٩ فصل في نفي السجع من القرآن
- ٦٢ فصاحة القرآن لا يجوز أن يقع فيها سجع موصوف بالاضطراب
- ٦٤ اعادة ذكر القصة الواحدة في القرآن بأساليب مختلفة دليل على الاعجاز
- ٦٥ العرب ونظمها الشعر
- ٦٧ رجوع الى مذهب القائلين بالصرفة

	صفحة
فصل في ذكر البديع من الكلام	٦٩
هل يمكن أن يُعرَف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع	٦٩
كلمات من البديع مأثورة عن الصحابة وفضحاء العرب	٧٠
أنواع من البديع في شعر امريء القيس وغيره	٧٢
في أن البديع شيء ووجوه الاعجاز في القرآن شيء آخر	٩٥
في أنه لا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن من البديع لانه ليس فيه ما يخرق العادة	٩٧
فصل في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن	٩٨
امكان تشابه أساليب الشعراء والكتاب	١٠٥
تعريف البلاغة عند بعض الأمم	١٠٩
خطبة نبوية « توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا »	١١٠
« ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم »	١١٠
« ان أحسن الحديث كتاب الله »	١١٠
« في أيام التشريق ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام »	١١١
« يوم فتح مكة « كل مائة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي »	١١٢
« بالخيف « نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها »	١١٢
« ألان الدنيا خضرة حلوة »	١١٣
كتاب نبوي الى ملك فارس	١١٣
« الى النجاشي »	١١٣
نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية	١١٤
في أن مقارنة الكلام النبوي بالكلام القرآني تدل على اعجاز القرآن	١١٤
خطبة الصديق الاعظم « وليت عليكم ولست بخيركم »	١١٥

- ١١٥ عهد أبي بكر الى عمر رضي الله عنها
- ١١٦ كتاب أبي عبيدة ومعاذ بن جبل الى عمر رضي الله عنهم
- ١١٧ عهد من عهد عمر رضي الله عنه
- ١١٨ خطبة عثمان رضي الله عنه « ان لكل شيء آفة ، ولكل نعمة عاهة »
- ١١٩ كتاب عثمان الى علي حين حصر رضي الله عنهما
- ١١٩ تأبين علي أبا بكر رضي الله عنهما لما قبض
- ١٢١ خطبة علوية « ان الدنيا قد ادرت وآذنت بوداع »
- ١٢١ « ما خلق امرؤ عبثاً فيلهو »
- ١٢١ كتاب علي الى ابن عباس وهو بالبصرة رضي الله عنهم
- ١٢٢ كلام لابن عباس رضي الله عنهما
- ١٢٢ خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه
- ١٢٣ خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه
- ١٢٤ خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
- ١٢٤ خطبة للحجاج بن يوسف في أهل العراق
- ١٢٤ خطبة لقس بن ساعدة الايادي
- ١٢٦ خطبة لأبي طالب
- ١٢٦ استفتاح المؤلف أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين
- ١٢٨ في أن كلام مسيلة أخس من أن يشتغل به
- ١٣٠ نقد معلقة امرئ القيس وبيان عوارها في جانب اعجاز القرآن
- ١٤٧ آخر نقد معلقة امرئ القيس
- ١٤٨ الامثلة على أن نهج القرآن ونظمه تنبيه العقول في جهته وتحرار في بحره
- ١٦٥ الآيات قسمان: ما يتم بنفسه أو بنفسه وفاصلته ، وما يشتمل على كلمتين أو كلمات

	صفحة
الاعجاز في بعض الآيات يقع في تنزيل الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى	١٦٦
البلاغة في آيات الأحكام	١٦٧
في أن جنس الشعر لا يعارض نظم القرآن	١٧٣
نقد أجود قصائد البحري « أهلاً بذكلكم الخيال المقبل » وبيان عوارها	١٧٥
آخر نقد قصيدة البحري اللامية	١٨٩
الإشارة إلى مطاعن الملاحدة في القرآن	١٩٢
فصل هل عجز أهل العصر النبوي عن المعارضة يقتضي عجز من بعدهم ؟	١٩٥
فصل في التحدي	١٩٦
فصل في قدر المعجز من القرآن	١٩٨
في أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبلوغ	٢٠٠
فصل في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة ؟	٢٠١
فصل فيما يتعلق به الإعجاز	٢٠١
فصل في وصف وجوه من البلاغة	٢٠٢
الاستعارة في القرآن	٢٠٤
التلازم في القرآن وأن بعض الناس أحسن إحساساً به من بعض الفواصل	٢٠٥
المناسبة ، والتصريف ، والتضمين	٢٠٦
حسن البيان	٢٠٧
الإيجاز والبسط	٢١٣
تفاوت الناس فيما يتوصل إليه من البيان بالتعلم	٢١٤
هل يجوز أن يقال إن بلاغة القرآن هي أقصى ما يبلغه البشر من البلاغة ؟	٢١٥
فصل في حقيقة المعجز	٢١٦
فصل في كلام النبي ﷺ وأمور تتعلق بالإعجاز	٢١٩
فصل من شرط المعجز أن يسلم أنه أتى به من ظهر عليه	٢٢٣
فصل متى عظم محل الشيء فقد يكون الإسهاب فيه عيباً	٢٢٤